SAA
Online Education
أكاديمية الشريعة بأمريكا
Sharia Academy of America

تهذيب
شرح الطحاوية

إعداد

الأستاذ الدكتور

صلاح الصاوي

رئيس الأكاديمية
والأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا

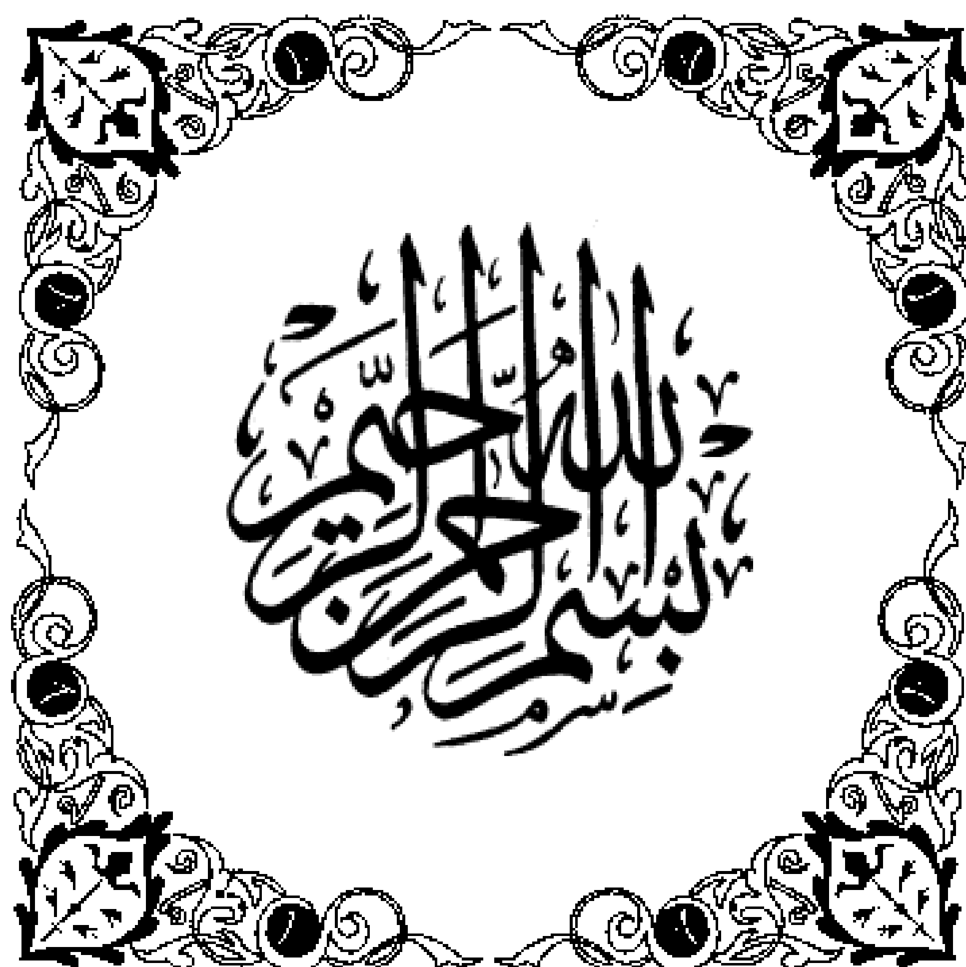


الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع

٢٠٠٩/٨٤٨٧


بسم الله الرحمن الرحيم

مرحباً بطالب العلم

كلمة قالها رسول الله ﷺ[1] منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، ولا تزال منقوشة على صدور ورثته من بعده وفي قلوبهم! يستقبلون بها طلبة العلم من مشرق أو من مغرب، يبشون بها في وجوههم ويفسحون لهم في مجالسهم، ويقدرون توجههم لطلب العلم وانقطاعهم لتحصيله.

وعلوم الشريعة - أيها الدارس الكريم- هي ميراث النبوة؛ فإن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا وإنما ورثوا هذا العلم، وعلى قدر حظ الناس منه يكون حظهم من وراثة النبي ﷺ.

ولهذا كان طلب العلم أغلى ما أنفقت فيه أعمار البشر وأموالهم، وإن لحظة ينفقها الإنسان في عمره لا يستفيد فيها علمًا، ولا يقصد فيها إلى طاعة، لجديرة بأن تطول عليها حسرته!

...هذا، وإنَّ أكاديمية الشريعة وهي تدرج أولى خطواتها في نشر العلم والمعرفة في أرض الله الواسعة باسم الله وعلى سنة رسول الله، متخذة من أمريكا نقطة انطلاق لها، فإنها تود أن تكون بذلك على خطى الرعيل الأول من صحابة النبي ﷺ الذين خرجوا

(١) من حديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٥٤) عن صفوان بن عسال المرادي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رجاله رجال الصحيح (١/ ١٣١).

من مدينة الرسول ﷺ ينشرون علمه وهديه، ويوطئون لرسالته مهادًا في مشارق الأرض ومغاربها، واختاروا ذلك على البقاء في مدينة الرسول ﷺ ومجاورة مسجده الشريف، حيث الصلاة المضاعفة الأجر، والتي يزيد أجرها ألف مرة على ما سواها من الصلوات في بقية المساجد.

وبعد: فهذه نصيحة لطالب العلم وهو في بداية الطريق:

احرص على تجريد القصد لله ﷻ، ولا تشب هذا الطلب الشريف بشائبة من حظوظ النفس وأغراضها، فإن من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله ،لا يتعلمه إلا ليصيب عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة!

وحسبك هذا الحديث الشريف: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى!**»[1].

واعلم أن الأصل في طلب علوم الشريعة هو المشافهة والتلقي المباشر، فهو الذي تخرج عليه علماء الأمة عبر القرون، فلا ينبغي أن يعدل عن هذا الأصل ما امتهد سبيل إلى ذلك.

ومن كان شيخه كتابه فاق خطؤه صوابه! فاحرص على المحاضرات التي تقدمها الأكاديمية سواء من خلال أساتذتها الزائرين، أو من خلال ما تبثه إليك عبر وسائط التقنية التي يتم فيها التواصل صوتًا وصورة بينك وبين المحاضرين أينما كانوا، مهما تناءت الأقطار وتباعدت المسافات.

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، البخاري في كتاب بدء الوحي: باب بدء الوحي، ح:١، ومسلم في كتاب الإمارة باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**»، ح: ١٩٠٧

واحرص على الجد في الاستذكار والتحصيل، واعتنِ بالأنشطة والاختبارات الملحقة في نهاية كل وحدة دراسية.

مع أطيب تمنيات الأكاديمية لك بالتوفيق والسداد، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

أ.د./ صلاح الصاوي

رئيس الأكاديمية

بيان بالرموز المستخدمة في التخريج

ب:	الباب
ح:	الحديث
خ:	البخاري
م:	مسلم
د:	ابو داود
ت:	الترمذي
س:	النسائي
ق:	ابن ماجة القزويني
ط:	الموطأ
حم:	مسند الإمام أحمد
ك:	المستدرك
حب:	ابن حبان
مي:	الدارمي
تخ:	التاريخ الكبير للبخاري
قط:	الدارقطني
طس:	سنن ابي داود الطيالسي
الكنز:	كنز العمال
الهيثمي:	مجمع الزوائد



إن شرح الرسالة الطحاوية للإمام ابن أبي العز الحنفى –رحمه الله تعالى– من أوثق كتب العقائد، وأكثرها قبولاً في الأوساط الإسلامية، حيث اشتملت على عقيدة أهل السنة والجماعة. لذا فقد اعتمدت الأكاديمية تقريب الكتاب، وتهذيبه ليسهل في تناوله. وقد اتبعت في القيام بهذا التهذيب ما يلي:

- اختصار مادة الكتاب، لا سيما مواطن الإطناب في عرض شبهات ومبادئ الفرق الضالة، والرد عليها، مع حذف ما جاء فيه من الاستطرادات الكلامية.
- إعادة ترتيب متن الإمام الطحاوى –رحمه الله تعالى– مع موضوعات شرح الكتاب وفقاً لما جاء في حديث جبريل عن أركان الإيمان، مع وضع العناوين الجانبية المناسبة لفقرات الكتاب، وجمع المتفرقات في باب واحد في نهاية الكتاب.
- التعليق على بعض المواطن التي تحتاج إلى تعقيب أو مزيد بيان في هامش الكتاب مع الإحالة إلى مصادرها، بجانب تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب.
- التقديم لكل وحدة بالأهداف الخاصة بمحتويات مباحثها، والرسم التوضيحي المشتمل على متن الإمام الطحاويّ المتعلق بموضوعاتها، وإنهاء الوحدة بالخلاصة الهامة لمحتوياتها، مع أسئلة التقويم الذاتي والتدريبات البعدية لها.

وإنني لأرجو أن ينفع الله الدارسين الكرام بهذا الكتاب.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وحدات الكتاب

الوحدة التمهيدية

حقيقة الإيمـــان

- المبحث الأول: الخلاف في مسمى الإيمان.
- المبحث الثاني: الإيمـــان والإسلام.
- المبحث الثالث: حقيقة الإسلام.
- المبحث الرابع: زيادة الإيمان ونقصانه.
- المبحث الخامس: حكم الاستثناء في الإيمان.
- المبحث السادس: الحكـم بالإسـلام والحكـم بـالكفر والربط بين الظاهر والباطن.
- المبحث السابع: الكبائر والصغائر.
- المبحث الثامن: حكم الشهادة لمعيَّن بالجنة أو النار.
- المبحث التاسع: صحة الاقتـداء بأهل القبلة.
- المبحث العاشر: أركـان الإيمـــان.



يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون ملماً بما يلي:

(١) حقيقة الإيمان عند أهل السنة ومن خالفهم.

(٢) العلاقة بين الإسلام والإيمان.

(٣) حقيقة الإسلام.

(٤) زيادة الإيمان ونقصانه.

(٥) حكم الاستثناء في الإيمان.

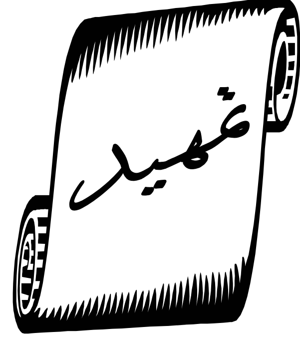
(٦) الحكم بالإسلام والحكم بالكفر، والربط بين الظاهر والباطن.

(٧) الكبائر والصغائر.

(٨) حكم الشهادة لمعين بالجنة أو النار.

(٩) صحة الاقتداء بأهل القبلة.

(١٠) أركان الإيمان.



مما ينبغي تقريره بين يدي مباحث الإيمان: أن حقيقة الإيمان مركبة من **قول وعمل**:

أما **القول** فقسمان: **قول القلب**، وهو: الاعتقاد والتصديق، و**قول اللسان** وهو: التكلم بكلمة الإسلام.

وكذا **العمل** قسمان: **عمل القلب**، وهو: المحبة والانقياد، و**عمل الجوارح**.

فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء؛ فإن تصديق القلب شرط في اعتبارها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق فهنا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة، فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب[(١)].

ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح؛ إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت، ففي الصحيحين أن النبيﷺ قال: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب**»، فمن صلح قلبه صلح جسده قطعاً، بخلاف العكس. ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة وهو حقيقة الإيمان، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق إنما هو **التصديق المستلزم للطاعة والانقياد**[(٢)].

---

(١) إشارة إلى قاعدة التلازم بين الظاهر والباطن، وهي من أعظم أصول أهل السنة. وانظر المبحث السادس.

(٢) يقول ابن تيمية: «وأيضاً فقد جاء نفر من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نشهد إنك لرسول -ولم يكونوا مسلمين بذلك؛ لأنهم قالوا ذلك على سبيل الإخبار عما في أنفسهم، أي: نعلم ونجزم أنك رسول الله قال: «فلم لا تتبعوني؟» قالوا: نخاف من يهود. فعُلِم أن مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد مع تضمن ذلك الإخبار عما في أنفسهم. فالمنافقون قالوها مخبرين كاذبين فكانوا كفاراً في الباطن، وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين فكانوا كفاراً في الظاهر والباطن». الفتاوى (٧/ ٥٦١).



الخلاف في مسمى الإيمان [1]

قـال المصـنف-رحمـه الله-: (والإيمـان هـو الإقـرار باللسـان والتصديق بالجنان).

اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافًا كثيرًا: [2]

- مذهب جمهور السلف من الأئمة الثلاثة: مالك والشافعي وأحمد وغيرهم أن: ما يقوم بالقلب واللسان والجوارح هو تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح.
- مذهب أبي حنيفة وأصحابه في الإيمان ما ذكره الطحاوي من أنه: ما يقوم بالقلب واللسان دون الجوارح، فهو إقرار باللسان، وتصديق بالجنان[3].

---

(١) راجع نشوء هذا الخلاف في الصدر الأول: الفتاوى (٧/ ٤٧٩).

(٢) قال ابن تيمية: «والمرجئة ثلاثة أصناف: الأول: الذين يقولون: الإيمان مجرد ما في القلب، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة..، ومنهم من لا يدخلها، كجهم ومن اتبعه كالصالحي..، والقول الثاني: من يقول هو مجرد قول اللسان، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية، والثالث: تصديق القلب وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم». انظر: الفتاوى (٧/ ١٩٥).

(٣) قال الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى: «هذا التعريف فيه نظر وقصور، والصواب الذي عليه أهل السنة والجماعة: أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.. وإخراج العمل من الإيمان هو قول المرجئة..». انظر: العقيدة الطحاوية، تعليق ابن باز، ص٢٢، مكتبة السنة.

- وذهب الكرَّامية إلى أن: الإيمان هو ما يقوم باللسان فقط، فهو الإقرار باللسان، وقولهم ظاهر الفساد؛ لأنه يترتب عليه أن المنافقين مؤمنون كاملو الإيمان وإن كانوا يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به.
- وذهب الجهم بن صفوان والماتريدي إلى أنه: ما يقوم بالقلب وحده، وهو: إما المعرفة كما قال جهم، أو التصديق كما قاله الماتريدى. وهو أظهر فساداً مما قبله:

فإنه يترتب عليه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين؛ فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ولم يؤمنوا بهما؛ ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[(٢)]. ﷺ

وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ولم يكونوا مؤمنين به، بل كافرين به معادين له. ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[(٣)].

وكذلك أبو طالب عند الجهم يكون مؤمناً فإنه قال:

ولقــد علمــت بــأن ديــنَ محمــدٍ * مــن خــير أديــان البريــة دينــا**

لـــولا الملامـــة أو حـــذار مســـبةٍ * لوجـــدتني ســـمحًا بـــذاك مبينـــا**

بل إبليس يكون عنده مؤمناً كامل الإيمان فإنه لم يجهل ربه بل هو عارف به ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[(٤)].

---

(١) الإسراء: ١٠٢.

(٢) النمل: ١٤.

(٣) البقرة: ١٤٦.

(٤) ص: ٧٩.

فالكفر عند الجهم هو الجهل بالله تعالى، وسبحان الله، ما أجهله هو بربه إذ جعله الوجود المطلق، وسلب عنه صفاته. ولا شك أن فساد قوله ظاهر.

الخلاف بين أبي حنيفة والجمهور:

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة اختلاف صوري، ونزاع لفظي[1] لا يترتب عليه فساد اعتقاد:

فلا خلاف بين أهل السنة أن الله تعالى أراد من العباد القول والعمل، وأعني بالقول: التصديق بالقلب والإقرار باللسان، وهذا الذي يعنى به عند إطلاق قولهم: الإيمان قول وعمل.

لكن هذا المطلوب من العباد: هل يشمله اسم الإيمان؟ أم الإيمان أحدهما وهو القول وحده، والعمل مغاير له لا يشمله اسم الإيمان عند إفراده بالذكر وإن أطلق عليهما كان مجازاً؟ هذا محل النـزاع.

وقد أجمعوا على أنه لو صدق بقلبه وأقر بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه أنه عاص لله ورسوله مستحق للوعيد.[2]

وقد وقع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، بل هو في مشيئة الله إن

(١) قال الشيخ ابن باز رحمه الله: «وإخراج العمل من الإيمان هو قول المرجئة، وليس الخلاف بينهم وبين أهل السنة فيه خلافاً لفظياً، بل هو لفظي ومعنوي، ويترتب عليه أحكام كثيرة يعلمها من تدبر كلام أهل السنة وكلام المرجئة..». انظر: العقيدة الطحاوية، تعليق ابن باز، ص٢٢، مكتبة السنة.

(٢) قال ابن تيمية: «قال حنبل: حدثنا الحميدي: أخبرت أن أناسًا يقولون: إن من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئًا حتى يموت ويصلي مستدبر القبلة حتى يموت فهو مؤمن ما لم يكن جاحدًا إذا علم أن ترك ذلك فيه إيمانه، وإذا كان مقرًا بالفرض واستقبال القبلة. فقلت: هذا الكفر الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية. وقال حنبل: سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل يقول: من قال هذا فقد كفر بالله ورد عليه أمره وعلى الرسول ما جاء به عن الله». الفتاوى (٧/ ٢٠٩).

شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، وإلا فقد نفى النبي ﷺ الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر والمنتهب ولم يوجب ذلك زوال اسم الإيمان(١) عنهم بالكلية اتفاقًا.

ثم كان الخلاف بعد ذلك حول أعمال الجوارح، هل هي لازمة لإيمان القلب أو جزء منه؟ وهذا الخلاف بعد الاتفاق على المسائل السابقة لا يعدو أن يكون خلافًا لفظيًا لا محذور فيه إلا ما قد يقع بسببه من العداء، أو أن يصير ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام المذمومة من أهل الإرجاء ونحوهم وإلى ظهور الفسق والمعاصي بأن يقول: أنا مؤمن حقًا كامل الإيمان والإسلام، ولي من أولياء الله. فلا يبالي بما يكون منه من المعاصي، وبهذا المعنى قالت المرجئة: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله(٢)، وهذا باطل قطعًا.

فالإمام أبو حنيفة -رحمه الله- نظر إلى حقيقة الإيمان لغةً مع أدلة من كلام الشارع، وبقية الأئمة رحمهم الله نظروا إلى حقيقته في عرف الشارع فإن الشارع ضم إلى التصديق أوصافًا وشرائط كما في الصلاة والصوم والحج ونحو ذلك.

أدلة أبي حنيفة وأصحابه:

أن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق، ومنهم من ادعى إجماع أهل اللغة على ذلك، قال تعالى مُخْبِرًا عن إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾(٣) أي بمصدق لنا.

---

(١) بل قد نفى النبي ﷺ عنهم اسم الإيمان، والمقصود أنه قد زال عنهم الإيمان الواجب فرجع إلى دائرة الإيمان المجمل والإسلام.

(٢) قال ابن تيمية: «وبعض الناس يحكى هذا عنهم.. وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد، لكن ما علمت معينًا حكي عنه هذا القول وإنما الناس يحكونه فى الكتب ولا يعينون قائله، وقد يكون قول من لا خلاق له». الفتاوى (٧/ ١٨١).

(٣) يوسف: ١٧.

ثم هذا المعنى اللغوي وهو التصديق بالقلب هو الواجب على العبد حقًا لله وهو أن يصدق الرسول فيما جاء به من عند الله، فمن صدق الرسول فيما جاء به من عند الله فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى والإقرار شرط إجراء أحكام الإسلام في الدنيا هذا على أحد القولين.

ولأنه ضد الكفر وهو التكذيب والجحود وهما يكونان بالقلب فكذا ما يضادهما.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1] يدل على أن القلب هو موضع الإيمان لا اللسان.

ولأنه لو كان مركباً من قول وعمل لزال كله بزوال جزئه.

ولأن العمل قد عطف على الإيمان، والعطف يقتضي المغايرة، كما يتكرر كثيرًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

مناقشة أدلة أبي حنيفة:

- **اعترض على الاستدلال بأن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق:**
  - **بمنع الترادف بين التصديق والإيمان:**

وهب أن الأمر يصح في موضع، فلم قلتم: إنه يوجب الترادف مطلقًا؟ وكذلك اعترض على دعوى الترادف بين الإسلام والإيمان. ومما يدل على عدم الترادف:

أنه يقال للمخبِر إذا صدَق صدّقه، ولا يقال آمنه، ولا آمن به، بل يقال آمن له كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾[2]، وقوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾[3]، وقوله:

(١) النحل: ١٠٦.

(٢) العنكبوت: ٢٦.

(٣) يونس: ٨٣

﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، ففرق بين المعدَّى بالباء والمعدَّى باللام فالأول يقال للمخبَر به، والثاني للمخبِر، فالحاصل أنه لا يقال: قد آمنته، ولا صدقت له، إنما يقال: آمنت له، كما يقال: أقررت له، فكان تفسيره بأقررت أقرب من تفسيره بصدَّقت مع الفرق بينهما.

ومن ناحية أخرى فإن الفرق بينهما ثابت في المعنى؛ فإن كل مخبِر عن مشاهد أو غيب يقال له في اللغة صدَقت، كما يقال له كذبت. أما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن الغائب، فيقال لمن قال: طلعت الشمس: صدَّقناه، ولا يقال: آمنا له؛ فإن فيه أصل معنى الأمن والائتمان إنما يكون في الخبر عن الغائب فالأمر الغائب هو الذي يؤتمن عليه المخبِر؛ ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في هذا النوع.

ولأنه لم يقابل لفظ الإيمان قط بالتكذيب كما يقابل لفظ التصديق، وإنما يقابل بالكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق، ولكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك وأخالفك، لكان كفرًا أعظم، فعلم أن الإيمان ليس التصديق فقط ولا الكفر التكذيب فقط، بل إذا كان الكفر يكون تكذيبًا ويكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب، فكذلك الإيمان يكون تصديقًا وموافقة وموالاة وانقيادًا ولا يكفي مجرد التصديق فيكون الإسلام جزءٍ مسمى الإيمان.

☜ **ولو سلم الترادف:**

فالتصديق يكون بالأفعال أيضًا، كما ثبت في الصحيح: «**العينان تزنيان وزناهما النظر...**» إلى أن قال: «**والفرج يصدق ذلك ويكذبه**»[2]. وقال الحسن البصري رحمه الله: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في الصدور وصدقته الأعمال.

---

(١) التوبة: ٦١.

(٢) متفق عليه. خ: الاستئذان، ب١٢، ح٥٨٨٩. م: القدر، ب:٥، ح٢٠ و٢١ – عن أبي هريرة.

ولو كان تصديقًا فهو تصديق مخصوص كما في الصلاة ونحوها كما قد تقدم، وليس هذا نقلاً للفظ ولا تغييرًا له فإن الله لم يأمرنا بإيمان مطلق، بل بإيمان خاص وصفه وبينه، فالتصديق الذي هو الإيمان أدنى أحواله أن يكون نوعًا من التصديق العام فلا يكون مطابقًا له في العموم والخصوص، بل يكون الإيمان في كلام الشارع مؤلفًا من العام والخاص كالإنسان الموصوف بأنه حيوان ناطق.

ولأن التصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح فإن هذه من لوازم الإيمان التام وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، ونقول: إن هذه اللوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة[1]، وتخرج عنه أخرى[2]، أو إن اللفظ باق على معناه في اللغة، ولكن الشارع زاد فيه أحكامًا، أو أن يكون الشارع استعمله في معناه المجازي فهو حقيقة شرعية مجاز لغوي، أو أن يكون قد نقله الشارع.

- **أما قولهم: إن التصديق هو الواجب حقًا لله، وإن من صدق الرسول فيما جاء به فهو مؤمن على الحقيقة،** فمردود؛ لأننا قد علمنا يقينًا من سنة رسول الله ﷺ أن من صدّق ولم يتكلم بلسانه بالإيمان مع قدرته على ذلك، وترك العمل بالفرائض، وأبغض الرسول وعاداه فليس بمؤمن. كما قد علمنا أيضًا أنه رتب الفوز والفلاح على التكلم بالشهادتين مع الإخلاص والعمل بمقتضاهما. وقد قال النبى ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**[3].

(١) عند الإطلاق والتجريد.

(٢) عند الاقتران والتقييد.

(٣) متفق عليه. خ: الإيمان، ب٣، ح٩. م: الإيمان، ب١٢، ح٥٧ و ٥٨ – عن أبي هريرة.

فالإيمان أصل[1] **له شعب متعددة وكل شعبة منها تسمى إيمانًا**، فالصلاة من الإيمان وكذلك سائر الفرائض كالزكاة والصوم والحج وغيرها، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه[2]، حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق فإنه من شعب الإيمان. وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها إجماعًا كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها إجماعًا كترك إماطة الأذى عن الطريق. وبينهما شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، منها ما يَقْرُبُ من شعبة الشهادة، ومنها ما يقرب من شعبة إماطة الأذى [3].

وكذلك الكفر[4] **أصلٌ وفروع**، وكما أن شعب الإيمان إيمان، فكذا شعب الكفر كفر، فالحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله كفر. وقد قال ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك**

---

(١) أصل الإيمان هو الإيمان المجمل بما جاء به الرسول تصديقًا وانقيادًا ؛ تصديق الخبر، والانقياد للأمر،وهو ما يلزم– عند الخلو من النواقض المكفرة– لثبوت حكم الإسلام في الدنيا والنجاة من الخلود في النار يوم القيامة.

يقول ابن تيمية: «إن الإيمان ثلاث درجات: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢] إيمان السابقين المقربين، وهو ما أتي فيه بالواجبات والمستحبات من فعل وترك، وإيمان المقتصدين أصحاب اليمين وهو ما أتي فيه بالواجبات من فعل وترك، وإيمان الظالمين وهو ما يترك فيه بعض الواجبات أو يفعل فيه بعض المحظورات، فأما أصل الايمان الذي هو الإقرار بما جاءت به الرسل عن الله تصديقًا به وانقيادًا له فهذا أصل الايمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن». الفتاوى (١٢/ ٤٧٤).

(٢) كل عمل من أعمال القلوب له أصل لا يصح الإيمان بدونه، وله كمال واجب لا يتم الإيمان الواجب إلا به، وله كمالات فوق ذلك تعلو بها المقامات. وفي ضوء ذلك تفهم شروط لا إله إلا الله.. راجع: معارج القبول (١/ ٣٣٣) دار الكتب العلمية.

(٣) فأعمال الظاهر والباطن تسمى إيمانًا، منها ما يعد شرط صحة، ومنها ما يعد شرط كمال. فكل قول أو فعل تركه كفر فالقيام به شرط لصحة الإيمان، وكذلك كل قول أو فعل هو كفر فتركه يعتبر شرطًا لصحة الإيمان.

(٤) يقول ابن تيمية: «والكفر هو عدم الإيمان، سواء كان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض، فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر». الفتاوى (٧/ ٦٣٩).

أضعف الإيمان»[1]، وفي حديث آخر: «**ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[2]. وقال: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»[3]، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على قوة الإيمان وضعفه بحسب العمل.

- **وأما كونه يلزم من زوال جزئه زوال كله:** فإن أريد أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت فمسلّم ؛ ولكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء فيزول عنه الكمال فقط.[4]
- **وأما كون عطف العمل على الإيمان يقتضي المغايرة:** فلا يكون العمل داخلاً في مسمى الإيمان: فاعلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما. والمغايرة على مراتب نذكرها فيما يلي:

أعلاها أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزءًا منه ولا بينهما تلازم، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[5] وهذا هو الغالب.

أن يكون بينهما تلازم، كقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[6]

عطف بعض الشيء عليه، كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[1]،

---

(١) رواه مسلم،ب٢٠، ح٧٨ – عن أبي سعيد الخدريّ.

(٢) رواه مسلم، ٨٠ جـ١ ص٢١٤.

(٣) ت: القيامة، ب٦٠، ح٢٥٢١ عن معاذ بن أنس الجهني، وقال: حسن. وأيضاً د: السنة، ب١٦، ح٤٦٨١. صححه الألباني برقم (٥٩٦٥) صحيح الجامع (٢/ ١٠٣٤) ط المكتب الإسلامي.

(٤) يقول ابن تيمية: «وأما قول القائل: إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله، فهذا ممنوع، وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان ؛ فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء». الفتاوى (٧/ ٢٢٣). ويلاحظ أن الإيمان حقيقة مركبة، إذا زال ركن فيها لم يصح الإيمان، وإن لم تزل سائر الأجزاء.

(٥) الأنعام: ١.

(٦) النساء: ٥٩.

وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[2]. وفي مثل هذا وجهان:

أحدهما: أن يكون داخلاً في الأول فيكون مذكورًا مرتين.

والثاني: أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلاً فيه هنا وإن كان داخلاً فيه منفرداً، كما قيل مثل ذلك في لفظ الفقراء والمساكين ونحوهما مما تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران.

عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين، كقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾[3]، وقد جاء في الشعر العطف لاختلاف اللفظ فقط كقوله:

فَأَلْفَى قَولَهَا كذبًا ومينًا[4]

فإذا كان العطف في الكلام يكون على هذه الوجوه نظرنا في كلام الشارع كيف ورد فيه الإيمان، فإنه تارة يذكر مطلقًا عن العمل وعن الإسلام، وتارة يذكر مقرونًا بالعمل أو بالإسلام على ما سيأتي في المبحث التالي.[5]

---

(١) البقرة: ٢٣٨.

(٢) البقرة: ٩٨.

(٣) غافر: ٣.

(٤) مثل قول الشاعر: **ألا حبذا هند وأرض بها هند   وهند أتى من دونها النأي والبعد** الفتاوى (٧/ ١٧٧).

(٥) في ختام هذا المبحث تجدر الإحالة إلى ما أورده د.سفر الحوالي في رسالته النافعة: (ظاهرة الإرجاء) عن مذهب المرجئة الفقهاء والرد عليهم. قال حفظه الله: «بعد أن استقرت الأمة على التمذهب بالمذاهب الأربعة المشهورة، استقر مذهب المرجئة الفقهاء ضمن مذهب أبي حنيفة رحمه الله، ولهذا أصبح يسمى مذهب الحنفية.. ومذهبهم أن الإيمان يشمل ركنين: تصديق القلب، وإقرار اللسان، وأنه لا يزيد، ولا ينقص، ولا يستثنى فيه، وأن الفاسق يسمى مؤمنًا؛ إذ الإيمان شيء واحد، ينتفي كله، أو يبقى كله حسب الأصل المذكور سابقاً. وأشهر من يمثل هذا المذهب هم فقهاء الحنفية المتمسكون بعقيدة السلف، وعلى رأسهم الإمام أبو جعفر الطحاويّ صاحب العقيدة المشهورة، والإمام القاضي ابن أبي العز شارحها، وقليل من المتأخرين. وحقيقة الأمر أن مذهب هؤلاء مضطرب متردد؛ ولهذا قال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية: إنهم إذا لم يدخلوا أعمال القلوب في الإيمان لزمهم قول جهم، وإن أدخلوها في الأعمال لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضاً؛ فإنها لازمة لها..) بتصرف. (انظر: الجزء الثاني من رسالة: ظاهرة الإرجاء ص٤١٢).



الإيمــــان و الإســــلام

مما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الواردة في كلام الله ورسوله، بل في كلام كل أحد، تتنوع دلالاتها بالإطلاق والتقييد، والاقتران والتجريد.

فلا شك أن الإيمان:

تارة يذكر مطلقًا عن العمل وعن الإسلام.

وتارة يذكر مقرونًا، إما بالإسلام، وإما بالعمل الصالح.

☚ **فالإيمان المطلق مستلزم للأعمال:**

وإذا أطلق الإيمان يراد به ما يراد بلفظ البر والتقوى والدين ودين الإسلام. والكتاب والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق، وهذا أكثر من معنى الصلاة والزكاة؛ فإن ألفاظ الصلاة والزكاة قد فسرتها السنة والإيمان بين معناه الكتاب والسنة:

فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[(1)]، وقوله:

(1) الأنفال: ٢.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾(1)، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾(2)، فنفي الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل على أن هذه الغاية فرض على الناس، فمن تركها كان من أهل الوعيد، ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب.

وأما السنة: فقد فسر النبي الإيمان في حديث وفد عبد القيس المتفق على صحته بما فسر به الإسلام في حديث جبريل، حيث قال لهم: «**آمركم بالإيمان بالله وحده. أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم**»(3). ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيمانًا بالله بدون إيمان القلب؛ لما قد أخبر في مواضع أنه لا بد من إيمان القلب، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان. وأي دليل على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان فوق هذا الدليل؟ فإنه فسر الإيمان بالأعمال ولم يذكر التصديق للعلم بأن هذه الأعمال لا تفيد مع الجحود.

ولا يقال: إن بين تفسير النبي ﷺ الإيمان في حديث جبريل وتفسيره إياه في حديث وفد عبد القيس معارضة؛ لأنه فسر الإيمان في حديث جبريل بعد تفسير الإسلام فكان المعنى أنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مع الأعمال التي ذكرها في تفسير الإسلام، كما أن الإحسان متضمن للإيمان الذي قدم تفسيره قبل ذكره، بخلاف حديث وفد عبد القيس؛ لأنه فسره ابتداءً لم يتقدم قبله تفسير الإسلام. ولكن هذا

---

(1) الحجرات: ١٥.

(2) النساء: ٦٥.

(3) متفق عليه. خ: الإيمان، ب٣٨، ح٥٣، والعلم: ب:٢٥، ح٨٧، والمواقيت، ب١، ح٥٠٠، والتوحيد: ب٥٦، ح٧١١٧. م: الإيمان، ب٦، ح٢٣ –عن ابن عباس.

الجواب لا يتأتى على ما ذكره الشيخ رحمه الله من تفسير الإيمان فحديث وفد عبد القيس مشكل عليه.

وقال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١).

وقال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن..** ».(٢)

☚ **وأما عند الاقتران:**

فإذا عطف العمل الصالح على الإيمان: فقد تقدم الكلام عليه في المبحث الأول عند مناقشة أدلة أبي حنيفة وأصحابه عن مراتب عطف الشيء على الآخر.

فإذا قرن الإيمان بالإسلام:

فقد فسر النبي الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالإيمان بالأصول الستة، فليس لنا إذا جمعنا بينهما أن نجيب بغير ما أجاب به النبي ﷺ.

ويبينه قوله في حديث سؤالات جبريل في معنى الإسلام والإيمان، وقد قال فيه النبي ﷺ: «**هذا جبرائيل أتاكم يعلمكم دينكم**». فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان، فهو يجمع هذه الثلاثة، لكنه درجات ثلاث: إسلام، ثم إيمان، ثم إحسان. والمراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام قطعًا، كما أنه أريد بالإحسان ما ذكر مع الإيمان والإسلام لا أن الإحسان يكون مجردًا عن الإيمان، هذا محال. فالإحسان أعم من جهة

(١) متفق عليه.(سبق تخريجه).

(٢) متفق عليه. خ: المظالم، ب٣٠، ح٢٣٤٣. م: الإيمان، ب٢٤، ح١٠٠-١٠٥. عن أبي هريرة.

قال ابن تيمية: «والمقصود هنا أن كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة، كاسم الإيمان والإسلام والدين والصلاة والصيام والحج وغير ذلك، فإنما يكون لترك واجب في ذلك المسمى». الفتاوى (٧/ ٣٧).

نفسه، وأخص من جهة أهله من الإيمان، وكذا الإيمان مع الإسلام. وهذا كالرسالة والنبوة، فالنبوة داخلة في الرسالة، والرسالة أعم من جهة نفسها، أخص من جهة أهلها. فكل رسول نبي ولا ينعكس. وهذا كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[1]، فالمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه فإنه معرض للوعيد. وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع التصديق بالقلب لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن فإنه معرض للوعيد. **فحقيقة العلاقة بين الإسلام والإيمان**: أنهما إذا اجتمعا افترقا، وأصبح يراد من أحدهما ما لا يراد من الآخر، وإذا افترقا اجتمعا، أى: إذا انفرد أحدهما شمل معنى الآخر.

وفي المسند: «**الإسلام علانية والإيمان في القلب**»[2] وفي هذا الحديث دليل على المغايرة بين الإسلام والإيمان.

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا...﴾[3] إلى آخر السورة. وقد اعترض على هذا بأن معنى الآية: ﴿قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ أي:انقدنا بظواهرنا، فهم منافقون في الحقيقة، وهذا أحد قولي المفسرين في هذه الآية الكريمة. وأجيب عنه من وجوه:

أولاً: بالقول الآخر في هذه الآية ورُجِّح، وهو أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان لا

---

(١) فاطر: ٣٢.

(٢) حم: ٣/ ١٣٤. عن أنس بن مالك. قال الهيثمي في المجمع ١/ ٥٢: رواه أحمد وأبو يعلى بتمامه والبزار باختصار، ورجاله رجال الصحيح، ما خلا علي بن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود وأبو حاتم وابن معين، وضعفه آخرون.

(٣) الحجرات: ١٤-١٨.

أنهم منافقون، كما نفى الإيمان عن القاتل والزاني والسارق ومن لا أمانة له. ويؤيد هذا سياق الآية فإن السورة من أولها إلى هنا في النهي عن المعاصي وأحكام بعض العصاة ونحو ذلك وليس فيها ذكر المنافقين. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾ ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطاعة. ثم قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ يعني – والله أعلم- أن المؤمنين الكاملي الإيمان هم هؤلاء لا أنتم، بل أنتم منتفٍ عنكم الإيمان الكامل.

ثانيًا: أنه أذن لهم أن يقولوا: أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك.

ثالثًا: أنه أثبت لهم إسلاماً، ونهاهم أن يمنوا به على رسوله، ولو لم يكن إسلامًا صحيحًا لقال: لم تسلموا بل أنتم كاذبون، كما كذب المنافقين في قولهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾[1].

رابعًا: دلالة السياق؛ فإن السورة من أولها إلى هنا في النهي عن المعاصي، وأحكام بعض العصاة، وليس فيها ذكر للمنافقين.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[2] فجعلهما غيرين.

وقال ﷺ: «**اللهم لك أسلمت وبك آمنت**»[3].

وفي حديث سعد بن أبي وقاص: قيل للرسول ﷺ: مالك عن فلان، والله إني لأراه

---

(١) المنافقون: ١.

(٢) الأحزاب: ٣٥.

(٣) مسلم بلفظ:«اللهم لك ركعت وبك أمنت ولك أسلمت خشع سمعي وبصري ومخي وعظمي وما استقل به قدمي» مسلم برقم (٢٧١٧) ط: المكتبة التوفيقية تحقيق طه عبد الرؤوف سعد (٩/ ٣٤).

مؤمناً. فقالﷺ: «(**أو مسلمًا) قالها ثلاثًا**»(١). فأثبت الرسول للرجل الإسلام وتوقف في اسم الإيمان.

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٢)، فلا حجة فيه على ترادف الإسلام والإيمان؛ لأن أهل البيت المخرج كانوا متصفين بالإسلام والإيمان ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه كان يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(٣)، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾(٤)؛ وتارة بآيتي الإيمان والإسلام: التي في سورة البقرة ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾(٥)، والتي في آل عمران ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾(٦).

فالحاصل: أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر، وإذا انفرد أحدهما شمل معنى الآخر وحكمه. فلا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له؛ إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه. ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله وفي كلام الناس كثيرة، أعني في الإفراد والاقتران:

- كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى؛ فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية فهما شيئان في الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد،

(١) متفق عليه. خ: الإيمان، ب١٧، ح٢٧. م: الإيمان، ب٦٨، ح٢٣٧ – عن سعد بن أبي وقاص.
(٢) الذاريات: ٣٥-٣٦.
(٣) الكافرون: ١.
(٤) الإخلاص: ١
(٥) البقرة: ١٣٦.
(٦) آل عمران: ٦٤.

وحالة الاقتران غير حالة الإفراد، فالشهادتان إذا اجتمعتا كان المراد من شهادة أن لا إله إلا الله إثبات التوحيد، ومن شهادة أن محمدًا رسول الله إثبات الرسالة. أما إذا انفردت إحداهما، كقوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[1] فإنها تشمل الأخرى، فإنهم لو أقروا بالتوحيد وأنكروا الرسالة ما كانوا يستحقون العصمة، بل لا بد أن يقولوا: لا إله إلا الله قائمين بحقها، ولا يقوم بحقها إلا من صدق بالرسالة، وكذا من شهد بالرسالة لا يكون قائمًا بهذه الشهادة حق القيام إلا من صدق هذا الرسول في كل ما جاء به فتضمنت التوحيد.

- ومن ذلك: لفظ الكفر والنفاق، وكذلك لفظ البر والتقوى، ولفظ الإثم والعدوان، ولفظ التوبة والاستغفار، ولفظ الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، وأمثال ذلك.

وأما إذا أُفرد اسم الإيمان: فإنه يتضمن الإسلام.

وإذا أُفرد الإسلام: فقد يكون مع الإسلام مؤمنًا بلا نزاع، وهذا هو الواجب، وهل يكون مسلمًا ولا يقال له مؤمن؟ وقد تقدم الكلام فيه.

وكذلك هل يستلزم الإسلام الإيمان؟ فيه نزاع. وإنما وعد الله بالجنة في القرآن وبالنجاة من النار باسم الإيمان، وأما اسم الإسلام مجردًا فما علق به في القرآن دخول الجنة لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه وبه بعث النبيين، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[2].

(١) متفق عليه. خ: الجهاد، ب١٠١، ح٢٧٨٦. م: الإيمان، ب٨، ح٣٢و٣٣ - كلهم عن أبي هريرة.
(٢) آل عمران: ٨٥.



حقيقــة الإســلام

صار الناس في مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال:

فطائفة جعلت الإسلام هو الكلمة. (1)

وطائفة أجابوا بما أجاب به النبي حين سئل عن الإسلام والإيمان، حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالإيمان بالأصول الستة، وقد تقدم أنه الحق.

وطائفة جعلوا الإسلام مرادفًا للإيمان وجعلوا معنى قوله: «**الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة..**» شعائر الإسلام، والأصل عدم التقدير مع أنهم قالوا: إن الإيمان هو التصديق بالقلب، ثم قالوا: الإسلام والإيمان شيء واحد فيكون الإسلام هو التصديق، وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة، وإنما هو الانقياد والطاعة.

ومما يسأل عنه: أنه إذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من الخصال الخمس التي أجاب بها النبي ﷺ في حديث جبريل المذكور فلم قال: إن الإسلام هذه الخصال الخمس؟

(1) قال ابن تيمية: «فالإسلام أن تعبد الله وحده لا شريك له مخلصًا له الدين، وهذا دين الله الذي لا يقبل دينًا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين. ولا تكون عبادته مع إرسال الرسل إلينا إلا بما أمرت به رسله لا بما يضاد ذلك.. وقد ختم الله الرسل بمحمد ﷺ، فلا يكون مسلمًا إلا من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وهذه الكلمة بها يدخل الإنسان في الإسلام؛ فمن قال: الإسلام الكلمة وأراد هذا فقد صدق. ثم لا بد من التزام ما أمر به الرسول من الأعمال الظاهرة كالمباني الخمس..». الفتاوى (7/ 269).

وقد أجاب بعض الناس بأن هذه أظهر شعائر الإسلام وأعظمها وبقيامه بها يتم استسلامه وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده.

والتحقيق أن النبي ﷺ ذكر الدين الذي هو: استسلام العبد لربه مطلقًا، الذي يجب له عبادة محضة على الأعيان، فيجب على كل من كان قادرًا عليه أن يعبد الله مخلصًا له الدين. وهذه هي الخمس.

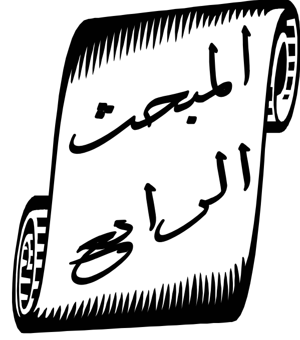
وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب المصالح، فلا يعم وجوبها جميع الناس، بل: إما أن يكون فرضًا على الكفاية، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

وإما ما يجب بسبب حق الآدميين، فيختص به من وجب له وعليه، وقد يسقط بإسقاطه؛ من قضاء الديون، ورد الأمانات والغصوب، والإنصاف من المظالم من الدماء والأموال والأعراض، وحقوق الزوجة والأولاد، وصلة الارحام، ونحو ذلك، بخلاف هذه الخمس؛ ولهذا وجبت فيها النية ولم يجز أن يفعلها غيره بلا إذنه، ولم تطلب من الكفار.

والواجب رد موارد النـزاع إلى الله ورسوله(1)، وقد يتراءى في بعض النصوص معارضة، ولا معارضة بحمد الله، ولكن الشأن في التوفيق، وبالله التوفيق.

---

(١) قال ابن تيمية: «ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عُرِف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبيّ ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم». (الفتاوى ٧/ ٢٧١).



زيادة الإيمان ونقصانه

قال المصنف -رحمه الله-: (والإيمان واحد وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى).

إن الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر، ولا شك أن البصراء يختلفون في قوة البصر وضعفه، فمنهم الأخفش والأعشى ومن يرى الخط الثخين دون الدقيق إلا بزجاجة ونحوها.

ولهذا -والله أعلم- قال الشيخ: **(وأهله في أصله سواء)** يشير إلى أن التساوي إنما هو في أصله[1] ولا يلزم منه التساوي من كل وجه، بل تفاوت درجات نور لا إله إلا الله في

(١) فيه نظر. يقول د. سفر الحوالي في رسالة: (ظاهرة الإرجاء): قوله: (وأهله في أصله سواء) يدل على أن للإيمان أصلاً، وفرعًا أو فروعًا هو أعمال الجوارح وأعمال القلب. فيقال: إن كان الفرع داخلاً في مسمى الأصل كما هو الشرع واللغة والعرف، لم يعد الإيمان واحدًا، بل متفاوتًا متفاضلاً كإثباته التفاضل في الخشية والتقى. وإن كان غير داخل في مسماه، فقوله: (أهله في أصله سواء) غير دقيق، فينبغي أن يقول: وأهله فيه سواء. والذي دفعه -رحمه الله- إلى الوقوع في هذا هو محاولته الجمع بين مذهبي السلف وأبي حنيفة؛ لأن الرجل حنفي سلفي، وكذا شارح عقيدته، فإنه حاول ذلك أيضًا وأراده؛ ولهذا قال في شرح العبارة: (ولهذا -والله أعلم- قال الشيخ رحمه الله: (وأهله في أصله سواء) يشير إلى أن التساوي إنما هو في الأصل، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه). (انظر: الجزء الثاني من رسالة: ظاهرة الإرجاء ص٤١٣).

قلوب أهلها لا يحصيه إلا الله تعالى ؛ فمن الناس من نور لا إله إلا الله في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علمًا وعملاً، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته، بحيث إنه ربما وصل الى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنبًا إلا أحرقه. وهذه حال الصادق في توحيده فسماء إيمانه قد حرست «بالنُّجُوم» من كل سارق.

ومن عرف هذا عرف معنى قول النبي ﷺ: «**إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»[(1)]، وما جاء من هذا النوع من الأحاديث التي أُشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهي، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأوّل بعضهم الدخول بالخلود، ونحو ذلك.

والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط فإن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين في الدرك الأسفل من النار، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب. وتأمل حديث[(2)] البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب صاحبها، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار.

(١) متفق عليه. خ: المساجد، ب١٤، ح٤١٥، والمرتدين، ب٨، ح٦٥٣٩. م: المساجد، ب٤٧، ح٢٦٣، والإيمان، ب١٠، ح٥٤ – كلهم عن عتبان بن مالك.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب وابن ماجه وأحمد وابن حبان والبيهقي والحاكم وصححه.

وتأمل ما قام بقلب قاتل[1] المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية وحملته وهو في تلك الحال أن جعل ينوء بصدره وهو يعالج سكرات الموت. وتأمل ما قام بقلب البغي من الإيمان[2] حيث نزعت موقها وسقت الكلب من الركية فغفر لها.[3]

وهكذا العقل أيضًا فإنه يقبل التفاضل وأهله في أصله سواء متساوون في أنهم عقلاء غير مجانين وبعضهم أعقل من بعض.

وكذلك الإيجاب والتحريم فيكون إيجاب دون إيجاب وتحريم دون تحريم، هذا هو الصحيح وإن كان بعضهم قد طرد ذلك في العقل والوجوب.

وأما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل[4]:

فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره، كما في حق النجاشي وأمثاله[5].

وأيضًا فمن وجب عليه الحج والزكاة مثلاً يوجب عليه الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره الإيمان به إلا مجملا وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل.

---

(١) صحيح مسلم ومسند أحمد.

(٢) مسلم كتاب الحيوان باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها رقم (٢٢٤٥) (٥٨٢٢)، (٥٨٢١). البخاري (٣٢٨٠)

(٣) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٣٢).

(٤) زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل من جهتين:

- من جهة ما أمر العباد به.
- ومن جهة ما يقع منهم من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

(٥) عذره من وجهين: عدم بلوغه الخطاب الشرعي الذي يلزمه بالعمل، وعجزه عن العمل فيما قد بلغه من العلم. وقد أثنى عليه الرسول بوصفه أخًا صالحًا وصلى عليه بعد وفاته.

وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل[1] ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها فلم يتساوٍ الناس فيما أمروا به من الإيمان.

والتصديق المستلزم لعمل القلب والجوارح أكمل من التصديق الذي لا يستلزمه، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم[2]؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**ليس المخبر كالمعاين**»، وموسى عليه السلام لما أخبر أن قومه عبدوا العجل لم يُلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها، وليس ذلك لشك موسى في خبر الله لكن المخبَر وإن جزم بصدق المخبِر فقد لا يتصور المخبر به نفسه كما يتصوره إذا عاينه، كما قال إبراهيم الخليل صلوات الله على نبينا محمد وعليه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[3].

ولا شك أن من قام بقلبه التصديق الجازم[4] الذي لا يقوى على معارضته شهوة ولا شبهة لا تقع معه معصية ولولا ما حصل له من الشهوة والشبهة أو إحداهما لما عصى، بل يشتغل قلبه ذلك الوقت بما يواقعه من المعصية فيغيب عنه التصديق والوعيد فيعصي.

ولهذا -والله أعلم- قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[5] فهو حين يزني يغيب عنه تصديقه بحرمة الزنا وإن بقي أصل التصديق في قلبه ثم يعاوده، فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[6]، قال

(١) الإقرار الخبري الالتزامي، تصديق الخبر جملة وعلى الغيب، والتزام الأمر جملة وعلى الغيب.

(٢) للتلازم بين الظاهر والباطن.

(٣) البقرة: ٢٦٠.

(٤) التصديق النافع في الإيمان هو المستلزم للطاعة والانقياد. والأولى أن يقول: (الإيمان الجازم) بدلاً من (التصديق الجازم).

(٥) متفق عليه. (سبق تخريجه).

(٦) الأعراف: ٢٠١.

ليث عن مجاهد: هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه، والشهوة والغضب مبدأ السيئات فإذا أبصر رجع. ثم قال تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[1]، أي: وإخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي ثم لا يقصرون. فإذا لم يبصر بقي قلبه في عمى، والشيطان يمده في غيه وإن كان التصديق في قلبه لم يكذب، فذلك النور والإبصار وتلك الخشية والخوف تخرج من قلبه، وهذا كما أن الإنسان يغمض عينه فلا يرى وإن لم يكن أعم، فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر، وقد جاء هذا المعنى مرفوعًا في قول النبيّ ﷺ: «**إذا زنا العبد نُزِع منه الإيمان، فإذا تاب أعيد إليه**»[2].

والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه:

أولاً: من القرآن:

منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[3]، وقوله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾[4]، وقوله: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾[5]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[6]، وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[7]، وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها: إن الزيادة باعتبار زيادة المؤمن به؟ فهل في قول الناس: ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾

---

(١) الأعراف: ٢٠٢.

(٢) د: السنة، ب١٦، ح٤٦٩٠، ك: الإيمان، ١/ ٢٢، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وهو عن أبي هريرة، وهو صحيح.

(٣) الأنفال: ٢.

(٤) مريم: ٧٦.

(٥) المدثر: ٣١.

(٦) الفتح: ٤.

(٧) آل عمران: ١٧٣.

زيادة مشروع وهل في إنزال السكينة على قلوب المؤمنين زيادة مشروع وإنما أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين عند مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة ويقينًا. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[١].

ثانيًا: من السنة:

وصف النبي ﷺ النساء بنقصان العقل والدين[٢]، وقال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[٣] والمراد نفي الكمال[٤]، ونظائره كثيرة، وحديث شعب الإيمان، وحديث الشفاعة وأنه يخرج من النار من في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال ذرة من إيمان. فكيف يقال بعد هذا: إن إيمان أهل السموات والأرض سواء. وإنما التفاضل بينهم بمعان أخر غير الإيمان؟

أما ما روي أن وفد ثقيف جاء إلى النبي فقالوا: يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص؟ فقالﷺ: «**لا، الإيمان مكمل في القلب، زيادته كفر، ونقصانه شرك**»[٥]. فليس بصحيح؛ ففي إسناده مجهولون، ومن هو ضعيف، بل ومن هو متهم بالوضع.

ثالثًا: من الآثار:

وكلام الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى كثير أيضًا منه: قول أبي الدرداء رضي الله

---

(١) التوبة: ١٢٤-١٢٥.

(٢) متفق عليه. خ: الصوم، ب٤٠، ح١٨٥٠، م: الإيمان، ب٣٤، ح١٣٢- عن أبي سعيد الخدريّ.

(٣) متفق عليه. خ: الإيمان، ب٧، ح١٥، م: الإيمان، ب١٦، ح٦٩و٧٠ - عن أنس بن مالك.

(٤) إن أراد نفي الكمال الواجب فصحيح كما تقدم.

(٥) الألباني في الموضوعة: ١/ ٤٧٨، ح٤٦٤. عن أبي هريرة، وهو حديث ضعيف.

عنه: من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينتقص. وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه: هلموا نزدد إيمانًا، فيذكرون الله تعالى عز وجل. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه: اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا وفقهًا. وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل: اجلس بنا نؤمن ساعة. ومثله عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه. وصح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه: أنه قال: ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان ؛ إنصاف من نفسه، والإنفاق من إقتار، وبذل السلام للعالَم. وفي هذا المقدار كفاية وبالله التوفيق.

وقوله: (**وأهله في أصله سواء والتفاضل بينهم بالحقيقة ومخالفة الهوى وملازمة الأولى**) وفي بعض النسخ (**بالخشية والتقى**) بدل قوله: (**بالحقيقة**).

ففي العبارة الأولى يشير إلى أن الكل مشتركون في أصل التصديق ولكن التصديق يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت كما تقدم تنظيره بقوة البصر وضعفه. وفي العبارة الأخرى يشير إلى أن التفاوت بين المؤمنين بأعمال القلوب وأما التصديق فلا تفاوت فيه. والمعنى الأول أظهر قوة، والله أعلم بالصواب.



حكم الاستثناء في الإيمان

وهو أن يقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، وهو من ثمرات الاختلاف في مسمى الإيمان. والناس فيه على ثلاثة أقوال: طرفان ووسط: منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار، وهذا أصح الأقوال:

أولاً: الموجبون للاستثناء:

أما من يوجبه فلهم مأخذان:

الأول: وهو مأخذ كثير من الكلابية وغيرهم، أن الإيمان هو ما مات الإنسان عليه والإنسان إنما يكون عند الله مؤمنًا أو كافرًا باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه وما قبل ذلك لا عبرة به، فالإيمان الذي يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافرًا ليس بإيمان كالصلاة التي أفسدها صاحبها قبل الكمال، والصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب. وعند هؤلاء أن الله يحب في الأزل من كان كافرًا إذا علم منه أنه يموت مؤمنًا. وليس هذا قول السلف ولا كان يقول بهذا من يستثني من السلف في إيمانه. ثم صار إلى هذا القول طائفة غلوا فيه حتى صار الرجل منهم يستثني في الأعمال الصالحة يقول: صليت إن شاء الله يعني القبول، ثم صار كثير منهم يستثنون في كل شيء فيقول أحدهم هذا ثوب إن شاء الله هذا حبل إن شاء الله، فإذا قيل لهم: هذا لا شك فيه، يقولون: نعم لكن إذا شاء الله أن يغيره غيره.

الثاني: وهو مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون- وإن جوزوا تركه بمعنى آخر- أن الإيمان المطلق يقتضي فعل ما أمر الله به عبده كله وترك ما نهاه عنه كله، فإذا قال الرجل: أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين القائمين بذلك، وهذا مع تزكية الإنسان لنفسه. ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال. ويحتجون أيضًا بجواز الاستثناء فيما لا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[(١)]، وقال ﷺ حين وقف على المقابر: «**وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»[(٢)].

ثانيًا: المحرمون للاستثناء:

☚ **وأما من يحرمه:**

فكل من جعل الإيمان شيئًا واحدًا، فيقول: أنا أعلم أني مؤمن كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه. وأجابوا عن الاستثناء الذي في قوله تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، بأنه يعود إلى الأمن والخوف، فأما الدخول فلا شك فيه. وقيل: المعنى: أو لتدخلن جميعكم أو بعضكم؛ لأنه علم أن بعضهم يموت. وأجيب بأنه لا شك في ذلك أيضًا؛ لأن الله قد علم مَنْ يدخل فكان قول إن شاء الله هنا تحقيقًا للدخول كما يقول العازم على الفعل فيما عزم على شيء أن يفعله لا محالة: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لا يقولها لشك في إرادته وعزمه ولكن لتوقي الحنث عند عدم التمكن، أو هو تعليم لنا كيف نستثني إذا أخبرنا عن مستقبل وفيه نظر، فإن الكلام ما سيق لذلك.

---

(١) الفتح: ٢٧.

(٢) م: الجنائز، ب٣٥، ح١٠٢- عن عائشة رضي الله عنها. س الجنائز ب (١٠٣). ق: الجنائز ب ٣٦ ح ١٥٤٦ كلهم عن عائشة.

ثالثًا: المفصلون:

وأما من يجوز الاستثناء وتركه: فهو أسعد بالدليل من الفريقين فإن أراد المستثني الشك في أصل إيمانه منع من الاستثناء، وهذا ما لا خلاف فيه. وإن أراد كمال الإيمان وأنه من الذين وصفهم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ....﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ....﴾[2] فالاستثناء حينئذ جائز. وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة، وكذلك من استثنى تعليقًا للأمر بمشيئة الله لا شكًا في إيمانه.

---

(١) الأنفال: ٢.

(٢) الحجرات: ١٥.



الحكم بالإسلام والحكم بالكفر والربط بين الظاهر والباطن

الحكم بالإسلام في الدنيا[1]، ودلالة الظاهر على الباطن:

قال المصنف-رحمه الله-: ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ماداموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين.

وقوله: ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما للمسلم وعليه ما على المسلم»[2].

(١) يثبت حكم الإسلام لكل من أقر بالشهادتين حتى يتلبس بناقض جلي من نواقض الإسلام، وذلك باعتبار دلالتها على الإقرار المجمل بالإسلام والبراءة المجملة من الشرك ؛ فإذا حدث لوث في دلالتها على ذلك وجب حينئذ التبين. انظر: الأم (٦/ ١٥٨، ١٥٩)، مسلم بشرح النووي (١/ ٢٠٧،٢٠٦)، نيل الأوطار (٨/ ٩، ١٠).

(٢) فيه أن أمور الناس محمولة على الظاهر، فمن أظهر شعار الدين أُجريت عليه أحكام أهله ما لم يظهر خلاف ذلك. (فتح الباري- المجلد الأول، كتاب الصلاة).

ويشير الشيخ- رحمه الله- بهذا الكلام إلى أن الإسلام والإيمان واحد[1].

والمراد بقوله: **(أهل قبلتنا)** من يدعي الإسلام ويستقبل الكعبة وإن كان من أهل الأهواء أو من أهل المعاصي، فلا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله، أو يكذب بشيء مما جاء به الرسول[2].

فنحن قد أمرنا بالحكم بالظاهر[3]،ونهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[5].

الحكم بالكفر وضوابطه:

قال المصنف-رحمه الله-:(ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله).

وقوله:(ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه).

---

(١) راجع: المبحث الثاني.

(٢) الكفر لا ينحصر في التكذيب كما تقدم في الرد على أبي حنيفة في المبحث الأول.

(٣) مدار الحكم إيمانًا وكفرًا على الظاهر، ولم نؤمر أن ننقب عن قلوب الناس ولا أن نشق بطونهم. يقول الشاطبي: «ولهذا جعلت الأعمال الظاهرة في الشرع دليلاً على ما في الباطن، فإن كان الظاهر منخرمًا حكم على الباطن بذلك، أو مستقيمًا حكم على الباطن بذلك أيضًا..) انظر: الموافقات (١/ ٢٣٣)، الفتاوى (٧/ ٥٤١ ؛ ١٤/ ١٢١،١٢٠)، جامع العلوم والحكم (ص٦٦،٦٥).

(٣) قال الشيخ ابن باز رحمه الله: «هذا الحصر فيه نظر ؛ ثم قال: وقد يخرج من الإسلام بغير الجحود لأسباب كثيرة بينها أهل العلم في باب حكم المرتد». انظر: العقيدة الطحاوية، تعليق ابن باز، ص٢١، مكتبة السنة.

(٤) الحجرات: ١٢.

(٥) الإسراء: ٣٦.

اعلم -رحمنا الله وإياك- أن باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والمحنة فيه وكثر فيه الافتراق وتشتتت فيه الأهواء والآراء وتعارضت فيه الدلائل، فالناس فيه - في جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الأمر، أو المخالفة لذلك في اعتقادهم- على طرفين ووسط، من جنس الاختلاف في تكفير أهل الكبائر العملية.

تكفير أصحاب الكبائر (الرد على الخوارج والمرجئة):

فالخوارج تقول: نكفر المسلم بكل ذنب أو بكل ذنب كبير، وكذلك المعتزلة تقول: يحبط إيمانه كله بالكبيرة فلا يبقى معه شيء من الإيمان، لكن الخوارج تقول: يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر، والمعتزلة تقول: يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، وهذه المنـزلة بين المنـزلتين، وبقولهم بخروجه من الإيمان أوجبوا له الخلود في النار.

والمرجئة تقول: لا نكفر من أهل القبلة أحدًا، وتـقول: لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة[1]، فينفون التكفير نفيًا عامًا، مع العلم بأن في أهل القبلة المنافقين الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع، وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم وهم يتظاهرون بالشهادتين.

فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة والمحرمات الظاهرة المتواترة ونحو ذلك فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافرًا مرتدًا.[2]

(١) قال ابن تيمية: وهذا القول محكي عنهم، ولا يعلم له قائل بعينه ولا ينسب لأحد بعينه إنـما يحكـى عـنهم. المجلـد السابع، بتصرف.

(٢) الردة: الرجوع عن الإسلام إلى الكفر وقطع الإسلام. والإيمان ينتقض بالردة كما ينتقض الوضوء بالحدث. والردة كما تكون بمفارقة ملة الإسلام إلى ملة أخرى أو إلى الإلحاد البحت تكون أيضًا بعدم الإقرار بشيء مما أنزل الله تكذيبًا أو ردًا. وتكون بالقول أو الفعل أو الاعتقاد.

والنفاق والردة مظنـتهما البدع والفجور، كما ذكره الخلال في كتاب السنة بسنده إلى ابن سيرين أنه قال: إن أسرع الناس ردة أهل الأهواء، وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾[1].

ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنا لا نكفر أحدًا بذنب، بل يقال: لا نكفرهم بكل ذنب كما تفعله الخوارج، وفرق بين النفي العام ونفي العموم، والواجب إنما هو نفي العموم مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب.[2]

وإذا اجتمعت نصوص الوعد التي استدل بها المرجئة، ونصوص الوعيد التي استدل بها الخوارج والمعتزلة تبين لك فساد القولين، ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى أنك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى.

فقوله: (**ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله**) رد على الخوارج، وقوله: (**ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله**) رد على المرجئة، وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الأولين فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك،كما وقع لقدامة بن مظعون[3].. وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الإسلام.

تكفير أهل الأهواء والبدع:

وطوائف من أهل الكلام والفقه والحديث لا يقولون بقول الخوارج في الأعمال لكن

(١) الأنعام: ٦٨.

(٢) المراد بالذنب ما دون الكفر ؛ قال ابن تيمية: «و نحن إذا قلنا: أهل السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب، فإنما نريد به المعاصي كالزنا والشرب». (الفتاوى ٧/ ٣٠٢). فإذا كان الذنب كفرًا أكبر – قولاً أو فعلاً– كفر صاحبه، استحل أو لم يستحل.

(٣) في وقوع شبهة الإرجاء لهذا الصحابي نظر ؛ إذ إنهم قد شربوا الخمر معتقدين حلها – تأولاً– لا على أن الشرب ذنب لا يضر مع الإيمان.

في الاعتقادات البدعية وإن كان صاحبها متأولاً، فيقولون: يكفر كل من قال هذا القول، لا يفرقون بين المجتهد المخطئ وغيره، أو يقولون يكفر كل مبتدع. والمقصود هنا أن البدع هي من هذا الجنس، فإن الرجل يكون مؤمنًا باطنًا وظاهرًا لكن تأول تأويلاً أخطأ فيه إما مجتهدًا وإما مفرطًا مذنبًا:

فلا يقال: **إن إيمانه حبط لمجرد ذلك إلا أن يدل على ذلك دليل شرعي، بل هذا من جنس قول الخوارج والمعتزلة.**

ولا نقول لا يكفر.

بل العدل هو الوسط، وهو: أن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما أثبته الرسول أو إثبات ما نفاه أو الأمر بما نهى عنه أو النهي عما أمر به يقال فيها الحق، ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص ويبين أنها كفر ويقال من قالها فهو كافر ونحو ذلك، كما يذكر من الوعيد في الظلم في النفس والأموال وكما قد قال كثير من أهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة.

وأما الشخص المعين إذا قيل: **هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر**(١)؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة فإنه من أعظم البغي أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه، بل يخلده في النار، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت، وانظر إلى الذي قال لأخيه:(٢) والله لا يغفر الله لك فأُدخل النار، وغُفر للآخر.

ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدًا مخطئًا مغفورًا له، ويمكن أن يكون ممن لم

(١) فرق بين الحكم عليه بالكفر في الدنيا بضوابط ذلك وبين الشهادة له بالنار فلا تصح إلا إذا ختم له بالكفر. انظر: المبحث الثامن.

(٢) سنن أبي داود رقم (٤٩٠١) باب في النهي عن البغي. وعند أحمد المجلد الثاني من حديث أبي هريرة.

يبلغه ما وراء ذلك من النصوص، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله، كما غفر للذي ظن أن الله لا يقدر على جمعه وإعادته(١) أو شك في ذلك.

فإنه من كفَّر كل من قال القول المبتدع في الباطن(٢) يلزمه أن يكفر أقوامًا ليسوا في الباطن منافقين، بل هم في الباطن يحبون الله ورسوله ويؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين، كعبد الله الذي كان يلقب حمارًا. وهذا أمر متيقن به في طوائف كثيرة وأئمة في العلم والدين وفيهم بعض مقالات الجهمية أو المرجئة أو القدرية أو الشيعة أو الخوارج ولكن الأئمة في العلم والدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة. فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضًا ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون(٣).

لكن هذا التوقف في أمر الآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه في الدنيا لمنع بدعته وأن نستتيبه فإن تاب وإلا قتلناه، ثم إذا كان القول في نفسه كفرًا قيل: إنه كفر والقائل له يكفر بشروط(٤) وانتفاء موانع.

ولا يكون ذلك إلا إذا صار منافقًا زنديقًا، فلا يتصور أن يكفر أحد من أهل القبلة المظهرين الإسلام إلا من يكون منافقًا زنديقًا(٥). وكتاب الله يبين ذلك؛ فإن الله صنَّف الخلق فيه ثلاثة أصناف:

- صنف المؤمنين باطنًا وظاهرًا.
- وصنف كفار من المشركين ومن أهل الكتاب وهم الذين لا يقرون بالشهادتين.

---

(١) أي: إذا هو ظل بهذه الكيفية، لا مطلق قدرة الله على البعث.

(٢) الحكم بالكفر منوط بالظاهر؛ إذ جعله الشارع دالاً على الباطن.

(٣) إلا بضوابط التكفير المعلومة. (راجع: أصول الإيمان/ ٣).

(٤) حاصلها بلوغ الحجة الشرعية بطريقة يندفع بها الجهل عند المخالف.

(٥) فيما قاله نظر، ففرق بين المنافق والزنديق من جهة وبين المرتد من جهة أخرى. وأين يقع المرتد في الأصناف الثلاثة المذكورة؟. وانظر في الكلام على الزنديق: الفتاوى (٧/ ٤٧١،٢١٥).

- وصنف أقروا به ظاهرًا لا باطنًا.

وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة في أول سورة البقرة.

وكل من ثبت[1] أنه كافر في نفس الأمر وكان مقرًا بالشهادتين فإنه لا يكون إلا زنديقًا والزنديق هو المنافق.

الكفر الأصغر، أو كفر دون كفر[2]:

بقي هنا إشكال يرد على كلام الشيخ -رحمه الله- وهو أن الشارع قد سمى بعض الذنوب[3] كفرًا:

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[4]، وقال ﷺ: «**بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة**»[5]، وقال: «**من حلف بغير الله فقد كفر**»[6]، وقال: «**من أتى كاهنًا فصدقه أو أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد**»[7]، وقال: «**ثنتان في أمتي بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت**»[8]، وقال: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»[9]، وقال: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[10]، وقال: «**إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما**»[11]، ونظائر ذلك كثيرة.

---

(١) ببينات الكفر الظاهرة.

(٢) انظر: فتح الباري: باب كفران العشير وما بعده.

(٣) أي: التي هي دون الكفر الأكبر.

(٤) المائدة: ٤٤.

(٥) على قول من قال بعدم كفر تاركها.

(٦) الترمذي (٣/ ١٥٧٤) وقال: حديث حسن.

(٧) ابن ماجه والترمذي باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض.

(٨)الجامع الصغير للسيوطي.

(٩) متفق عليه.

(١٠) متفق عليه.

(١١) صحيح البخاري عن أبي هريرة.

والجواب: إن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرًا ينقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج، فلا يخرج من الإيمان والإسلام ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين كما قالت المعتزلة.

إذ لو كان كفره كفرًا ينقل عن الملة لكان مرتدًا يقتل على كل حال ولا يقبل عفو ولي القصاص ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام.

وقد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾[(١)]، فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخًا لولي القصاص والمراد أخوة الدين بلا ريب. وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾[(٢)] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[(٣)].

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل بل يقام عليه الحد فدل على أنه ليس بمرتد.

وقد ثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه، كما في حديث المفلس.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[(٤)]، فدل ذلك على أنه في حال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته وهذا مبسوط في موضعه.

وأهل السنة أيضًا متفقون على أنه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب كما وردت به النصوص.

---

(١) البقرة: ١٧٨.

(٢) الحجرات: ٩.

(٣) الحجرات: ١٠.

(٤) هود: ١١٤.

ثم بعد هذا الاتفاق تبين أن أهل السنة[1] اختلفوا اختلافًا لفظيًا لا يترتب عليه فساد، وهو: أنه هل يكون الكفر على مراتب: كفرًا دون كفر، كما اختلفوا هل يكون الإيمان على مراتب: إيمانًا دون إيمان. وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم في مسمى الإيمان هل هو قول وعمل يزيد وينقص أم لا، بعد اتفاقهم على أن من سماه الله تعالى ورسوله كافرًا نسميه كافرًا؛ إذ من الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرًا ويسمي رسوله من تقدم ذكره كافرًا ولا نطلق عليهما اسم الكفر. ولكن من قال: إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص قال: هو كفر عملي لا اعتقادي، والكفر عنده على مراتب: كفر دون كفر كالإيمان عنده. ومن قال: إن الإيمان هو التصديق ولا يدخل العمل في مسمى الإيمان، والكفر هو الجحود ولا يزيدان ولا ينقصان، قال: هو كفر مجازي غير حقيقي نظير قوله في تسمية بعض الأعمال بالإيمان كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[2]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس فقد سميت إيمانًا مجازًا.

فليس بين فقهاء الأمة نزاع في أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطنًا وظاهرًا بما جاء به الرسول وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد.

مراتب الحكم بغير ما أنزل الله:

وهنا أمر يجب أن يُتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرًا ينقل عن الملة، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة يسمى كفرًا مجازيًا أو كفرًا أصغر على القولين المذكورين، وذلك بحسب حال الحاكم ؛ فإنه: إن اعتقد[3] أن الحكم بما أنزل الله غير

---

(١) الذي عليه أهل السنة أن العمل داخل في مسمى الإيمان ؛ فالقول الآخر من أقوال المرجئة.

(٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) الاعتقاد أمر باطن لا يعلمه إلا الله، دليلنا إليه **لسان القال** أو **لسان الحال والعمل**، فالظاهر بريد الباطن ومرآة له.

واجب وأنه مخير فيه، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر[1].

وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعلمه في هذه الواقعة وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاصٍ، ويسمى كافرًا كفرًا مجازيًا أو كفرًا أصغر وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأه فهذا مخطىء له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور.

رد حكم الكتاب:[2]

وقال المصنف -رحمه الله-:(ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين).

---

(١) مناط الكفر الأكبر في هذا الباب يتناول ما يلي: **أولاً**: التشريع بغير ما أنزل الله. **ثانيًا**: طاعة المبدلين للشرع مع علمهم بأنهم خالفوا دين الرسل، ويكون ذلك بإحدى الحالات التالية:

١- رفض حكم الله بالتحريم، وذلك الاستحلال القولي أو العملي.

٢- رفض حكم الله بالإيجاب، وذلك بالإباء من قبول الفرائض.

٣- التحاكم إلى شريعة أخرى غير شريعة الله، أو إلى حكم آخر غير الله ورسوله عن رضا واختيار.

٤- التحكيم: وضع الشريعة أو الشخص موضع الحكم ليرجع إليه أو إليها عند التنازع.

٥- الحكم بموجب شريعة أخرى غير شريعة الله، وهو القضاء بها في مواضع النـزاع وإجراؤها عليهم في معاملاتهم وحياتهم اليومية. (انظر: حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة ص٨٤).

(٢) إن التولي عن الحكم بالشريعة كالتكذيب بها سواء، كلاهما كفر أكبر. والمقصود برد الحكم الشرعي: عدم قبوله والامتناع عن التزامه دينًا يعبد الله به وحكمًا واجب الاتباع في موارد النـزاع؛ ولهذا يفرق بينه وبين الإصرار الذي هو مجرد المداومة على المعصية وعدم التوبة منها. يقول الجصاص في قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ... ﴾ الآية: «وفيها دلالة على أن من رد شيئًا من أوامر الله تعالى أو أوامر رسوله فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع عن التسليم. وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم وسبي ذراريهم؛ لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبي قضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان». أحكام القرآن (٣/ ١٨). (انظر: الثوابت والمتغيرات للمؤلف ص٩١ الطبعة الثانية- دار الإعلام الدولي)

لا شك في تكفير من رد حكم الكتاب، ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له بُين له الصواب ليرجع إليه، فالله سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل لكمال حكمته ورحمته وعدله لا لمجرد قهره وقدرته كما يقول جهم وأتباعه.

ما يحل به دم المسلم:

قال المصنف-رحمه الله-:(ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف).

في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[1].

(١)م: باب ما يباح به دم المسلم رقم (١٦٧٦)، راجع أبواب الردة في فتح الباري وكتب الفقه.



الكبائر والصغائر

قال المصنف- رحمه الله تعالى- :(وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النـار، لا يخلدون إذا ماتوا وهـم موحدون، وإن لـم يكونـوا تائبين بعد أن لقوا الله عـارفين، وهـم في مشيئته وحكمـه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عز وجل في كتابه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وإن شاء عذبهم في النـار بعدلـه ثـم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثـم يبعثهم إلى جنته. وذلك بأن الله تعالى تـولى أهل معرفتـه ولـم يجعلهـم في الدارين كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايتـه. اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك).

تعريف الكبيرة والصغيرة:

اختلف العلماء في الكبائر على أقوال:

فقيل: سبعة، وقيل: سبعة عشر، وقيل: إنها إلى السبعين أقرب،وهذا كله مجرد دعوى.

وقيل: ما اتفقت الشرائع على تحريمه، وهذا يقتضي أن شرب الخمر والفرار من الزحف

والتزوج ببعض المحارم والمحرم بالرضاعة والصهرية ونحو ذلك ليس من الكبائر، وأن سرقة الحبة من مال اليتيم والكذبة الواحدة الخفيفة ونحو ذلك من الكبائر، وهذا فاسد.

وقيل: ما يسد باب المعرفة بالله.

وقيل: ذهاب الأموال والأبدان، وكلاهما يقتضي أن شرب الخمر وأكل الخنزير والميتة والدم وقذف المحصنات ليس من الكبائر، وهو فاسد.

وقيل: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وهذا يقتضي أن الذنوب لا تنقسم في نفسها إلى قسمين: صغائر، وكبائر، وهو فاسد؛ لأنه خلاف النصوص.

وقيل: لا تُعلم أصلاً، أو أنها أُخفيت كليلة القدر، ومن قال هذا فإنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره.

وقيل: هي ما يترتب عليها حد أو تُوُعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب. وهذا أمثل الأقوال.

وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره فإنه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص أنه كبيرة كالشرك، والقتل، والزنا، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، ونحو ذلك، كالفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وشهادة الزور، وأمثال ذلك.

وترجيح هذا القول من وجوه:

أحدها: أنه هو المأثور عن السلف كابن عباس وابن عيينة وابن حنبل وغيرهم

الثاني: أن الله تعالى قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[1]. فلا يستحق هذا الوعد الكريم من أُوعد بغضب الله ولعنته وناره، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر.

(١) النساء: ٣١.

الثالث: أن هذا الضابط مرجعه الى ما ذكره الله ورسوله من الذنوب فهو حد متلقى من خطاب الشارع.

الرابع: أن هذا الضابط يمكن التفريق به بين الكبائر والصغائر.

واختلفت عبارات السلف في تعريف الصغائر:

فمنهم من قال: الصغيرة ما دون الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة.

ومنهم من قال: كل ذنب لم يختم بلعنة أو غضب أو نار.

ومنهم من قال: الصغيرة ما ليس فيها حد في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة، والمراد بالوعيد: الوعيد الخاص بالنار أو اللعنة أو الغضب ؛ فإن الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا أعني: الـمُقدرة؛ فالتعزير في الدنيا نظير الوعيد بغير النار أو اللعنة أو الغضب.

حكم أصحاب الكبائر:

أشار **بقوله: (وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون)** إلى الرد على قول الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد أهل الكبائر في النار. وتخصيصه أمة محمد ﷺ يُفهم منه أن أهل الكبائر من غيرهم قبل نسخ تلك الشرائع به حكمهم مخالف، وفيه نظر، فإن النبي ﷺ أخبر أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ولم يخص أمته بذلك، بل ذكر الإيمان مطلقًا.

وقوله: (وإن لم يكونوا تائبين) لأن التوبة لا خلاف في أنها تمحو الذنوب، وإنما الخلاف في غير التائب.

وقوله: (بعد أن لقوا الله تعالى عارفين) لو قال: «مؤمنين» بدل قوله: عارفين كان أولى؛ لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر، وإنما اكتفى بالمعرفة وحدها الجهم، وقوله

مردود باطل كما تقدم. وكأن الشيخ -رحمه الله- أراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء التي يشير إليها أهل الطريقة، وحاشا أولئك أن يكونوا من أهل الكبائر، بل هم سادة الناس وخاصتهم.

وقوله: (وهم في مشيئة الله وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله..) فصل الله تعالى بين الشرك وغيره؛ لأن الشرك أكبر الكبائر كما قال ﷺ، وأخبر الله تعالى أن الشرك غير مغفور وعلق غفران ما دونه بالمشيئة، والجائز يعلق بالمشيئة دون الممتن، ولو كان الكل سواءًا لما كان للتفصيل معنى، ولأنه علق هذا الغفران بالمشيئة، وغفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به غير معلق بالمشيئة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(1) . فوجب أن يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوى الشرك بالله قبل التوبة.

لكن ثم أمر ينبغي التفطن له وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر. وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب وهو قدر زائد على مجرد الفعل. والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره.

وأيضًا فإن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة.

---

(1) الزمر: ٥٣.

الأسباب التي تسقط عقوبة السيئات:

(١) التـــوبــــة:

قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾،وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ وغيرها. والتوبة النصوح هي الخالصة لا يختص بها ذنب دون ذنب. والصحيح أنه لا يتوقف قبولها على كونها عامة. ولابد مع الإسلام من توبة عامة من كل ذنب. وكون التوبة سببًا لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها مما لا خلاف فيه بين الأمة، وليس شيء يكون سببًا لغفران جميع الذنوب إلا التوبة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١] وهذا لمن تاب؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَقْنَطُواْ ﴾ وقال بعدها: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾[٢].

(٢) الاستغفـــار:

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[٣]. والاستغفار تارة يذكر وحده وتارة يقرن بالتوبة، فإن ذكر وحده دخلت معه التوبة كما إذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار فالتوبة تتضمن الاستغفار، والاستغفار يتضمن التوبة، وكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، ونظير

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) الزمر: ٥٤.

(٣) الأنفال: ٣٣.

هذا الفقير والمسكين، والكفر والنفاق، والإيمان والإسلام.(١)

(٣) الحسنـــات:

فإن الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها فالويل لمن غلبت آحاده عشراته. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٢)، وقال ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»(٣).

(٤) المصائب الدنيوية:

قال ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بها من خطاياه**»(٤). فالمصائب نفسها مكفرة وبالصبر عليها يثاب العبد، وبالسخط يأثم، والصبر والسخط أمر آخر غير المصيبة، فالمصيبة من فعل الله لا من فعل العبد وهي جزاء من الله للعبد على ذنبه ويكفر ذنبه بها، وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله والصبر والسخط من فعله.

(٥) عذاب القبر.

(٦) دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات.

(٧) ما يهدى إليه بعد الموت من ثواب صدقة أو قراءة أو حج ونحو ذلك.

(٨) أهوال يوم القيامة وشدائده.

(٩) ما ثبت في الصحيحين أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هُذبوا ونُقوا أذن لهم في دخول الجنة.

---

(١) راجع: المبحث الثاني.

(٢) هود: ١١٤.

(٣) ت: البر والصلة، ب٥٥، ح١٩٧٨ – عن أبي ذر الغفاري، وقال: حديث حسن.

(٤) متفق عليه. خ: المرضى، ب١، ح٥٣١٨. م: البر والصلة، ب١٤، ح٥٢ – عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة.

(١٠) شفاعة الشافعين.

(١١) عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة:

كما قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (١)، فإن كان ممن لم يشأ الله أن يغفر له لعظم جرمه فلا بد من دخوله إلى الكير ليخلص طيب إيمانه من خبث معاصيه فلا يبقى في النار من في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال ذرة من إيمان، بل من قال: لا إله إلا الله، كما تقدم من حديث أنس رضي الله عنه.

وإذا كان الأمر كذلك امتنع القطع لأحد معين من الأمة غير من شهد له الرسول ﷺ بالجنة، ولكن نرجو للمحسنين ونخاف على المسيئين، على ما سيأتي في المبحث التالي.

وقوله: (اللهم يا ولي الإسلام وأهله مَسِّكْنَا بالإسلام) وفي نسخة: **(ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به)** مناسبة ختم الكلام المتقدم بهذا الدعاء ظاهرة. وبمثل هذا الدعاء دعا يوسف الصديق صلوات الله عليه حيث قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (٢)، وبه دعا السحرة الذين كانوا أول من آمن بموسى صلوات الله على نبينا وعليه حيث قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (٣). ومن استدل بهاتين الآيتين على جواز تمني الموت فلا دليل له فيه فإن الدعاء إنما هو بالموت على الإسلام لا بمطلق الموت ولا بالموت الآن والفرق ظاهر.

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) يوسف: ١٠١.

(٣) الأعراف: ١٢٦.



حكم الشهادة لمعين بالجنة أو النار[١]

قال المصنف -رحمه الله-: (ولا نُنْـزِلُ أحدًا منهم جنة ولا نارًا).

أي: لا نشهد لأحد معين من أهل القبلة[٢] بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا من أخبر الصادق ﷺ أنه من أهل الجنة كالعشرة رضي الله عنهم[٣]. وإن كنا نقول: إنه لا بد أن يدخل النار من أهل الكبائر من شاء الله إدخاله النار ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين.

ولكنا نقف في الشخص المعين فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم؛ لأن الحقيقة باطنة، وما مات عليه لا نحيط به[٤]، لكن نرجو للمحسنين ونخاف على المسيئين.

---

(١) راجع: المبحث السادس.

(٢) أما الكافرون فمن مات منهم على الكفر ـ فيما ظهر لنا ـ فإنا ننـزله النار؛ للحديث: «**حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار**»، وكذا خطابه أهل القليب من قتلى الكفار يوم بدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، وكذا إلزام أبي بكر للمرتدين أن يشهدوا أن قتلاهم في النار كشرط لقبول توبتهم.

(٣) وغيرهم كثير ومنهم: عائشة وبلال و الحسن والحسين وأمهما فاطمة وعكاشة وأهل بدر وبيعة الشجرة رضي الله عنهم أجمعين.

(٤) انظر: فتح الباري: باب لا يقال فلان شهيد.

وللسلف في الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال:

أحدها: أن لا يشهد لأحد إلا للأنبياء، وهذا ينقل عن محمد بن الحنفية والأوزاعي.

والثاني: أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص، وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث.

والثالث: أنه يشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون[1]، كما في الصحيحين أنه مُر بجنازة فأثنوا عليها بخير، فقال النبي ﷺ: «**وجبت**»، ومُر بأخرى فأثني عليها بشر، فقال: «**وجبت**»، وفي رواية كرر وجبت ثلاث مرات فقال عمر: يا رسول الله ما وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هذا أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًا وجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض**»[2].

(١) لا غيرهم فإن شهادتهم لا تعتبر.

(٢) متفق عليه. خ: الجنائز، ب٨٤، ح١٣٠١. م: الجنائز، ب٢٠، ح٦٠ – عن أنس بن مالك.

المبحث التاسع



قال المصنف -رحمه الله-: (ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة وعلى من مات منهم).

قال ﷺ: «**صلوا خلف كل بر وفاجر**»[1]، وقال ﷺ: «**الصلاة واجبة عليكم على كل مسلم برًا كان أو فاجرًا، وإن عمل بالكبائر**»[2]. وكان عبد الله بن عمر، وأنس بن مالك يصليان خلف الحجاج، وقد كان فاسقاً ظالمًا[3].

الصلاة خلف مستور الحال:

الصلاة خلف من لم يُعلم منه بدعة ولا فسق جائزة باتفاق الأئمة، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ولا أن يمتحنه فيقول: ماذا تعتقد، بل يصلي خلف مستور الحال.[4]

---

(١) قط: ٢/ ٥٧، ح١٠ –عن واثلة بن الأسقع، وهو حديث ضعيف. ضعيف الجامع الصغير (٣٤٧٨) ص٥٠٩ ط: المكتب الإسلامي.

(٢) د: الصلاة، ب٦٤، ح٥٩٤، والجهاد، ب٣٥، ح٢٥٣٣ –عن أبي هريرة.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ١٢١و١٢٢.

(٤) قال ابن تيمية: «وكان بعض الناس إذا كثرت الأهواء يحب ألا يصلي خلف من لا يعرفه على سبيل الاستحباب كما نقل ذلك عن أحمد أنه ذكره لمن سأله، ولم يقل أحمد: إنه لا تصح إلا خلف من عرف حاله. ولما قدم أبو عمرو عثمان بن مرزوق إلى ديار مصر –وكان ملوكها في ذلك الزمان مظهرين للتشيع وكانوا باطنية ملاحدة، وكان=

الصلاة خلف الفجار والمبتدعة:

ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته أو فاسق ظاهر الفسق وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلا خلفه كإمام الجمعة والعيدين والإمام في صلاة الحج بعرفة ونحو ذلك فإن المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند أكثر العلماء. والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فقد قال ﷺ: «**يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم**»(١).

وكان الصحابة رضي الله عنهم يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون: كما كان عبد الله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف وكذلك أنس رضي الله عنه، وكان الحجاج فاسقًا ظالمًا.وكذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان يشرب الخمر حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعًا ثم قال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة. وفي الصحيح أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما حصر صلى بالناس شخص فسأل سائل عثمان: إنك إمام عامة وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنة. فقال: يا ابن أخي إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم.

=بسبب ذلك قد كثرت البدع وظهرت بالديار المصرية- أمر أصحابه أن لا يصلوا إلا خلف من يعرفونه لأجل ذلك، ثم بعد موته فتحها ملوك السنة مثل صلاح الدين وظهرت فيها كلمة السنة المخالفة للرافضة، ثم صار العلم والسنة يكثر بها ويظهر. فالصلاة خلف المستور جائزة باتفاق علماء المسلمين، ومن قال: إن الصلاة محرمة أو باطلة خلف من لا يعرف حاله فقد خالف إجماع أهل السنة والجماعة ... إلى أن قال: وكان عبد الله بن عمر وغيره من الصحابة يصلون خلف الحجاج بن يوسف، وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف ابن أبي عبيد، وكان متهمًا بالإلحاد وداعيًا فيها إلى الضلال». (الفتاوى ٣/ ٢٨١).

(١) خ: الصلاة، ب٢٧، ح٦٦٢ –عن أبي هريرة.

والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته، لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب.

ومن ذلك أن من أظهر بدعة وفجورًا لا يرتب إمامًا للمسلمين فإنه يستحق التعزير حتى يتوب، فإن أمكن هجره حتى يتوب كان حسنًا، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك في إنكار المنكر حتى يتوب أو يعزل أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه، فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة شرعية إذا لم تفت المأموم جمعة ولا جماعة. وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصحابة رضي الله عنهم، وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور فليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية فهنا لا يترك الصلاة خلفه، بل الصلاة خلفه أفضل.

فإذا أمكن الإنسان أن لا يقدم مظهرًا للمنكر في الإمامة وجب عليه ذلك، لكن إذا ولاه غيره ولم يمكنه صرفه عن الإمامة أو كان لا يتمكن من صرفه عن الإمامة إلا بشر أعظم ضررًا من ضرر ما أظهر من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما؛ فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، فتفويت الجمع والجماعات أعظم فسادًا من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر لا سيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجورًا فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة.

وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر، وحينئذ فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر فهو موضع اجتهاد العلماء، منهم من قال: يعيد، ومنهم من قال: لا يعيد، وموضع بسط ذلك في كتب الفروع.

حكم نسيان الإمام أو خطئه:

وأما الإمام إذا نسي أو أخطأ ولم يعلم المأموم بحاله فلا إعادة على المأموم للحديث المتقدم، وقد صلى عمر رضي الله عنه وغيره وهو جنب ناسيًا للجنابة فأعاد الصلاة ولم يأمر المأمومين بالإعادة. ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة أعاد عند أبي حنيفة خلافًا لمالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه. وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع. ولو علم أن إمامه يصلي على غير وضوء فليس له أن يصلي خلفه؛ لأنه لاعب وليس بمصل.

وجوب طاعة ولي الأمر في مواضع الاجتهاد:

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة على وجوب طاعة ولي الأمر، وإمام الصلاة، والحاكم، وأمير الحرب، وعامل الصدقة في مواضع الاجتهاد، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف ومفسدة الفرقة والاختلاف أعظم من أمر المسائل الجزئية؛ ولهذا لم يجز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض، والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض.

يروى عن أبي يوسف أنه لما حج مع هارون الرشيد فاحتجم الخليفة وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ وصلى بالناس فقيل لأبي يوسف: أصليت خلفه؟ قال: سبحان الله! أمير المؤمنين. يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع.

وحديث: «..**يصلون لكم**» نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه لا على المأموم، والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس بواجب أو فعل محظور اعتقد أنه ليس بمحظور، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد أن يبلغه، وهو حجة على من يطلق من الحنفية

والشافعية والحنبلية أن الإمام إذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه لم يصح اقتداؤه به، فإن الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي إلى الفساد.

الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور:

وقوله: (وعلى من مات منهم) أي: ونرى الصلاة على من مات من الأبرار والفجار، وإن كان يستثنى من هذا العموم البغاة وقطاع الطريق وكذا قاتل نفسه خلافًا لأبي يوسف، والشهيد خلافًا لمالك والشافعي رحمهما الله. لكن الشيخ إنما ساق هذا لبيان أنا لا نترك الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور لا للعموم الكلي.

ولكن المظهرين للإسلام قسمان: إما مؤمن وإما منافق. فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له، ومن لم يعلم ذلك منه صُلي عليه. فإذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليه وصلى عليه من لم يعلم نفاقه، وكان عمر رضي الله عنه لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة؛ لأنه كان في غزوة تبوك قد عرف المنافقين.

وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن الصلاة على المنافقين، وأخبر أنه لا يغفر لهم باستغفاره، وعلل ذلك بكفرهم بالله ورسوله.

فمن كان مؤمنًا بالله ورسوله لم ينه عن الصلاة عليه ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية أو العملية أو الفجور ما له، بل قد أمره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين فقال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[(1)] فأمره سبحانه بالتوحيد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، فالتوحيد أصل الدين والاستغفار له وللمؤمنين كَمَالُهُ فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات إما واجب وإما مستحب، وهو على نوعين: عام وخاص، أما العام فظاهر كما في هذه الآية، وأما

(1) محمد: 19.

الدعاء الخاص فالصلاة على الميت. فما من مؤمن يموت إلا وقد أمر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة، وهم مأمورون في صلاتهم عليه أن يدعو له.



أركان الإيمان

قال المصنف -رحمه الله-: (والإيمان هو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، حلوه ومره، من الله تعالى).

وقوله: (ونؤمن بالملائكة، والنبيين، والكتب المنزلة على المرسلين، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين).

هذه الخصال هي أركان الإيمان وأصول الدين، وبها أجاب النبي ﷺ عندما سئل عن الإيمان في حديث جبريل المشهور المتفق عليه.

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[2].

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) البقرة: ١٧٧.

فجعل سبحانه الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة[1] وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[2] .

فهذه هي أصول الدين الستة التي بعث بها الرسول، وهي الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل.

تحريف المبطلين لأصول الدين:

أما أعداء الرسل، ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها:

أولاً: الفلاسفة:

فهم أعظم الناس إنكاراً لها؛ فحقيقة قولهم أنهم لا يؤمنون بالله، ولا برسله، ولا بكتبه، ولا بملائكته، ولا باليوم الآخر:

- **فالله** عندهم موجود لا ماهية له ولاحقيقة، لا يفعل بقدرته ومشيئته، وهم ينفون عنه سمعه وبصره وسائر صفاته، فهذا إيمانهم بالله.
- وأما **كتبه** عندهم فهم لا يصفونها بالكلام، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر طاهر متميز عن النوع الإنساني بثلاث خصائص: قوة الإدراك (لينال من العلم أعظم مما يناله غيره)، وقوة النفس (ليؤثر بها في هيولى العالم يقلب صورة إلى صورة)، وقوة التخييل (ليخيل بها القوى العقلية في أشكال محسوسة).

---

(١) إن عني بذلك ما قاله في موضع آخر: (وأما الإيمان بمحمد فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً.. وأما الإيمان بالقرآن فالإيمان به واتباع ما فيه) فلا إشكال.

(٢) النساء: ١٣٦.

- و**الملائكة** عندهم أمور ذهنية لا وجود لها في الأعيان.
- أما **اليوم الآخر** ومشاهده فما هي إلا أمثال مضروبة لتفهيم العوام، لا حقيقة لها في الخارج.

فهذا إيمان هذه الطائفة الضالة بأصول الدين الستة.

ثانياً: المعتزلة:

فقد أبدلوا هذه الأصول بأصولهم الخمسة التي هدموا بها كثيراً من الدين:

- فنفوا عن الله كل صفة تشبيها بالصفات الموجودة في الموصوفات التي هي الأجسام، وسموا ذلك **توحيدًا** (هم نفوا زيادة الصفات عن الذات).
- ثم تكلموا بعد ذلك في أفعاله التي هي القدر، وسموا ذلك العدل.
- ثم تكلموا في مسائل الأسماء والأحكام التي هي المنـزلة بين المنـزلتين.
- ومسألة إنفاذ الوعيد.
- ثم تكلموا في إلزام الغير بذلك الذي هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

فهذه أصولهم الخمسة التي وضعوها بإزاء أصول الدين الخمسة التي بعث بها الرسولﷺ.

ثالثًا: الرافضة المتأخرون:

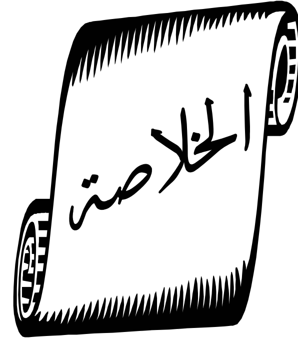
فقد جعلوا الأصول أربعة: التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة.

أما أهل السنة والجماعة: فأصولهم تابعة لما جاء به الرسول، وأصل الدين: الإيمان بما جاء به الرسول كما تقدم بيان ذلك؛ ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة -لما تضمنتا هذا الأصل- لهما شأن عظيم ليس لغيرهما: «**من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**».

وقـول المصـنف -رحمـه الله-: (ونحـن مؤمنـون بـذلك كلـه لا نفرق بين أحد من رسله ونصدقهم كلهم على ما جاؤوا به).

فقوله: (لا نفرق بين أحد من رسله) أي: لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، بل نؤمن بهم، ونصدقهم كلهم، فإن من آمن ببعض، وكفر ببعض كافر بالكل. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾[1]. فإذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافرًا بمن في زعمه أنه مؤمن به؛ لأن ذلك الرسول قد جاء بتصديق المرسلين كلهم، فكان كافراً حقًّا وهو يظن أنه مؤمن، فكان من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

(١) النساء: ١٥٠-١٥١.



- حقيقة الإيمان مركبة من قول (القلب واللسان)، وعمل (القلب والجوارح). فالإيمان هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد باطناً وظاهراً.
- لفظ الإيمان إما أن يذكر في النصوص مطلقًا (فهو حينئذ مستلزم للأعمال وهي داخلة في مسماه)، أو يذكر تارة مقرونًا بالإسلام (فيتقيد الإيمان بأصوله الستة، والإسلام بالأعمال الظاهرة)، وتارة يعطف عليه العمل الصالح فيكون من باب عطف بعض الشيء على كله.
- الأعمال الظاهرة دليل الباطن وفرع له وليست كلها شرط في كمال الإيمان، بل بعضها شرط صحة وكثير منها شرط كمال.
- الإيمان يزيد وينقص من جهة ما أمر العباد به، ومن جهة ما يقع منهم من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.
- الاستثناء في الإيمان جائز في الكمال الواجب والمستحب، وغير جائز في أصل الإيمان.
- تفرقت مذاهب المرجئة إلى ثلاثة أصناف مخالفة لأهل السنة في تعريف الإيمان، من ضمنها مذهب المرجئة الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة الذين أخرجوا العمل من مسمى الإيمان، واستدلوا على ذلك بجملة أدلة، وهي مردودة عند أهل السنة والجماعة.

- تسقط عقوبة جهنم عن فاعل السيئات بنحو عشرة أسباب عرفت بالاستقراء من الكتاب و السنة.
- اتفق أهل السنة – خلافًا لما ذهبت إليه الخوارج والمرجئة – أن أصحاب الكبائر وأهل البدع لا يكفرون بنقلهم عن الملة إلا بالاستحلال، وهم معرضون للوعيد مالم يتوبوا، مع كونهم تحت المشيئة إذا ماتوا وهم موحدون.
- الكبائر هي ما يترتب عليها حدود، أو يتوعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب. والصغائر هي ما ليس فيها حد في الدنيا وهي دون ما سبق من الوعيد في الآخرة.
- في الأحكام الشرعية: يحكم على الناس بظواهرهم التي ناط بها الشارع الأحكام (لقاعدة التلازم بين الظاهر والباطن). ولا يحكم بالكفر على معين ثبت له الإسلام بيقين إلا بعد ثبوت شروط التكفير في حقه وانتفاء موانعه.
- لانشهد لشخص معين بجنة ولا نار إلا عن علم، ولكن من مات على الكفر فيما ظهر لنا فإننا ننـزله النار.
- الصلاة جائزة باتفاق خلف مستور الحال الذي لم يعلم منه بدعة ولا فسق، كما أنها جائزة خلف الفجار والمبتدعة مالم يبلغ حالهم الكفر الذي ينقل عن الملة، والأولى: الصلاة خلف البر.
- أركان الإيمان هي المذكورة في حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان.

الاختبار البعدي للوحدة

س١: «حقيقة الإيمان مركبة من قول و عمل». وضح ذلك مع بيان ضرورة اجتماع عناصر الإيمان كشرط لصحته؟

س٢: الخلاف في مسمى الإيمان من أقدم الخلافات التي وقعت بين أهل القبلة في مسائل أصول الدين. وضح ذلك، مع بيان المذاهب المختلفة التي حادت عن الصواب في تعريف الإيمان، واذكر أوجه بطلان ما ذهبت إليه كل منها.

س٣: الاختلاف بين أبي حنيفة وأهل السنة في تعريف الإيمان اختلاف صوري ونزاع لفظي. بيّن مدى صحة هذه العبارة مع توضيح مواضع الاتفاق والاختلاف بين كلا الفريقين.

س٤: الإيمان مغاير للتصديق لفظًا ومعنى. وضح ذلك.

س٥: ما أدلة أبي حنيفة وأصحابه على مذهبهم في تعريف الإيمان؟ وكيف يمكن الرد عليها في قواعد مختصرة؟

س٦: تتنوع دلالة لفظ الإيمان في النصوص بالإطلاق والتقييد، وبالاقتران والتجريد. وضح ذلك مع بيان مختلف دلالات لفظ الإيمان إذا جاء مطلقًا، أو مقرونًا بالإسلام، أو مقرونًا بالعمل الصالح.

س٧: هل الإسلام منحصر في مبانيه الخمسة؟ ولم خصها النبي ﷺ بالذكر حين سئل عن الإسلام؟ علل لما تقول.

س٨: قال المصنف -رحمه الله-: «والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء». ما مدى دقة هذا القول؟ وما أوجه تفاضل الإيمان؟ اذكر الأدلة والآثار على ذلك.

س٩: ما حكم الاستثناء فى الإيمان؟

س١٠: الناس في تكفير أصحاب الكبائر وأهل البدع على طرفين ووسط. من هم الطرفان؟ وما أقوالهم في ذلك؟ وبم أجاب عليهم أهل السنة؟

س١١: كيف تجيب على شبهة تكفير أصحاب الكبائر حيث إن الشارع قد سمى بعض الذنوب كفراً؟

س١٢: ما تعريف الكبيرة والصغيرة؟ وماحكم مرتكب الكبيرة إذا مات موحدًا ولكن دون توبة من كبيرته؟

س١٣: ما الأسباب التي تسقط عن فاعل السيئات عقوبة جهنم؟ دلل على ما تقول.

س١٤: ما الحالات التي نشهد فيها على شخص معين بالجنة أو النار؟

س١٥: متى يكون الخوف والرجاء محمودًا؟ وكيف يصير مذمومًا؟

س١٦: ما حكم الصلاة خلف مستور الحال والمبتدع؟ وما حكم الصلاة على من مات منهم؟

س١٧: الفلاسفة والمعتزلة والرافضة فرق ضلت في فهم أركان الإيمان. وضح الأصول الفاسدة لكل منهم مع بيان الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة في ذلك؟

س١٨: بالنظر إلى الحكم الشرعي، هل يكفي في إثبات أصل الإيمان اعتقاد الحكم؟ وضح ذلك في ضوء فهمك لعناصر الإيمان عند أهل السنة، موازنًا بينها وبين عناصر الإيمان عند أهل الإرجاء. ثم طبق ذلك على مسألة الحكم بغير ما أنزل الله.

س١٩: وقع في تعريف الإمام الطحاوي -رحمه الله- للإيمان شبهة الإرجاء. وضح ذلك في ضوء تعريفات الإيمان المتنوعة عند السلف والخلف من أهل السنة والجماعة؟

س٢٠: متى نشأ الخلاف في مسمى الإيمان؟ ومن أول من قال بقول المرجئة الفقهاء؟

وكيف أنكر علماء السلف حينئذ هذا القول؟

س٢١: للإيمان درجات ثلاثة. اذكرها، وبيّن حد كل منها، ومآل أهل كل درجة في الآخرة، مع سوق الأدلة من الكتاب والسنة؟

س٢٢: تحت ظلال الجهل بالدين، اختلط في أذهان كثير من عوام المسلمين معنى الإيمان والإسلام. ادرس هذه الظاهرة، ثم وضح في ضوء دراستك اختلاف دلالات الإيمان والإسلام؟

س٢٣: كيف ترد على شبهة كون الإيمان معاني قلبية لايمكن تقيـيدها بحدود وأحكام لأنها لا تنضبط بنصوص ظاهرة؟ عضد قولك بأدلة الكتاب والسنة وأقوال السلف.

الوحدة الأولــى

الإيمــان باللّه

الفصل الأول: تــوحيــد الربــوبيــــة.

الفصل الثاني: تــوحيــد الإلهيـــة.

الفصل الثالث: تــوحيــد الأسماء والصفــات.





تنقسم هذه الوحدة إلى ثلاثة فصول، ويتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لها أن تكون ملماً بما يلي:

الفصل الأول: توحيد الربوبية:

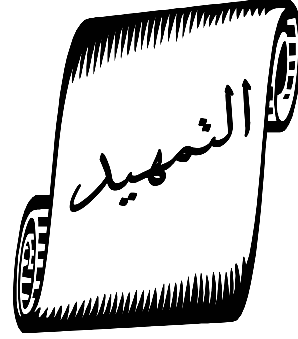
- المقصود من توحيد الربوبية، وفطر القلوب عليه.
- معرفة بعض صور الشرك التي وقعت في الربوبية.
- المقصود من الميثاق الذي أخذه الله من آدم وذريته.

الفصل الثاني: توحيد الإلهية:

- المقصود من توحيد الإلهية، وبيان أنه مقصد دعوة الرسل.
- معرفة الضوابط الشرعية في الدعاء، والاستشفاع، والتوسل.
- أحكام الكهانة، والسحر، والتنجيم.
- مراتب الولاية، والفرق بين المعجزة والكرامة، وتفضيل الأنبياء على الأولياء.
- حتمية التسليم والاستسلام لنصوص الكتاب والسنة، وفساد منهج المتكلمين.

الفصل الثالث: توحيد الأسماء والصفات:

- بعض القواعد الكلية فى باب الأسماء والصفات.
- المقصود من بعض أسمائه تعالى: كالأول، والآخر، والحي، والقيوم.
- المقصود من بعض صفاته تعالى: كصفة الكلام، والعلوّ، والعلم، والقدرة.
- بيان فساد المذاهب الباطلة في هذا الباب: كالمشبهة، والمعطلة، والمعتزلة.



التوحيد أول واجب على المكلف، وهو أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم به السالك إلى الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[1]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2].

وقال النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله**».[3]

ولهذا فإن أول واجب[4] يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله.[5]

فقد اتفق أئمة السلف على أن أول ما يؤمر به العبد: الشهادتان، وأن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد عقيب البلوغ.

---

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) النحل: ٣٦.

(٣) رواه البخاري،في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله. (انظر: الفتح ج١٢ ص: ٨٨٢، شرح النووي ج١ ص: ٢٠١-٢١١)

(٤) الواجب هنا يمتد ليشمل: النطق بها، وفهمها، والعمل بمدلولها، واجتناب نواقضها.

(٥) كما جاء في البخاري من حديث معاذ حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن: «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل». وفي هذا رد على ما ذهب إليه أهل الكلام المذموم من المعتزلة والأشاعرة، من أن أول واجب على المكلف هو النظر، أو مقدمات النظر، أو الشك. (انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي المعتزلي عبد الجبار، والإنصاف للقاضي الأشعري الباقلاني، والإرشاد للجويني).

والتوحيد الذي دعت إليه الرسل نوعان:

- **توحيد الإثبات والمعرفة:**

وهو معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته وأفعاله، كما أخبر به عن نفسه، وأخبر به عنه رسوله، وهو التوحيد العلمي والخبري، ويشمل توحيد الربوبية: وتوحيد الأسماء والصفات. وذلك مثل ما تضمنته سورة الإخلاص، وأول سور: الحديد، وآل عمران، والسجدة، وآخر سورة الحشر، وغير ذلك.

- **توحيد القصد والطلب:**

وهو عبادة الله وحده، وخلع ما يُعبد من دونه، وهو التوحيد العملي الإرادي، ويتمثل في توحيد الألوهية، وذلك مثل ما تضمنته سورة الكافرون، وأول سور: الأعراف، ويونس، والزمر، وجملة سورة الأنعام، وغيرها.

وبناء على ذلك فإننا سوف نتناول في الفصول الثلاثة التالية أقسام التوحيد على النحو التالي:

الفصل الأول:

توحيد الربوبية.

الفصل الثاني:

توحيد الإلهية.

الفصل الثالث:

توحيد الأسماء والصفات.

الفصل الأول

توحيد الربوبية

المبحث الأول: فطر القلوب على هذا التوحيد:

(نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: أن الله واحد لا شريك له).

المبحث الثاني: الميثاق الذي أخذه الله من آدم وذريته:

(والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق).

(خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة).

المبحث الثالث: الخلاف في أول هذا العالم.

(خلق الخلق بعلمه، وقدَّر لهم أقداراً).



يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذا الفصـل أن تكون ملماً بما يلي:

(١) فـطر القلـوب علـى هـذا التـوحيد.

(٢) الميثـاق الذي أخـذه الله من آدم وذريته.

(٣) الخلاف في أول هذا العالَم، وتقدير الأقدار.



فطر القلوب على هذا التوحيد

قـال المصـنف -رحمـه الله تعـالى-: (نقـول فـي توحيـد الله، معتقدين بتوفيق الله:إن الله واحد لا شريك له).

توحيد الربوبية كالإقرار بأن الله خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال. وقد فُطرت القلوب على الإقرار بهذا التوحيد، ولم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، حتى إن فرعون كان يستيقن به مع ما عرف عنه من تظاهره بإنكار الصانع. قال تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾[1]. وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[2]. ولم يُعرف عن أحد من الطوائف المختلفة أنه أثبت للعالم صانعين متماثلين في الصفات والأفعال:

فالثنوية من المجوس، والمانوية[3] القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما

(١) الإسراء: ١٠٢.

(٢) النمل: ١٤.

(٣) المانوية: نسبة إلى (ماني) الفارسي، كان في الأصل مجوسيًا، فأحدث دينًا ودعا إليه، وزعم أن صـانع العـالم اثنـان: أحدهما: فاعل الخير وهو نور، وثانيهما: فاعل الشر وهو ظلمة، وهما قديمان لم يزالا ولـن يـزالا، وهمـا مختلفـان في

متفقون على أن النور خير من الظلمة، وأنه الإله المحمود، فلم يثبتوا ربين متماثلين.

والنصارى مع قولهم بالتثليث لم يثبتوا ثلاثة أرباب منفصلة، بل اتفقوا على أن صانع العالم واحد، واضطربوا في فهم التثليث، فلا يكاد يتفق اثنان منهم على معنى واحد، فهم يقولون: واحد بالذات ثلاثة بالأقنوم! ويضطربون في تفسير الأقانيم، فتارة يفسرونها بالخواص، وتارة بالصفات، وتارة بالأشخاص. وبالجملة فهم لم يقولوا بإثبات خالقين متماثلين.

ومشركو الأمم السابقة كانوا يقرون بالصانع(١)، وأنه ليس للعالم صانعان متماثلان، ولكنهم كانوا يتخذون من آلهتهم شفعاء إلى الله. قال تعالى في قصة صالح عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ..﴾الآية(٢)، فهؤلاء المفسدون المشركون تحالفوا بالله على قتل نبيهم وأهله، وهذا يبين أنهم كانوا مؤمنين بالله إيمان المشركين.

فإذا عُلم أن هذا التوحيد قد فُطرت القلوب على الإقرار به، أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، وأنه لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، وأنه قد يوجد مع الشرك في العبادة، فقد عُلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية الذي يتضمن توحيد الربوبية، فلو أقر رجل بتوحيد الربوبية، ولم يعبد الله وحده، ويتبرأ من عبادة ما سواه، كان مشركًا من جنس أمثاله من المشركين.

النفس والصورة، متضادان في الفعل والتدبير، وقد ظهر في أيام (سابور بن أردشير)، وتبعه خلق عظيم من المجوس، وادعوا له النبوة، وما زال إلى أن قتل في زمان (سابور بن بهرام).

(١) الأولى استخدام اسم «الخالق» بدلاً من لفظ «الصانع»؛ إذ إن أسماء الله تعالى توقيفية، و« الصانع» ليس من أسمائه تعالى فهو من قبيل الخبر لا الإنشاء.

(٢) النمل: ٤٩.

الشرك في بعض الربوبية ونقضه:

وإذا كان الناس لم يشركوا في الربوبية بالمعنى السابق «**إثبات متماثلين**»، فقد ذهب بعض المشركين إلى أن ثَمَّ خالقًا خلق بعض العالم، كما يقول الثنوية في الظلمة، والقدرية في أفعال الحيوان. فقد كان هؤلاء يثبتون أمورًا محدثة بدون إحداث الله لها، فهم مشركون في بعض الربوبية. كذلك كان الحال عند كثير من مشركي العرب وغيرهم، فقد كانوا يظنون شيئًا من نفع أو ضر بدون أن يخلق الله ذلك.

وقد بين القرآن الكريم بطلان ذلك: قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾[1]. فالإله الحق لابد أن يكون خالقًا فاعلاً، يوصل إلى عباده النفع، ويدفع عنهم الضر، فلو كان معه سبحانه وتعالى إله آخر، لكان له خلق وفعل، وحينئذٍ فلا يرضى الشركة، بل إن قدر قهر شريكه وتفرد بالملك، وإلا انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه.

وإن انتظام أمر العالم ليدل على أن مدبره واحد، وإلهه واحد، لا إله غيره، ولا رب سواه، فلو كان له إلهان معبودان، لفسد نظامه كله.

فالآية الكريمة موافقة لما استقر في الفطر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الإلهية.

(١) المؤمنون: ٩١.



الميثاق الذي أخذه الله من آدم وذريته

قال المصنف- رحمه الله تعالى- (والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[(1)] أخبر الله عز وجل أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم لا إله إلا هو.

معنى قوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ في الآية الكريمة:

أي: قالوا: شهدنا أنك ربنا، وهذا قول ابن عباس وأبيّ بن كعب، وقال ابن عباس أيضًا: أشهد بعضهم على بعض. والرأي الأول هو الأظهر.

وقيل: ﴿شَهِدْنَا﴾ من قول الملائكة. والوقف على قوله: (بلى). وهو قول مجاهد والضحاك والسديّ.

وقال السديّ أيضًا: هو خبر من الله عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم.

(١) الأعراف: ١٧٢-١٧٤.

بعض ما جاء في السنة متعلقاً بهذا الميثاق:

وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأنه ربهم:

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى قال: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾**»[1].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه سئل عن هذه الآية، فقال: سمعت رسول الله سئل عنها، فقال: «**إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون...** » الحديث[2].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديًا به؟ قال: فيقول: نعم. قال: فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي**»[3].

(١) س: تفسير سورة الأعراف، ح: ٢١١. ط: القدر، ب ١، ح٢. ك: ٢/ ٥٤٤. حم: ١/ ٢٧٢ - كلهم عن ابن عباس. وهو حديث صحيح، راجع: شرح المسند للشيخ أحمد شاكر ٤/ ١٥١، ح ٢٤٥٥. ورواه النسائي أيضًا وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ومدار طرقه عند هؤلاء جميعًا على كلثوم بن جبير، وقد احتج به مسلم. انظر: ابن كثير ٣/ ٥٠١. وصحح ابن كثير أنه موقوف على ابن عباس، فلا يعارض الأحاديث الصحيحة التي لم يذكر فيها الإشهاد. والله أعلم.

(٢) د: السنة، ب١٧، ح٤٧٠٣. ت: تفسير سورة الأعراف، ح٣٠٧٥. س: تفسير سورة الأعراف، ح٢١٠. ط: القدر، ب ا، ح٢. حب:٨/ ١٤، ح ٦١٣٣. حم:١/ ٤٤ - كلهم عن عمر بن الخطاب، وقال الترمذي: حسن. وراجع شرح المسند للشيخ أحمد شاكر١/ ٢٨٩، ح ٣١١.

(٣) وهذا القول لأهون أهل النار عذاباً لا يفهم منه أنه مخلد في النار لمجرد مخالفته لحجة الميثاق فحسب، من دون قيام حجة الرسل عليه، وبخاصة أن أهون أهل النار عذاباً هو «أبو طالب» الذي أقام عليه النبي الحجة بنفسه، فغيره ممن هو أشد منه عذابًا أولى أن تكون قد بلغته نذارة الرسل فقابلها بالجحود والعناد.

فالآثار المروية في ذلك إنما تدل على القدر السابق، وبعضها يدل على أنه استخرج أمثالهم وصورهم، وميز أهل السعادة من أهل الشقاء، وأما الإشهاد عليهم هناك، فإنما في حديثين موقوفين على ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم(1).

خلاف العلماء في المراد من الإشهاد في آية الميثاق:

اختلف العلماء في فهم هذه الآية:

فقال قوم: إن المراد بالإشهاد في هذه الآية، هو فطرتهم على التوحيد، فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم، كما قال تعالى في السماوات والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾(2).

وقال آخرون: إنه إشهاد حقيقي مقالي، وإن الله أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وجعل فيها من المعرفة ما علمت به من خاطبها. وعلى هذا يكون الناس قد تكلموا حينئذ، وأقروا بالإيمان، فتقوم بذلك عليهم الحجة يوم القيامة.

والراجح أن الآية الكريمة لا تدل على هذا الرأي الأخير، وذلك من عدة أوجه:

- فقد قال تعالى: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾،ولم يقل:(من آدم)، وقال: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ ولم يقل: (من ظهره)، وقال: (**ذرياتهم**)، ولم يقل: (ذريته).
- ولأن الله عز وجل ذكر الحكمة من هذا الإشهاد، وهي: لئلا يَدَّعوا الغفلة، أو يَدَّعوا التقليد، ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة،

(1) الظاهر أن الأحاديث التي ذكرها الشارح والحكم عليها، منقولة من تفسير الحافظ ابن كثير. انظر: (3/ 500-506). وقد سبق بيان أن حديث ابن عباس موقوف، وأما حديث ابن عمر، فهو منقطع في رواية أحمد، ضعيف في رواية غيره، فصّل ذلك ابن كثير (3/ 503-504)، وفي كلامه ما لم يفطن له الأستاذ شعيب الأرناؤوط حيث حكم بأنه صحيح لغيره، وأما حديث أنس، فرواه البخاري ومسلم، لكن ليس فيه الإشهاد.

(2) فصلت: 11.

أما هذا الإشهاد، فإن الناس غافلون عنه، ولا يذكره أحد منهم، فلا تقوم به حجة.

- ومن ناحية أخرى، فإن الله عز وجل جعل ذلك من آياته، والآية هي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها، وإنما ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها.

من أجل ذلك مال كثير من العلماء إلى تفسير الإشهاد في هذه الآية بالفطر على التوحيد.

الفرق بين تقليد الآباء في العادات الدينية، والدنيوية:

ولاشك أن الإقرار بالربوبية: أمر فطري، والشرك: حادث طارئ، فإذا احتج الناس يوم القيامة بأن آباءهم كانوا مشركين، وأنهم قلدوهم في ذلك،كما قلدوهم في عاداتهم الدنيوية من المطاعم والملابس، قيل لهم: لقد كنتم معترفين بالصانع، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم، أي: أقررتم به، فلِمَ عدلتم عما أقررتم به على أنفسكم -وهو العلم المتيقن- إلى ما لا تُعلم له حقيقة -وهو الشرك- تقليدًا لمن لا حجة معه؟

أما تقليدهم في العادات الدنيوية: فلم يكن عندهم ما يعلم به فسادها، بخلاف الشرك، فقد كان عندهم من المعرفة ما يبين فساده؛ فالصبي يأخذ عن أبويه دين التربية والعادة، وهذا لا يعاقبه الله عليه -على الصحيح- فإذا بلغ وعقل، وقامت عليه الحجة، فعليه أن يتبع دين العلم والعقل، وهو الذي يعلم بعقله أنه صحيح، وإن كان مخالفًا لما عليه آباؤه قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾[1]. فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة ولا علم، كان ممن اتبع هواه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[2].

وهذا حال كثير ممن ولدوا على الإسلام، يتبع أحدهم أباه في اعتقاده ومذهبه، وإن كان

(١) لقمان: ١٥.

(٢) البقرة: ١٧٠.

خطأ؛ فهو من مسلمة الدار لا من مسلمة الاختيار، وهذا إذا قيل له في قبره: مَن ربك؟ قال: هاه لا أدري! سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته! فليحذر الإنسان لنفسه وكل امرئ حسيب نفسه!

هو الخالق الرازق:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة).

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[1] ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[2].

وروى الإمام مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي قال فيما يرويه عن ربه: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل في البحر**».

وقوله: (**بلا مؤنة**) أي: بلا ثقل ولا كلفة.

(١) أي: أن الغاية من خلق الخلق، وإرسال الرسل، وتنزيل الكتب، هو إفراد الله تعالى وحده بالعبادة دون أحد سواه. وأسلوب النفي والاستثناء في الآية يفيد الحصر والقصر الذي يدل على نفي أي غاية للوجود البشري غير عبادة الله، وحصر غاية هذا الوجود كله في عبادة الله تعالى.

(٢) الذاريات: ٥٦-٥٨.



الخلاف في أول هذا العالم، وتقدير الأقدار

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (خلق الخلق بعلمه، وقدَّر لهم أقدارًا).

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[1].

وروى البخاري وغيره عن عمران بن حصين قال: قال أهل اليمن للنبي ﷺ: جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر، فقال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله** -وفي رواية- **ولم يكن شيء معه** -وفي رواية- **غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض**، وفي لفظ: **ثم خلق السماوات والأرض**»[2].

اختلف الناس في فهم هذا الحديث على قولين:

أحدهما: كان الله موجودًا وحده، ولم يزل كذلك دائمًا، ابتدأ إحداث جميع الحوادث، فصار فاعلاً بعد أن لم يكن يفعل شيئًا.

الثاني: المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود، الذي خلقه في ستة أيام ثم استوى على العرش، وهذا هو الصحيح.

(١) هود: ٧.

(٢) كتاب بدء الخلق: (٦/ ٢٨٦)، وكتاب التوحيد: (١٣/ ٤٠٣)، وانظر: الهامش الآتي.

ودليل هذا الرأي الثاني من وجوه:

- أن قول أهل اليمن: جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر، هو إشارة إلى حاضر مشهود موجود، فأجابهم ﷺ عن ذلك.
- أن الله لم يخبرهم عن خلق العرش، وهو مخلوق قبل السماوات والأرض.
- أن الله قد ذكر السماوات والأرض بما يدل على خلقها، وذكر ما قبلها بما يدل على كونه ووجوده، ولم يتعرض لابتداء خلقه، فلا يجوز أن يظن أن معناه: الإخبار بتعطيل الرب دائمًا عن الفعل حتى خلق السماوات والأرض، بل لا يصح أن يكون معناه أنه تعالى كان موجودًا وحده لا خلق معه أصلاً، بدلالة قوله: «**وكان عرشه على الماء**»، فعلم أن المراد لم يكن معه شيء من العالم المشهود.
- أنه قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**»، وقد روي: «**معه**»، وروي: «**غيره**». والمجلس كان واحدًا، فعلم أنه قال أحد الألفاظ، والآخران رويا بالمعنى[1]. ولفظ: **(قبل)** قد ثبت في غير هذا الحديث، كما عند مسلم من حديث أبي هريرة أنه ﷺ كان يقول في دعائه: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء**»[2]. ولم يثبت أي من اللفظين الآخرين في موضع آخر، فعلم أنه ليس في هذا الحديث- على هذا اللفظ الراجح- تعرض لابتداء الحوادث، ولا لأول مخلوق.

(١) رواية: «غيره»، في كتاب بدء الخلق، ورواية: «قبله» في كتاب التوحيد، أما رواية: «معه» فقد ذكر الحافظ ابن حجر أنها رواية غير البخاري: (٦/ ٢٨٩) ولم يبينه. ولا أدري على أي شيء اعتمد الأستاذ الأرناؤوط في نفي ورودها مطلقًا. ولعله لم يطلع على كلام الحافظ، ولا أرى التسرع بتوهيم شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله: إنها في البخاري، فكم من مواضع في البخاري خفيت على بعض الحفاظ لا سيما مع اختلاف النسخ.

(٢) رقم: ٢٧١٣.

- أنه قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**، أو: «**معه**» أو: «**غيره**»، **وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء**». فأخبر عن هذه الثلاثة بالواو، «**وخلق السماوات والأرض**»، روي بالواو، وبثم، فظهر أن مقصوده إخبارهم ببدء خلق السماوات والأرض وما بينهما، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك[1].

تقدير الأقدار:

قال المصنف- رحمه الله تعالى-: (وقدَّر لهم أقدارًا).

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[2].

وفي صحيح مسلم من رواية عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال ﷺ: «**قدَّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»[3].

---

(١) تفصيل هذا الموضوع في: (شرح حديث عمران بن حصين) لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهي رسالة مطبوعة في مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥، ومجموع الفتاوى ج٢١ / ١٨ فما بعدها، ويلاحظ أن معظم كلام شارح الطحاوية منقول منها.

(٢) القمر: ٤٩.

(٣) رقم: ٢٦٥٣.

أسئلة التقويم الذاتي

س١: أهل الشرك متفقون على الإقرار ببعض صفات الربوبية من جانب، ولكنهم يشركون فى بعضها من جانب آخر. وضح ذلك مع ضرب الأمثلة على الجانبين.

س٢: ما المراد بالميثاق الذي أخذه الله عز وجل من بني آدم؟ وهل هو حجة عليهم يوم القيامة؟ دلل على ما تقول.

س٣: آية الميثاق أبطلت حجة المشركين في أنهم تقلدوا شركهم من آبائهم، وضح ذلك في ضوء تفسير هذه الآية.

س٤: هل يصح قياس تقليد الآباء في العادات الدينية الفاسدة على تقليدهم في العادات الدنيوية؟ وما الفرق بين تقليدهم في الحالتين؟

س٥: ما الرأي الراجح في المراد من حديث النبي ﷺ: «**كان الله، ولم يكن شيء قبله**»؟ اذكر أدلة صحة هذا الرأي.

الفصـل الثـانـي

توحيـــد الإلهيـــة

- المبحث الأول: التوحيد الذي دعت إليه الرسل.
- المبحث الثاني: الـدعاء وأثـره فـي جلـب المنـافع ودفـع المضار.
- المبحث الثالث: الاستشفاع بالنبي ﷺ.
- المبحث الرابع: الكهانة والتنجيم.
- المبحث الخامس: الولايـة ومراتبهـا.
- المبحث السادس: المعجزة والكرامة.
- المبحث السابع: الأنبياء أولاً .... ثم الأولياء.
- المبحث الثامن: دور العقـل مـع النقـل وفسـاد مـنهج المتكلمين.
- المبحث التاسع: حجية أخبـار الآحـــاد.



يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذا الفصل أن تكون ملماً بما يلي:

(١) توحيد الإلهية هو مقصد دعوة الرسل.

(٢) الدعاء وأثره في جلب المنافع ودفع المضار.

(٣) حكم الاستشفاع بالنبي.

(٤) أحكام الكهانة، والسحر، والتنجيم.

(٥) الولاية ومراتبها.

(٦) المعجزة والكرامة.

(٧) المفاضلة بين الأنبياء والأولياء.

(٨) دور العقل مع النقل، وفساد منهج المتكلمين.

(٩) حجية أخبار الآحاد.



التوحيد الذي دعت إليه الرسل

قال المصنف- رحمه الله تعالى-:(ولا إله غيره).

هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم. وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر، فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال؛ ولهذا لما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[(1)]، قال بعده: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[(2)]. فإنه قد يخطر ببال أحد هذا الخاطر الشيطاني: هب أن إلهنا واحد فلغيرنا إله غيره، فقال: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية:

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد، فهو يبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم ألا يعبد إلا الله، فيجعل من توحيد الربوبية دليلاً على توحيد الإلهية؛ إذ كانوا يسلِّمون بالأول وينازعون في الثاني. قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[(3)]

---

(1) البقرة: ١٦٣.

(2) البقرة: ١٦٣.

(3) النمل: ٥٩-٦٠.

فهذا استفهام إنكار، فقد كانوا مقرين أنه لم يفعل ذلك غير الله، فاحتج عليهم بذلك، أي: إنَّ من خلق هو الذي يستحق أن يكون إلهًا، وأن يتوجه إليه وحده بالعبادة. ونفس المعنى أيضًا في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

توحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية:

وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية، دون العكس، فمن لا يقدر على الخلق، يكون عاجزًا، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهًا. قال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[2] ، فالإقرار بأن الله وحده هو الذي يستحق أن يعبد، يتضمن الإقرار بأنه وحده الخالق والمحي والمميت.

أما توحيد الربوبية، فلا يتضمن توحيد الإلهية[3] ؛ لأنه قد يقر بأن الله هو الخالق وحده، والمدبر وحده، ثم يعبد من دونه آلهة يزعم أنها تقربه إليه.

وقد شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله.

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[4] .

(١) البقرة: ٢١.

(٢) الأعراف: ١٩١.

(٣) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: فاعلم أن الربوبية و الألوهية يجتمعان ويفترقان، **فعند الإفراد يجتمعان** كما فى قول الملكين للرجل فى القبر: من ربك؟ معناه: من إلهك؛ لأن الربوبية التي أقر بها المشركون لايمتحن بها أحد في قبره، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ فالربوبية في هذا هي الألوهية ليست قسيمة لها كما تكون **قسيمة لها عند الاقتران**، فينبغي التفطن لهذه المسألة.

(٤) آل عمران: ١٨.

مراتب الشهادة:

والشهادة لها أربع مراتب:

(١) **مرتبة العلم**: وإلا كان الشاهد شاهدًا بما لا علم له به. قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(١)]، وقال ﷺ -وقد أشار إلى الشمس-: «**على مثلها فاشهد**»[(٢)].

(٢) **مرتبة التكلم والخبر**: قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[(٣)]. فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بها، ولم يؤدوها عند غيرهم.

(٣) **مرتبة الإعلام والإخبار**، وهو نوعان:

(أ) **إعلام بالقول.**

(ب) **إعلام بالفعل**: فمن جعل داره مسجدًا، وفتح بابها، فقد أعلم أنها وقف، وإن لم يتلفظ به، ومن تودد إلى غيره بأنواع المسار، فقد أعلم بأنه يحبه وإن لم يتلفظ بذلك، ومما يدل على أن الشهادة قد تكون بالفعل، قوله تعالى:﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾[(٤)]. وشهادة الله عز وجل بالتوحيد إما بالقول، وهو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه. وإما بالفعل، وذلك من خلال تدبيره العجيب، وآياته المبثوثة في الكون.

(١) الزخرف: ٨٦.

(٢) قال الحافظ في بلوغ المرام في باب الشهادات ح ١٢٠٦: أخرجه ابن عدي بإسناد ضعيف، وصححه الحاكم فأخطأ.

(٣) الزخرف: ١٩.

(٤) التوبة: ١٧.

(٤) **مرتبة الأمر والإلزام**: ومجرد الشهادة لا يستلزم ذلك، ولكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه. فقد شهد به شهادة من قضى بذلك وألزم به عباده. قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[(٢)].

طرق بيان الشهادة:

بيـَّن الله هذه الشهادة للناس بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

- فبالسمع يسمع آيات الله المتلوة، المثبتة لصفات كماله وجلاله تعالى.
- وبالعين يبصر آيات الله، المبثوثة أمامه.
- ويجمع العقل بين هذه وتلك، فيشهد بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة هذه الأدوات جميعًا.

ومن تمام رحمة الله وعدله، أنه لم يبعث نبيًا إلا ومعه آية تدل على صدقه. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[(٣)]. ومن أسمائه تعالى: المؤمن، وهو المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم.كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[(٤)]. فقد وعد بأن يُري العباد من آياته الفعلية والخلقية ما يشهد بحقية القرآن،

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) البينة: ٥.

(٣) الحديد: ٢٥.

(٤) فصلت: ٥٣.

وهذا استدلال بأفعاله ومخلوقاته. ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1] أي: مطلع على كل شيء. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته.

الاستدلال بأسماء الله وصفاته:

فإن قيل: كيف يستدل بأسمائه وصفاته وهو غير معهود في الاصطلاح؟

فالجواب: أن الله قد أودع في الفطرة النقية أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، ومن كماله المقدس شهادته على كل شيء، ومَن هذا شأنه لا يليق بالعباد أن يشركوا به، ولا يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ثم ينصره على ذلك مع كذبه وافترائه، ولاشك أن شهادة الله على كل شيء وقدرته وحكمته، وكماله المقدس، يأبى ذلك.

وهذه طريقة الخواص في الاستدلال حيث يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله أو لا يفعله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾[2]. وأما طريقة الجمهور فهي الاستدلال بالآيات الشاهدة، لاتساعها وسهولة تناولها.

بطلان تقسيم التوحيد إلى: توحيد عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة:

وإذا كان توحيد الإلهية هو التوحيد الذي أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب فلا التفات إلى من قسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

- فجعل هذا النوع: توحيد العامة.
- والنوع الثاني: توحيد الخاصة. وهو الذي يثبت بالحقائق.
- والنوع الثالث: توحيدًا قائمًا بالقدم. وهو توحيد خاصة الخاصة.

---

(١) فصلت: ٥٣.

(٢) الحاقة: ٤٤-٤٧.

لأن ذلك ينتهي بأصحابه إلى الفناء الذي يسير إليه غالب الصوفية، وهو درب خطر يفضي إلى الاتحاد، فضلاً عن كونه لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، ولا كلام أحد من محققي الأئمة.

فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه، فهم أكمل الخلق إيمانًا وتوحيدًا؛ لأنهم قاموا في التوحيد بما لم يقم به غيرهم علمًا، ومعرفة، ودعوة للخلق، وتضحية، ومعاناة، من أجل إظهار التوحيد، وإبطال عبادة الطواغيت.



الدعاء وأثره في جلب المنافع ودفع المضار

قـال المصـنف -رحمـه الله تعـالى-: (والله تعـالى يسـتجيب الدعوات، ويقضي الحاجات).

الذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وغيرهم أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع، ودفع المضار. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(1). وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(2). وقد أخبر الله عن الإنسان، أنه إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا، وأخبر عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر في البحر، دعوا الله مخلصين له الدين.

وإجابة الله لدعاء العبد-مسلمًا كان أو كافرًا- من جنس رزقه لهم، وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقًا، ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه إذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك.

وذهب قوم من المتفلسفة وغالية المتصوفة، إلى أن الدعاء لا فائدة فيه؛ لأن المشيئة إذا كانت قد اقتضت وجود المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء، وإن لم تقتضه فلا فائدة في الدعاء!

(1) غافر: ٦٠.

(2) البقرة: ١٨٦.

وقولهم هذا معلوم الفساد بضرورة العقل والشرع. والجواب عنه: أنه ثمَّ قسمٌ ثالث، وهو أن تقتضيه بشرط لا تقتضيه مع عدمه، وقد يكون الدعاء من شرطه،كما توجب الثواب مع العمل الصالح ولا توجبه مع عدمه، وكما توجب الشبع والرّي عند الأكل والشرب، ولا توجبه مع عدمهما، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء، لم يصح أن يقال لا فائدة في الدعاء،كما لا يقال لا فائدة في الأكل والشرب وسائر الأسباب.

وكذلك قولهم: إن اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء. يرد عليه بأنه قد تكون إليه حاجة من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة أو آجلة، أو دفع مضرة أخرى عاجلة أو آجلة، بل لو لم يكن فيه إلا افتقار العبد إلى ربه، ولجوؤه إليه، لكفى.

وإذا كان إعطاء الله معللاً بفعل العبد، فهل يكون السائل قد أثَّر في المسئول حتى أعطاه؟

الجواب: إن الله هو الذي حرك العبد إلى هذا الدعاء، وجعله سببًا للخير الذي يعطيه إياه، فكما وفق إلى التوبة، ثم قبلها، ووفق للعمل الصالح، ثم أثابه عليه- فهو الذي وفق للدعاء ثم أجابه. فلم يؤثر فيه شيء من المخلوقات- بل هو جعل ما يفعله سببًا لما يفعله.

قال عمر: إني لا أحمل هم الإجابة، وإنما أحمل هم الدعاء.

وقال مطرف بن عبد الله: نظرت في هذا الأمر، فوجدت مبدأه من الله، وتمامه على الله، ووجدت مِلاك ذلك الدعاء.

وقال تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾[1] .

فأخبر سبحانه أنه يبتدئ بتدبير الأمر، ثم يصعد إليه الأمر الذي دبره.

(١) السجدة: ٥.

الذي يسأل الله فلا يُعطَى، أو يُعطَى غير ما سأل:

هذه مسألة معروفة، وقد أجيب عنها بعدة أجوبة منها:

- أن النصوص لم تتضمن عطية السائل مطلقًا، وإنما تضمنت إجابة الداعي، وإجابة الداعي أعم؛ ولهذا قال ﷺ: «**ينـزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا، فيقول من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟**»[1]. ففرق بين الداعي والسائل، وبين الإجابة والإعطاء.
- فالدعاء: منه دعاء عبادة، ومنه دعاء مسألة؛ لأنه اسم يجمع بين العبادة والاستعانة.
- أن إجابة دعاء السائل أعم من إعطاء المسئول، كما فسره النبي ﷺ في ما رواه مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «**ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل دعوته، أو يدخر له من الخير مثلها، أو يصرف عنه من الشر مثلها**»، **قالوا: يا رسول الله إذاً نكثر، قال:** «**الله أكثر**»[2]. فأخبر أنه لابد في الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلاً، أو مثله من الخير مؤجلاً، أو يصرف عنه من السوء مثله.
- أن الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب، والسبب له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب.

(١) ح: التهجد، ب ١٤، ح ١٠٩٤، والدعوات، ب ١٢، ح ٥٦٦٦، والتوحيد، ب٣٥، ح ٧٠٥٦. م: المسافرين، ب٢٤، ح١٦٨- ١٧١. د: الصلاة، ب ٣١١، ح٣١٥، والسنة، ب ٢١، ح ٤٧٣٣. ت: الصلاة، ب٣٢٩، ح ٤٤٦، والدعوات، ب ٧٩، ح ٣٤٩٨. ق: الإقامة، ب١٨٢، ح ٣٦٦. م: الصلاة، ب١٦٨، ح ١٤٨٧. حم: ٢/ ٢٦٤- كلهم عن أبي هريرة.

(٢) م: الذكر، ب ٢٥، ح ٩٢ عن أبي هريرة بغير هذا اللفظ، حم: ٣/١٨- عن أبي سعيد الخدري.

فالأدعية والتعوذات والرقى بمنـزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحًا تامًا والساعد قويًا، والمحل قابلاً، والمانع مفقودًا: حصلت النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثر. فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثمَّ مانع من الإجابة: لم يحصل الأثر.

الأخذ بالأسباب:

الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد: والالتفات إلى السبب، بمعنى: اعتماد القلب عليه، ورجائه، والاستناد إليه: شرك في التوحيد. فليس هناك سبب مستقل، بل لابد له من شركاء وأضداد، ومع هذا فإن لم يُسَخِّره مسبب الأسباب،لم يُسخر.

والإعراض عن الأسباب قدح في الشرع: فكما أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، فإن الإعراض عنها بالكلية قدح في الشرع.

ومحو الأسباب أن تكون أسباب نقص في العقل: لأن المطلوب لا ينال إلا بمراعاة أسبابه التي تؤدي إليه، وذلك معلوم بداهة بالضرورة.

ومعنى التوكل والرجاء يتألف من وجوب التوحيد، والعقل، والشرع.



الاستشفاع بالنبي ﷺ

الاستشفاع بالنبي ﷺ، وغيره، في الدنيا، إلى الله تعالى في الدعاء على تفصيل:

التوسل المحذور:

فإن قال الداعي: بحق فلان. يقسم على الله بأحد من مخلوقاته، فهذا محذور من وجهين

الأول: أنه أقسم بغير الله، وهذا لا يجوز؛ لأن الإقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز فكيف بالإقسام به على الخالق؟

قال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[1].

الثاني: اعتقاده أن لأحد على الله حقًا وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه الله على نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. كقوله ﷺ لمعاذ في الصحيحين: «**أتدري ما حق الله على عباده؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. **قال**: «**حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حق العباد على الله، إذا فعلوا ذلك؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. **قال**: «**حقهم عليه ألا يعذبهم**».

فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق.

وأما ما روي في المسند عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قول الماشي إلى الصلاة: «**أسألك**

(١) د: الأيمان، ب ٥، ح ٣٢٥١. ت: الأيمان، ب ٨، ح ١٥٣٥. حم: ٢/ ١٢٥ - كلهم عن ابن عمر، وقال الترمذي: حسن.
(٢) الروم: ٤٧.

بحق ممشاي هذا وبحق السائلين عليك»[1]، فإن الله عز وجل هو الذي أحق للسائلين أن يجيبهم وللعابدين أن يثيبهم.

الفرق بين قول الداعي: بحق السائلين عليك، وبين قوله: بحق النبي ﷺ:

إن معنى قوله **الأول**: أنت وعدت السائلين بالإجابة، وأنا من جملتهم فأجب دعائي، وأما **الثاني**: فلا مناسبة بين قوله بحق فلان، وإجابة دعاء هذا السائل، فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين فأجب دعائي، ولا مناسبة في هذا ولا ملازمة، بل هو من الاعتداء في الدعاء، فضلاً عن أنه لم ينقل مثل ذلك عن رسول الله ﷺ، ولا عن أحد من السلف الصالح، وإنما يوجد مثله في الحروز والهياكل التي يكتبها الجهال والطرقية. ولهذا كره أبو حنيفة وصاحباه، قول الداعي: أسألك بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وحق البيت الحرام، والمشعر الحرام، ونحو ذلك. بل كره أبو حنيفة ومحمد، قول الداعي: أسألك بمعقد العز من عرشك، ولم يكرهه أبو يوسف؛ لما بلغه الأثر فيه.

وتارة يقول: بجاه فلان، ويقول نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك، ومراده: لأن هؤلاء ذوو وجاهة عندك وشرف، فأجب دعاءنا. وهذا أيضًا محذور؛ لأنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان يفعله الصحابة في حياته ﷺ لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه ﷺ، يطلبون منه الدعاء وهم يؤَمِّنون،كما في الاستسقاء وغيره، فلما مات ﷺ، قال عمر- لما خرجوا يستسقون-: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا. يعني: بدعائه، وليس المراد: إننا نقسم عليك به، أو نسألك بجاهه عندك؛ إذ لو كان ذلك مرادًا، لكان جاهه ﷺ أعظم من جاه العباس.

(١) ق: المساجد، ب ١٤، ح ٧٧٨. حم: ٣/٢١٠ الألباني في الموضوعة ١/٣٤، ح ٢٤، كلهم عن أبي سعيد، وهو حديث ضعيف لا يليق الاحتجاج به.

التوسل المشروع:

وتارة يقول: باتباعي لرسولك، ومحبتي له، وإيماني به، فهذا من أحسن ما يكون من الدعاء والتوسل والاستشفاع. فلفظ **التوسل بالشخص** فيه إجمال:

- فإن أريد التسبب به لكونه داعيًا وشافعًا- وذلك إنما يكون في حياته- أو يكون الداعي محبًا ومتبعًا له فذلك حسن مشروع.
- وإن أريد الإقسام به، أو التوسل بذاته فذلك مكروه ممنوع. وكذلك السؤال بالشيء:
- إن قصد به التسبب به لكونه سببًا، كدعاء الثلاثة الذين سدت عليهم الصخرة باب الغار، بصالح أعمالهم، فانفرجت عنهم، فذلك حسن مشروع؛ لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى ربه.
- وإن أريد به الإقسام به، فذلك هو المنهي عنه.

الفرق بين الشفاعة عند الله وبين الشفاعة عند البشر:

والحاصل أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر. فالشفيع عند البشر قد شفع الطالب في طلبه، فأصبح به شفعًا بعد أن كان وترًا، وشفع المطلوب منه؛ لأنه بشفاعته قد صار فاعلاً للمطلوب. والله عز وجل وتر لا يشفعه أحد، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فسيد الشفعاء يوم القيامة عندما يسجد بين يدي الله يوم القيامة، ويسأله الشفاعة، يحد الله له حدًا، فيدخلهم الجنة،[1] فالأمر كله لله. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[3].

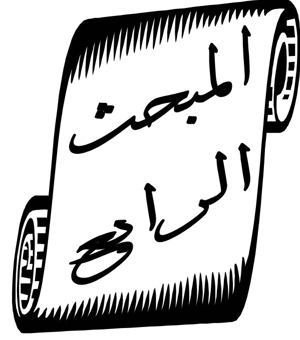
---

(١) خ: تفسير سورة البقرة، ح ٤٢٠٦، والرقاق، ب ٥١، ح ٦١٩٧، والتوحيد، ب ١٩، ح ٦٩٧٥، ب ٢٤، ب ٣٧، ح ٧٠٧٨. م: الإيمان، ب ٨٤، ح ٣٢٢- ٣٢٤- كلهم عن أنس بن مالك.

(٢) آل عمران: ١٥٤.

(٣) آل عمران: ١٢٨.

وإذا شفع عنده الشفيع، فقبل شفاعته لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق؛ لأنه سبحانه هو الذي وفق للشفاعة، وأذن بها، وهو الذي أجاب الشفيع وقبل شفاعته، وهو سبحانه الخالق لكل شيء.



الكهانة والتنجيم

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ولا نصدق كَاهِنًا ولا عَرَّافًا، ولا من يدعي شَيْئًا يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة).

حرمة صناعة التنجيم:

مضمون صناعة التنجيم، هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وهي محرمة بالكتاب والسنة، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين.

قال ﷺ: «**من أتى عَرَّافًا فسأله عن شيء لم يقبل له صلاة أربعين ليلة**»[(١)] .

وقال ﷺ: «**من أتى عَرَّافًا أو كَاهِنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**»[(٢)].

فإذا كانت هذه هي حال السائل فكيف بالمسئول؟

عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الكهان؟. فقال: «**ليسوا بشيء**» فقالوا: يا رسول الله إنهم أَحْيَانًا يحدثون عن شيء يكون حَقًّا. فقال رسول الله ﷺ: «**تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة**». متفق عليه.

(١) م: السلام، ب ٣٥، ح ١٢٥. حم: ٦٨/ ٤ و ٣٨٠/ ٥ عن بعض أَزْوَاج النبي. رواه مسلم وأحمد.

(٢) ك: ٨/ ١. حم: ٤٢٩/ ٢- كلاهما عن أبي هريرة، وهو حديث صحيح. رواه أحمد.

قال ﷺ: «**ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وحُلوان الكاهن خبيث**»[1].

وحلوانه: الذي تسميه العامة حلاوته.

وفي صحيح البخاري: أنه كان لأبي بكر غلام يأكل من خراجه، فجاء يَوْمًا بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدري مم هذا؟ قال: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أُحْسِن الكهانة، إلا أني خدعته فلقيني فَأَعْطَانِي بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده، فقاء كل شيء في بطنه.

ويدخل في هذا المعنى ما يتعاطاه المنجم، وصاحب الأزلام التي يستقسم بها، والضارب بالحصى، والذي يخط في الرمل، وما يتعاطاه هؤلاء فهو حرام.

حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء.

فالواجب على ولي الأمر أن يسعى في إزالة هؤلاء المنجمين والكهان، ومن كان على شاكلتهم، وحَسْبُ مَنْ علم بتحريم ذلك ولم يسع في إزالته مع قدرته على ذلك قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[2]. وقوله ﷺ: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يُغَيِّرُوهُ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**»[3].

أنواع الكهان والعرافين:

وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة أنواع:

نوع منهم أهل تلبيس وخداع، الذين يظهر أحدهم طاعة الجن له، وهؤلاء يستحقون

(١) ك: ١٥٥/١ عن أبي مَسْعُود وقال: خرجته لشدة الحاجة إليه. وهو حديث ضعيف، ولكن معناه صحيح.

(٢) المائدة: ٧٩.

(٣) د: الملاحم. ب ١٧، ح ٤٣٣٨. ت: تفسير سورة الملك، ح ٣٠٥٧، والفتن، ب ٨، ح ٢١٦٨. ق: الفتن، ب ٢٠، ح ٤٥٠٥. كلهم عن أبي بكر، وقال الترمذي: حسن صحيح.

العقوبة البليغة، التي تردعهم عن ذلك، وقد يكون فيهم من يستحق القتل، كمن يدعي النبوة بهذه الخزعبلات، أو يطلب تغيير شيء من الشريعة، ونحو ذلك.

ونوع يتكلم في هذه الأمور على سبيل الجد والحقيقة بأنواع السحر.

وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وأنواعه: فالجمهور على أنه يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه. وزعم بعضهم أنه مجرد تخييل.

أما حكم السحر فقد اتفق الجميع على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب والتقرب إليها فهو كفر. وأن كل رقية وتعزيم، أو قسم فيه شرك، فإنه لا يجوز التكلم به، وإنْ أطاعته به الجن. كذلك كل كلام فيه كفر، وكل كلام لا يعرف معناه، لا يجوز التكلم به؛ لاحتمال أن يكون فيه شرك لا يعرف؛ ولهذا قال ﷺ: «**لا بأس بالرقى ما لم تكن شِرْكًا**»(١).

أما حكم الساحر، فإن جمهور العلماء يوجبون قتله، واختلفوا في استتابته وكفره. وقالت طائفة: إن قتَل بالسحر يُقتل، وإلا عوقب بما دون القتل إذا لم يكن في قوله وعمله كفر، وهو المنقول عن الشافعي وقول في مذهب أحمد.

ونوع منهم يتكلم بالأحوال الشيطانية، ومخاطبة رجال الغيب، وأن لهم خوارق تقتضي أنهم أولياء الله! وأهل العلم فيهم على ثلاثة أحزاب:

- حزب يكذبون بوجود رجال الغيب، ولكن قد عاينهم الناس، وَهَؤُلاءِ إذا رأوهم وتيقنوا من وجودهم خضعوا لهم.
- وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر، واعتقدوا أن ثم في الباطن طَرِيقًا إلى الله غير طريق الأنبياء.
- وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا ذلك خَارِجًا عن دائرة الرسول ﷺ فقالوا: يكون الرسول هو ممداً للطائفتين، وهؤلاء معظِّمون للرسول ﷺ جاهلون بدينه وشرعه.

---

(١) م: السلام، ب ٢٢، ح ٦٤. د: الطب، ب ١٨، ح ٣٨٨٦- كلاهما عن ابن مالك الأشجعي.

والحق: أن هؤلاء من أتباع الشياطين، وأن رجال الغيب هم الجن، ويسمون رجالاً. قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[(١)]. وإلا فالإنس يؤنسون، أي: يظهرون ويرون، ومن ظن أنهم من الإنس فمن غلطه وجهله.

وسبب الخلاف في هؤلاء: عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن.

وقولُ البعض: الفقراء يَسْلَم إليهم حالهم، باطلٌ، بل تعرض أفعالهم وأحوالهم على الشريعة، فما وافقها قبل، وما خالفها رد. قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[(٢)]. فلا طريق إلا طريقته، ولا حقيقة إلا حقيقته، ولا شريعة إلا شريعته، ولا يصل أحد من الخلق إلى رضوان الله إلا بمتابعته، بَاطِنًا وَظَاهِرًا، فمن لم يفعل ذلك فليس بمؤمن، فَضْلاً عن أن يكون وليًا ولو طار في الهواء، ومشى على الماء؛ فإنه لا يكون مع تركه للشرائع إلا من أهل الأحوال الشيطانية المبعدة لأصحابها عن الله، المقربة لسخطه وعذابه.

استعاذة الإنس والجن واستمتاع بعضهم ببعض:

ولا تجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[(٣)]. قالوا: كان الإنسي إذا نزل بالوادي يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، فيبيت في أمن وجوار حتى يصبح، (فزادوهم رَهَقاً): زاد الإنس الجن باستعاذتهم بهم رهقًا، أي: طُغْيَانًا وَإِثْمًا وشرًا، فالجن تعاظم في أنفسها يقولون: سدنا الإنس والجن. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم

(١) الجن: ٦.

(٢) متفق عليه.

(٣) الجن: ٦.

مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾[1] .
فاستمتاع الإنسي بالجني: في قضاء حوائجه، وامتثال أوامره، وإخباره بشيء من المغيبات.
واستمتاع الجني بالإنسي تعظيمه إياه، واستعانته به وخضوعه له.

(1) الأنعام: ١٢٨.



الولايـــــة ومراتبـهـــــــا

قـال المصـنف-رحمـه الله تعـالى-: (والمؤمنـون كلهـم أوليـاء الرحمن).

الولي: من الولاية، بالفتح. وهي ضد العداوة. فالولي: خلاف العدو، وهو مُشْتَقّ من الولاء، وهو الدنو والتقرب، فولي الله: من والى الله بموافقته في محبوباته، والتقرب إليه بمرضاته، وهؤلاء كما قال الله فيهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[(1)].

قال أبو ذر: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «**يا أبا ذر لو عمل الناس بهذه الآية لكفتهم**»[(2)]. فالمتقون يدفع الله عنهم المضار، ويجلب لهم المنافع، ويعطيهم من فضله ما يشاء. والمؤمنون أولياء الله، والله وليهم، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[(3)]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ

---

(1) الطلاق: ٢.

(2) س ت تفسير سورة الطلاق، ح ٦١٥. ك: ٢/٤٩٣. حب: ٨/٢٤٢، ح ٦٦٥٠. حم: ٥/١٧٨- عن أبي ذر الغفاري، وهو حديث ضعيف الإسناد.

(3) البقرة: ٢٥٧.

ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[2]، فالله يتولى عباده المؤمنين فيحبهم ويحبونه، ويرضى عنهم ويرضون عنه، ومن عادى الله فقد بارزه بالمحاربة.

الفرق بين ولاية الله لعباده، وبين ولاية المخلوقين بعضهم لبعض:

وولاية الله لعباده من رحمته وإحسانه، وليست كولاية المخلوق للمخلوق، لذلِّه وحاجته إلى ولي ينصره، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[4].

مـــراتـــب الولايـــــة:

والولاية: نظير الإيمان، فأهلها في أصلها سواء[5]، وتكون كاملة وناقصة، فالكاملة للمؤمنين المتقين. قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾[6].

فالولاية لأهل الإيمان والتقوى، وهي عبارة عن موافقة الله الولي الحميد في محابِّه ومساخطه وليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تملق.

---

(١) يونس: ٦٢-٦٣.

(٢) التوبة: ٧١.

(٣) الإسراء: ١١١.

(٤) فاطر: ١٠.

(٥) ولاية الله تعالى للمؤمنين ليست سواء أو على درجة واحدة، وإنما تكون بحسب إيمانهم قوة وضعفًا؛ فولايته سبحانه وتعالى للأنبياء والرسل هي أعلى من ولايته لمن هم دونهم، وولايته لأهل الطاعات والاستقامة هي أعلى من ولايته لأهل المعاصي والذنوب، وولايته لأهل المعاصي والذنوب هي أعلى من ولايته لأهل الكبائر والفجور، ولا ولاية لكافر، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾.

(٦) يونس: ٦٢-٦٤.

أولاً: الولاية الكاملة:

وأولياء الله الكاملون هم المذكورون في الآية السابقة. والتقوى هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(1).

وهم قسمان:

- مقتصدون: وهم الذين يتقربون إلى الله بالفرائض.
- ومقربون: وهم الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. قال ﷺ: يقول الله تعالى: «**من عادى لي وليًا فقد بَارَزني بالمحاربة، وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وَأَكْرَهُ مساءته**». (رواه البخاري عن أبي هريرة).

ثانيًا: الولاية الناقصة:

وقد تجتمع في العبد ولاية من جهة، وعداوة من جهة(2)،كما قد يكون فيه شرك

---

(1) البقرة: ١٧٧.

(2) وبالتالي تجب موالاته وإكرامه بقدر ما عنده من إيمان وطاعة واستقامة، ومعاداته ومجافاته وإهانته بقدر ما عنده من فسق ومعصية وانحراف، حيث لا يجوز إكرامه وموالاته على الإطلاق، كما لا تجوز معاداته ومجافاته على الإطلاق، وإنما بين بين، وبالقدر الذي تجيزه الشريعة وتأمر به من غير جنوح إلى إفراط أو تفريط.

وتوحيد، كفر وإيمان[1]، وإن كان في هذا الأصل نزاع لفظي بين أهل السنة، ونزاع معنوي بينهم وبين أهل البدع، ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى، أولى من موافقته في المعنى وحده، قال تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا....﴾[2].

وقد تقدم الكلام في هذه الآية، وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين. قال ﷺ: «**أربع من كن فيه كان مُنَافِقًا خَالِصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خَصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر**»[3]. متفق عليه. وقال ﷺ: «**يخرج من النار من كان في قَلْبه مثقال ذرة من إيمان**»[4]. فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل، لم يخلَّد في النار، وإن كان معه كثير من النفاق، فهو يعذب في النار، على قدر ما معه من ذلك، ثم يخرج من النار.

قال ابن تيمية في الفتاوى (٢٨/ ٢٠٩): «إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا».

(١) الكفر هنا يراد به الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة؛ لأن الكفر الأكبر لا يجوز افتراض اجتماعه مع الإيمان النافع في قلب رجل واحد؛ لأن الكفر ينفي مطلق الإيمان، ويحبط عن صاحبه جميع العمل، وقد صح عن النبيﷺ أنه قال: «**لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ**».

وكذلك الشرك هنا يراد به الشرك العملي الأصغر، أو الشرك الخفي الذي لا ينقض مطلق الإيمان، ولا يجوز حمله على الشرك الأكبر المخرج لصاحبه عن الملة، فهذا الشرك والتوحيد ضدان لا يجتمعان، وحضور أحدهما يستلزم انتفاء الآخر.

(٢) الحجرات: ١٤.

(٣) خ: الإيمان، ب ٢٣، ح ٣٤ والمظالم، ب ١٨، ح ٢٣٢٧، والجزية، ب ١٧، ح ٣٠٠٧. م: الإيمان، ب ٢٥، ح ١٠٦. د: السنة، ب:١٦، ح ٦٨٨. ت: الإيمان، ب١٤٠، ح ٢٦٣٢. س: الإيمان، باب ٢٠، ح ٥٠٢٣- كلهم عن ابن عمرو.

(٤) خ: الإيمان، ب ٣٢، ح ٤٤، والتوحيد، ب ٣٦، ح ٧٠٧١، ٧٠٧٢. م: الإيمان، ب ٨٤، ح ٣٢٥. ت: صفة جهنم، ب ٩، ح ٢٥٩٣. ق: الزهد، ب ٣٧، ح ٤٣١٢- كلهم عن أنس.

الأقوال الباطلة في مسألة الولاية:

(١) دعوى اشتمال كل جماعة على ولي لا يعرف:

وأما ما يروى مَرْفُوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال: «**ما من جماعة اجتمعت إلا وفيهم ولي لله لا هم يدرون به، ولا هو يدري بنفسه**» فلا أصل له، وهو كلام باطل، فإن الجماعة قد يكونون كُفَّارًا، وقد يكونون فساقًا، يموتون على الفسق.

(٢) زوال العقل ليس سَبَبًا إلى ولاية الله:

أما ما كان من جنس الأطفال والمجانين، فقد رفع عنهم القلم، وليس لهم من الإيمان ما يكونون به من الأولياء، لكن يدخلون في الإسلام تبعًا لآبائهم. فمن اعتقد في البُلْهِ ومن كان على شاكلتهم، فهو ضال مبتدع، فالأبله: إما أن يكون زِنْدِيقًا متحيلاً، أو مَجْنُونًا مَعْذُورًا، فكيف يفضل على من كان من أولياء الله أو يساويه؟

أما قول بعضهم: لعله متبع في الباطن، فهو خطأ أَيْضًا؛ لأن الواجب هو متابعته ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا. قال موسى بن عبد الأعلى الصَّدَفِيّ: قلت للشافعي: إن صاحبنا الليث كان يقول: إذا رَأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة؟ فقال الشافعي: قصر الليث رحمه الله، بل إذا رَأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب.

أما حديث: «**اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها البله**»[1]، فلا يصح عن رسول الله ﷺ، ولا ينبغي نسبته إليه، فإن الجنة إنما خلقت لأولي الألباب، ولم يذكر الله من أوصاف أهلها البله الذي هو ضعف العقل، وإنما قال ﷺ: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها**

(١) ضعيف كما قال المصنف، وقد أطال الكلام عليه الشيخ الألباني في تخريج الشرح ص ٥٧٣، ٥٧٤. الطبعة السادسة.

الفقراء»[1]. ولم يقل البله.

وكذلك الذين يصعقون عند سماع الأنغام الحسنة، هم مبتدعون ضالون؛ لأنه ليس لِلإِنْسَانِ أن يستدعي ما يكون سبب زوال عقله، ولم يكن في الصحابة وَالتَّابِعِينَ من يفعل ذلك، ولو عند سماع القرآن، بل كانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[2]. وكما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3].

أما ما يحصل للبعض من الهذيان، والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسانه عند سماع الأنغام المطربة، فذلك شيطان يتكلم على لسانه، كما يتكلم على لسان المصروع، وذلك كله من الأحوال الشيطانية! إذ كيف يكون زوال العقل سَبَبًا إلى ولاية الله؟ كما يظن ذلك كثير من أهل الضلال، حتى قال بعضهم:

هم معشر حلوا النظام وخرقوا * السياج فلا فرض لديهم ولا نفل**

مجانين إلا أن سر جنونهم * عزيز على أبوابه يسجد العقل**

يظن أن في الجنون سِرًّا يسجد العقل على بابه، لما رأى في تصرفات بعض المجانين نَوْعًا من الخوارق، وسببه ما اقترن به من الشياطين كما يكون للسحرة والكهان، فظن أن كل من خبل أو خرق عادة كان وليًا لله، ومن اعتقد هذا فهو كافر، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ

(١) م: الذكر، ب ٢٦، ح ٩٣ و ٩٤. ت: صفة جهنم، ب ١، ح ٢٦٠٢. حم: ١/ ٢٣٤ ٣٥٩- كلهم عن ابن عباس.
(٢) الأنفال: ٢.
(٣) الزمر: ٢٣.

﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[1]، فكل من تنـزل عليه الشياطين لابد أن يكون عنده كذب وفجور.

وأما الذين ذكرهم العلماء بخير من عقلاء المجانين، فأولئك كان فيهم خير، ثم زالت عقولهم، ومن علاماتهم، أنهم إذا حصل لهم في جنونهم نوع من الصحو، تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان، فمن جن من المؤمنين يحشر معهم، فزوال العقل بجنون أو غيره لا يوجب مزيد حال، بل حال صاحبه من الإيمان والتقوى، تبقى على ما كان عليه من خير أو شر، ولكن جنونه يحرمه الزيادة من الخير،كما يمنع عقوبته على الشر، ولا يمحو عنه ما كان عليه قبله.

(٣) المـــــلامتيــــــة:

والطائفة الملامتية هم الذين يفعلون ما يلامون عليه، ويقولون: نحن متبعون في الباطن، ردوا باطلهم بباطل آخر، والصراط المستقيم بين ذلك.

الذين يتعبدون بالرياضات وَالْخَلَوَات:

وأما الذين يتعبدون بالرياضات والخلوات، وترك الجمع والجماعات، فهم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعًا، فكل من عدل عن اتباع السنة، إن كان عَالِمًا بها، فهو مغضوب عليه، وإلا فهو ضال؛ ولهذا شرع لنا أن نسأل الله في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قالﷺ: «**من ترك ثلاث جمع تهاوناً من غير عذر طبع الله على قلبه**»[2].

---

(١) الشعراء: ١٢١-١٢٢.

(٢) د: الصلاة، ب ٢١٠، ح ١٠٥٢. ت: الصلاة، ب ٣٥٩، ح ١١٢٥ -عن أبي الجعد، وقال الترمذي: حسن.

هل يجوز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللَّدُنيّ؟

وأما من يتعلق بقصة موسى والخضر، في تَجْويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللَّدُنيّ، فهو ملحد زنديق؛ لأن موسى ﷺ لم يبعث إلى الخضر، ولم يكن الخضر مَأْمُورًا بمتابعته، ولهذا قال له: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم[1].

أما محمد ﷺ فبعثته إلى جَمِيع الثقلين، ولو كان موسى حيًا ما وسعه إلا أن يتبعه، وعيسى إذا نزل فإنما يحكم بشريعته ﷺ، فمن زعم أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة فليجدد إسلامه، فقد فارق الإسلام بالكلية! وهذا الموضع مفرق بين زنادقة القوم وأهل الاستقامة.

ومثله من يقول: إن الكعبة تطوف برجال منهم حيث كانوا!! فهلا خرجت الكعبة إلى الحديبية فطافت برسول الله ﷺ حين أحصر عنها، وهو يود منها نظرة؟ ألا ما أشبه هؤلاء بمن وصفهم الله بقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[2].

(1) خ: الأنبياء، ب ٢٩، ح ٣٢٢٠، وتفسير سُورة الكهف، ح ٤٤٤٨- ٤٤٥٠، والعلم، ب ٤٤، ح ١٢٢ م: الفضائل، ب ٤٦، ح ١٧٢. ت: تفسير سُورة الكهف، ح ٣١٤٩- كلهم عن أبي بن كعب.
(2) المدثر: ٥٢.

التفاضل بين المؤمنين بالتقوى:

قال المصنف- رحمه الله تعالى-: (وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن).

أكرم المؤمنين أتقاهم لله، أي: أطوعهم له وأتبعهم لكتابه. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[(١)]. وقال ﷺ: **«لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عَرَبِيّ، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب»**[(٢)].

الفقير الصابر والغني الشاكر:

وبهذا يتبين القول الفصل في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر؛ ذلك أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنما يرجع إلى التقوى، وحقائق الإيمان.

قال عمر رضي الله عنه: الفقر والغنى مطيتان لا أبالي أيهما ركبت.

فأفضلهما أتقاهما لله، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة، فإن الفقر والغنى لا يوزنان، وإنما يوزن الصبر والشكر.

الحب في الله والبغض في الله من تمام العبودية:

قال المصنف- رحمه الله تعالى- (ونحب أهل العدل والأمانة، ونبغض أهل الجور وَالْخِيَانَة).

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) حم: ٥/٤١١، عن أبي نضرة- وهو حديث صحيح.

هذا من كمال الإيمان وتمام العبودية، فإن العبودية تتضمن كمال الحب وكمال الذل، فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه، وولايته وَعَدَاوَته.

فمحبة الأنبياء والصالحين من عباد الله، إنما هي من محبة الله، فغير الله يُحَبُّ في الله لا مع الله[1]، وبغض المفسدين والمستكبرين، إنما هو من محبة الله كذلك؛ لأن المحب يحب ما يحبه محبوبه، ويبغض ما يَبْغَضهُ[2].

وفي الصحيحين: قال ﷺ: «**ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان في قلبه: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه،كما يكره أن يلقى في النار**». فمن أحب الله المحبة الواجبة، فلا بد أن يبغض أعداءه، وأن يحب ما يحبه من جهادهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[3].

الحب والبغض بحسب الخير والشر:

والحب والبغض بحسب ما فيهما من خصال الخير، فإن العبد قد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة، فيكون مَحْبُوبًا من وجه، مبغوضًا من وجه، والحكم للغالب.

---

(١) قال ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى (١٠/ ٦٠٧) «لا يجوز أن يُحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده، فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته، والرب تعالى هو الذي يجب أن يحب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فإن محبة الشيء لذاته شرك، فلا يحب لذاته إلا الله، فإن ذلك من خصائص إلهيته، فلا يستحق ذلك إلا الله وحده، وكل محبوب سواه لم يحب لأجله فمحبته فاسدة..»ا هـ.

(٢) وذلك أوثق وأعظم عرى الإيمان، كما قال ﷺ: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله**» وهذا لا يقوم به إلا من كمل إيمانه، وكان إيمانه كالجبال، كما قال ﷺ: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**».

(٣) الصف: ٤.

وكذلك حكم العبد عند الله عز وجل، فإن الله قد يحب الشيء من وجه ويكرهه من وجه آخر. قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**وما تَرَدَّدْتُ في شيء أنا فاعله، تَرَدُّدي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولابد له منه**»؟[1].

فالله عز وجل يحب ما يحب عبده المؤمن، ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه، ولكنه سُبْحَانه قد قضى بالموت فهو يريد كونه، ولكن لابد من وقوعه؛ لأنه مفض إلى ما هو أحب منه.

(١)في البخاري باب التواضع حديث (٦١٣٧) الجزء الرابع والجامع الصغير للسيوطي.



المعجــــزة والكــــــرامة

قال المصنف- رحمه الله-: (ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات من رواياتهم).

المعجزة: هي الأمر الخارق للعادة، وكذلك الكرامة في عرف أئمة أهل العلم المتقدمين، إلا أن المعجزة تقترن بدعوى النبوة، والكرامة لا تقترن بذلك، وفرَّق بينهما في اللفظ كثير من المتأخرين، فجعلوا المعجزة للنبي، والكرامة للولي.

وهذا الأمر الخارق للعادة ثلاثة أنواع:

محمود في الدين، وذلك إذا حصلت به فائدة مطلوبة شَرْعًا..

ومذموم، وذلك إن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه، فيكون سَبَبًا للعذاب، كالذي أوتي الآيات فانسلخ منها: بلعاء بن باعوراء.

ومباح، وذلك إن حصل به أمر مباح، فإن كان فيه منفعة كان نعمة، وإلا فهو كسائر المباحات.

والناس في هذه الأمور ثلاثة أقسام:

- قسم ترتفع بالخوارق درجاتهم.
- وقسم يتعرضون بها للعذاب.
- وقسم تكون في حقهم بمنـزلة المباحات.

الكرامة هي لزوم الاستقامة:

وقد يتطلع كثير من الناس إلى هذا الأمر الخارق، وربما يظل كسير القلب، مُتهِمًا لنفسه إذا لم يحصل له شيء من ذلك، وما درى أن الكرامة في الحقيقة هي لزوم الاستقامة، وأن الله لم يكرم عَبْدًا بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهي طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله.

وأما ما يبتلى به العبد من خرقٍ للعادات فليس لأجل كرامته على ربه، ولا لهوانه عليه، بل قد سعد بها قوم إذ أطاعوه، وشقي بها قوم إذ عصوه. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[(1)].

ويتنوع الكشف والتأثير بتنوع كلمات الله، **وهي نوعان:**

الكلمات الكونية: والكون كله داخل تحتها وهي التي استعاذ بها ﷺ في قوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**»[(2)]. وكشفها: العلم بالحوادث الكونية، وقدرتها: التأثير في الكونيات، إما في نفسه كمشيه على الماء، وطيرانه في الهواء، وإما في غيره بإصحاح وإهلاك، وإغناء وإفقار.

---

(١) الفجر: ١٥-١٦.

(٢) مسلم باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء رقم (٢٧٠٨).

والكلمات الدينية: وهي القرآن والشرائع، وحظ العبد منها: العلم بها، والعمل والأمر بما أمر الله به. فكشفها: العلم بالمأمورات الشرعية، وقدرتها: التأثير في الشرعيات، إما في نفسه بطاعة الله ورسوله، وَإِمَّا في غيره فيطاع في ذلك طاعة شرعية.

فعدم الحوادث عِلْمًا وقدرة، لا يضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات، ولم يسخر له شيء من الكونيات، لا ينقص ذلك من مرتبته عند الله، بل ربما كان عدم ذلك أنفع له، فإن الخارق قد يكون مع الدين، وقد يكون مع عدمه، أو فساده أو نقصه، فالخوارق النافعة تابعة للدين خادمة له، كالرئاسة النافعة والسلطان النافع، فمن جعلها هي المقصودة فهو مشتبه بمن يأكل بالدين، وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب، أو رجاءًا في الجنة، فإن ذلك مأمور به.

وإذا صح الدين عِلْمًا وَعَمَلاً، فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[2]. وقال ﷺ: «**اتقوا فِراسة المؤمن**»[3]. فالاستقامة حظ الرب، والكرامة حظ النفس.

المعتزلة ينكرون الكرامة:

وأنكر المعتزلة الكرامة، وقالوا: لو صحت لأشبهت المعجزة، فيؤدي ذلك إلى التباس النبي بالولي! وقولهم هذا ظاهر البطلان، بل هو بمنـزلة إنكار المحسوسات، ودعوى اللبس إنما تصح إذا كان الولي يأتي بالخارق ويدعي النبوة، وهذا لا يقع، ولو وقع لكان مُتَنَبِّئًا كَذَّابًا.

---

(١) الطلاق: ٢.

(٢) الأنفال: ٢٩.

(٣) الجامع الصغير للسيوطي – سنن الترمذي باب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ من سورة الحجر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

أنـــواع الفِرَاســـة:

الفراسة ثلاثة أنواع:

إيمانية: وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب يثب عليه كوثوب الأسد على الفريسة، وسببها: نور يقذفه الله في قلب عبده. قال ﷺ: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله**»[1].

رياضية: وهي تحصل بالجوع والسهر والتخلي، وهي مشتركة بين المؤمن والكافر، ولا تدل على إيمان ولا على ولاية.

خلقية: وهي التي صنف فيها الأطباء، واستدلوا بالخَلق على الخُلُق، كالاستدلال بصغر الرأس على صغر العقل، وسعة الصدر على سعة الخلق.

(١)ت: تفسير سورة الإسراء، ح ٣١٢٧. تخ: ٣٥٤/ ٧- كلاهما عن أبي سعيد الخدري، وقال الترمذي: غريب.



الأنبياء أوّلاً.. ثم الأولياء

قال المصنف-رحمه الله تعالى-: (ولا نفضل أحدًا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء).

يُشير الشيخ بذلك إلى الرد على الاتحادية وجملة المتصوفة[1]، وإلا فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم والشرع، فقد أوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسل، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ .... ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

قال أبو عثمان النيسابوري: مَنْ أَمَّر السنة على نفسه قولاً وَفِعْلاً نطق بالحكمة، ومن أَمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. وقال بعضهم: ما ترك بعضهم شَيْئًا من السنة إلا لكِبْرٍ في

(١) وكذلك فيه رد على الشيعة الروافض، حيث يعتقدون أن لأئمتهم مقامًا عند الله أعلى من مقام الأنبياء والرسل، وأن أئمتهم أعلم من الأنبياء، وأن لهم مع الله حالات لا يبلغها ملك مقرب ولا نبي مرسل!!

(٢) النساء: ٦٤.

(٣) آل عمران: ٣١.

نفسه. والأمر كما قال: فإنه إن لم يكن مُتَّبِعًا للرسول، كان مُتَّبِعًا لهواه بغير هدى من الله، وهذا غش النفس، وهو من الكبر.

كثير من هؤلاء يظن أنه باجتهاده في العبادة يصل إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع طريقهم، بل قد يظن بعضهم أنه صار أفضل من الأنبياء، وبعضهم زعم أن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم من مشكاة خاتم الأولياء! ويكون ذلك العلم هو وحدة الوجود! وهو حقيقة قول فرعون، وهو أن هذا الوجود المشهود واجب بنفسه، ليس له صانع مباين له، لكن هذا يقول: هو الله، وفرعون أظهر الإنكار بالكلية.

ولكن فرعون كان في الباطن أعرف منهم بالله، فإنه كان مُثْبِتًا للخالق، وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو الوجود الخالق، كابن عربي وأمثاله.

ولما رأى أن الشرع الظاهر لا سبيل إلى تغييره، قال: النبوة ختمت لكن الولاية لم تختم، وادعى من الولاية ما هو أعظم من النبوة حتى قال:

مقـــــام النبـــــوة في بـــــــرزخ ⁂⁂⁂ فُوَيْـــق الرســـــول ودون الــــولي

وهذا قلب للشريعة، فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين. قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾(١). والنبوة أخص من الولاية، والرسالة أخص من النبوة.

ولقد ضرب ابن عربي لنفسه المثل بلبنة من ذهب، وللرسول المثل بلبنة من فضة، فجعل بذلك نفسه أعلى وأفضل من الرسول(٢)، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾(٣)، ﴿إِن فِى

---

(١) يونس: ٦٢-٦٣.

(٢) يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «من رفع رجلاً في رتبة النبي ﷺ كفر وحل ماله ودمه، ولا تنفعه الشهادتان، ولا الصلاة» اهـ.

(٣) البقرة: ١١١.

صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾[1]. وإن كفر ابن عربي وأمثاله فوق كفر القائلين: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾[2].

ولكن ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة، والاتحادية في الدَّرك الأسفل من النار، والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين لإظهارهم الإسلام، لكن لو ظهر من أحدهم ما يُبْطنه من الكفر، لأُجري عليه حكم المرتد، وفي قبول توبته خلاف، والصحيح عدم قبولها، وهي رواية معلى عن أبي حنيفة رحمه الله.

---

(١) غافر: ٥٦.

(٢) الأنعام: ١٢٤.



دور العقل مع النقل وفساد منهج المتكلمين

قال المصنف -رحمه الله تعالى-(ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام).

أي: لا يثبت إسلام من لم يسلِّم لنصوص الوحيين ويَنْقَدْ إليها، ولا يعارضها برأيه وَمَعْقُوله وقياسه(١).

روى البخاري عن الزُّهْري: من الله الرسالة، ومن الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

مثل العقل مع النقل:

وإن مثل العقل مع النقل كمثل العامي المقلد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك، فإن العامي قد يصير عالماً، ولا يمكن للعالم أن يصير نبيًّا رسولاً. فإذا عرف العامي المقلد عالمًا

(١) قال عبادة بن الصامت لمعاوية – وكان له إمرة عليه -: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن رأيك! لئن أخرجني الله لا أساكنك بأرض لك عليَّ فيها إمْرة.

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تمنعوا إماء الله أن يصلين في المسجد**» فقال ابن له: إنا لنمنعهن! فقال: فغضب غضبًا شديدًا، وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتقول: إنا لنمنعهن؟!! فكيف بمن يعارض قول النبيﷺ – كما هو حال كثير من الناس في هذا الزمان – بقول أناس هم أقل شأنًا ومكانة ودينًا من أبي بكر وعمر؟!

فدل عليه عاميًا آخر، ثم اختلف المفتى والدال، فإن المستفتي يجب عليه أن ينقل قول المفتي دون الدال.

ولا يصح أن يقول الدال: الصَّواب معي، لأني أنا الأصل في علمك بأنه مفت، فإذا قدمت قوله فقد قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفت! ولأنه لما شهد له بأنه مفت، فقد شهد له بوجوب اتباعه دونه، وخطؤه في مخالفتِه للمفتي لا يستلزم خطأه في علمه بأنه مفت، كما أن علمه بأنه مفت لا يعني علمه بكل مسألة. هذا مع العلم بأن ذلك المفتي قد يُخطئ، والعقل يعلم أن الرسول معصوم، فيجب عليه التسليم له.

ولو قال رجل لرسول الله ﷺ: إن هذا القرآن قد تضمن أشياء تناقض العقل الذي ما علمنا صدقك إلا به، فلو قبلناه لقدحنا فيما عَلمْنَا به صدقك، وإذًا فنحن نعرض عن قولك إلى ما قضى به العقل، فإن مثل هذا الرجل لا يكون مؤمنًا بما جاء به الرسول ﷺ؛ لأنه بهذا يفتح الباب واسعًا لرد كثير مما جاء به الرَّسُول ﷺ، ويمكن لكل واحد أن يقول هذا في جميع ما أخبر به الرَّسُول ﷺ أو أمر به، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[3].

(١) المائدة: ١٥.

(٢) النحل: ٨٩.

(٣) إبراهيم: ٤.

القول على الله بغير علم:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (فمن رام علم ما حظر عنه علمُه، ولم يقنع بالتسليم فهمُه، حجبه مرامُه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان).

هذا زيادة تحذير أن يتكلم في أصول الدين- بل وفي غيرها- بغير علم.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[(1)]. وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(2)].

عن أبي أمامة الباهلي قال: قال ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾[(3)]**»[(4)]. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن. وعن عائشة قالت: قال ﷺ: «**إن أبغض الرِّجَال إلى الله الأَلَدُّ الخَصْم**». متفق عليه.

فمن لم يسلم لرسول الله ﷺ، نقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول ﷺ، فإنه إذ يقول برأيه وهواه، أو يقلد ذا رأي وهوى بغير هدى من الله، يكون قد اتخذه في ذلك: إلَهًا غير الله[(5)].

---

(1) الحج: ٨.

(2) القصص: ٥٠.

(3) الزخرف: ٥٨.

(٤) ت: تفسير سورة الزخرف، ح ٣٢٥٣. ق: المقدمة، ب ٧، ح ٤٨- كلاهما عن أبي أمامة. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) اعلم أن اتباع الهوى وطاعته، على نوعين: **أولاً**: نوع يكون كفرًا، وذلك حين يكون الهوى هو المعبود والمطاع من دون الله، حيث يؤدي بصاحبه إلى ممارسة الكفر وفعله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطًا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وقوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ

أصل فساد العالم:

وإنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق:

الملوك الجائرة الذين يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة، ويقدمونها على حكم الله ورسوله، ويقولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة.

وأحبار السوء، وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم الفاسدة في تحليل الحرام وتحريم الحلال، ويقولون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل(1).

والرهبان، وهم جهال المتصوفة المعترضون على حقائق الشرع بالأذواق والكشوفات والمواجيد، التي تتضمن شرع ما لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي جاء به رسوله ﷺ ويقولون: إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف.

قال عبد الله بن المبارك:

رأيــت الــذنوب تميــت القلــوب * وقـــد يـــورث الـــذل إدمانهـــا**

لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾، وقوله: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾، فالهوى الوارد في هذه الآيات يراد به الكفر الأكبر. **ثانياً:** ونوع يكون فسقًا ومعصية دون الكفر، وذلك حين يطاع عن ضعف في معصية لا تخرج صاحبها من الملة، كارتكاب الزنى، وشرب الخمر وغير ذلك من المعاصي التي هي دون الكفر الأكبر، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: نهاها عن المحارم التي تشتهيها. ومنه يعلم أن صاحب الهوى ليس كافرًا على الإطلاق، فأحيانًا يكون كافرًا، وأحيانًا يكون فاسقًا عاصيًا، بحسب الهوى المتبع، وفيما قد اتبع.

(1) يجعلون من أنفسهم أربابًا على الناس، يعبِّدونهم لشرائعهم وآرائهم وأهوائهم الباطلة، مدعين لأنفسهم حق الطاعة من دون الله، كما قال تعالى فيهم وفي أتباعهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، فإنه لما سمع عديّ بن حاتم هذه الآية والنبي يتلوها قال: إنا لسنا نعبدهم، فقال: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟**» قال: بلى، قال: «**فتلك عبادتهم**». انظر: تفسير البغويّ وغيره، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب.

وتـــرك الـــذنوب حيـــاة القلـــوب *** وخـــــير لنفســـــك عصـــــيانها
وهـــل أفســـد الـــدين إلا الملـــوك *** وأحبـــــار ســـــوء ورهبانهـــــا

علم الكلام عند أبي حامد الغزالي:

ساق أبو حامد في الإحياء، الخلاف في علم الجدل والكلام، وبين أن للناس فيه غلوًا وإسرافًا، في أطراف:

فذهب إلى تحريمه الشافعي، ومالك، وأحمد بن حنبل، وسفيان، وجميع أئمة الحديث من السلف، حتى قال بعضهم: لأن يلقى العبد ربه بكل ذنب سوى الشرك خير من أن يلقاه بالكلام.

وذكر من حجتهم: سكوت الصحابة عنه مع أنهم أعرف وأفصح، وما ذاك إلا لما يتولد عنه من الشر. وقوله ﷺ: «**هلك المتنطعون**»[1] أي: المتعمقون في البحث والاستقصاء. وأنه لو كان من الدين لأمر به الرسول ﷺ، وبينه وأثنى على أهله.

وذهب آخرون إلى أنه فرض، إما على الكفاية، وإما على الأعيان.

ثم بين رأيه، فذكر أن فيه منفعة وفيه مضرة. ففي وقت الانتفاع: حلال، أو مندوب، أو واجب. وفي وقت الاستضرار ومحله: حرام.

وبيّن أن من ضرره في جانب الحق إثارة الشبهات، وتحريك العقائد، وإزالتها عن الجزم والتصميم. وأما في جانب البدعة ففي تأكيد اعتقادها وتثبيتها في الصدور، وإن كان هذا الضرر ينبعث من التعصب الذي يثور من الجدل. وبين أنه قد يقال: إن من منفعته كشف الحقائق ومعرفتها. قال: وليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخليط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف.

(١) صحيح مسلم باب هلك المتنطعون رقم (٢٦٧٠).

وذكر أن كلامه هذا كلام رجل خبر الكلام وتعمق فيه، ثم بين أن ما يترتب على الكلام من إيضاح لبعض الأمور، فإن ذلك على وجه الندور، والسلف لم يكرهوا الكلام لمجرد كونه اصطلاحًا جديدًا على معانٍ صحيحة، ولا كرهوا الدلالة على الحق، والمحاجة لأهل الباطل، بل لاشتمالِهِ على أمور كاذبة، مخالفة للكتاب والسنة، فأهله يزعمون أنهم يدفعون به الشبه وَالشُّكُوك، وما زادت الشكوك والشبه إلا به! لأنه من المحال ألا يحصل الشفاء والهدى من الكتاب والسنة ويحصل من كلام هؤلاء.

فساد منهج المتكلمين:

فالواجب أن يجعل كلام الله ورسوله هو الأصل، ويجعل أقوال الناس التي توافقه وتخالفه مجملة متشابهة، يقبل منها ما وافق خبر الرسول ﷺ، ويرد مِنْهَا ما خالفه. فألفاظ: المركب،والجسم، والجوهر، والعرض، والجهة، والتحيز، قصد بها أهل هذا الاصطلاح معاني لم يعبر غيرهم عنها بها. فالتركيب مثلاً صار له عدة معانٍ، من بينها: التركيب من الذات والصفات، وقد سموا هذا تركيبًا لينفوا به صفات الرب تعالى!

وهذا اصطلاح منهم لا يعرف في اللغة ولا في كلام الشارع فيرد عليهم، ويقال: أليس العبرة بالمعاني لا بالألفاظ؟ فلو اصطلح على تسمية اللبن خمرًا لم يحرم بهذه التسمية.

وسبب الضلال: الإعراض عن كلام الله ورسوله، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة؛ وإنما سمي هؤلاء أهل الكلام لأنهم لم يفيدوا علمًا لم يكن معروفًا، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما علم بالحس.

فكل من قال برأيهم مع وجود النص، أو عارض النص بالمعقول فقد ضاهى إبليس حيث لم يسلم لما أمر به، بل قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ

(١) ص: ٧٦.

تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[2] [3].

الشك والحيرة لمن عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوسًا تائهًا شاكًا، لا مؤمنًا مصدقًا ولا جاحدًا مكذبًا).

يتذبذب: يضطرب ويتردد. هذا حال من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم، وأراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة، وعند التعارض يتأول النص، ويرده إلى الآراء المختلفة، فيؤول أمرُه إلى الشك والحيرة.

عدول أئمة المتكلمين إلى سنة سيد المرسلين:

فابن رشد الحفيد يقول في «تهافت التهافت»: ومن ذا الذي قال في الإلهيات شيئًا يعتد

(١) آل عمران: ٣١.

(٢) النساء: ٦٥

(٣) قال ابن القيم في كتابه التبيان في علوم القرآن: «أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسمًا مؤكدًا بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكِّموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع..، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح، وتقبله كل القبول، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أصلاً حتى ينضاف إليه مقابل حكمه بالرضا والتسليم وعدم المنازع وانتفاء المعارضة والاعتراض».

به والآمدي وقف في المسائل الكبار حائرًا، والغزالي ينتهي أمره إلى التوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم يقبل على السنة فيموت وصحيح البخاري على صدره!!

والرازي يقول: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، إلى أن قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. وهو القائل:

نهايــة إقــدام العقــول عــقالُ * وغايــة ســعي العــالمين ضــلالُ**

ولم نسـتفد مـن بحثنـا طـول عمرنـا * سـوى أن جمعنـا فيـه قيـل وقـالوا**

والجويني ينهى أصحابه عن الاشتغال بالكلام، ويقول عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نَهَوْنِي عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لابن الجويني! وهأنذا أموت على عقيدة أمي! أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور.

وقال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق.

وقال الشافعي: حُكْمِي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام. وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننتُ مسلمًا يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه- ما خلا الشرك بالله- خير له من أن يبتلى بالكلام.

وقال آخر: أضطجع على فراشي، وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي شيء.

والدواء النافع لمثل هذا المرض هو التوجه إلى الله بطلب الهداية؛ إذ حياة القلب بالهداية، فقد كانﷺ إذا قام من الليل يفتتح الصلاة بهذا الدعاء: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل**

وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1] (أخرجه مسلم).

فهو يتوجه إلى ربه بربوبيته لجبرائيل وميكائيل وإسرافيل، بطلب الهداية التي بها حياة القلب، وقد وكل سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة:

- فجبرائيل بالوحي الذي به حياة القلوب.
- وميكائيل بالقطر الذي به حياة الأبدان وسائر الحيوان.
- وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب الحياة الثانية بعد الموت.

فالتوسل إلى الله بربوبيته لهم له أعظم الأثر في حصول المطلوب.

---

(١) قال الشيخ حافظ حكمي في كتابه «اعتقاد الطائفة الناجية المنصورة»: الصراط المستقيم هو دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، ولم يقبل من أحد سواه، ولا ينجو إلا من سلكه، ومن سلك غيره تشعبت عليه الطرق، وتفرقت به السبل.

وقد خط النبي ﷺ خطًا ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيماً**»، وخطَّ خطوطًا عن يمينه وشماله، ثم قال: «**هذه السبل ليس منه سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾. وقال ﷺ: «**ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيًما، وعلى جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط المستقيم جميعًا ولا تفرقوا، وداعٍ يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم**». رواه أحمد، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. ا-هـ.

التفويض إلى الله فيما اشتبه علينا علمه:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونقول: الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه).

لا يسْلَم في دينه إلا من سلم لله ورسوله، وردَّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه، فكل من تكلم بغير علم فإنما يتبع هواه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[(1)]. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[(2)].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[(3)]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[(4)]. وقد أمر الله نبيه أن يرد علم ما لم يعلم إليه، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(5)]، وقال تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾[(6)].

---

(١) القصص: ٥٠.
(٢) الحج: ٣-٤.
(٣) غافر: ٣٥.
(٤) الأعراف: ٣٣.
(٥) الكهف: ٢٦.
(٦) الكهف: ٢٢.

وعندما سئل عن أطفال المشركين قال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[1].

وقال عمر رضي الله عنه: يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله لرددته.

وقال أيضًا: السنة ما سَنَّه الله ورسوله، لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة.

وقال أبو بكر رضي الله عنه: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في آية من كتاب الله برأيي، أو بما لا أعلم.

(١)خ: الجنائز، ب ٩١، ح ١٣١٧ و ١٣١٨، والقدر، ب ٢، ح ٦٢٢٤- ٦٢٢٦. م: القدر، ب ٦، ح ٢٣- ٢٨. د: السنة، ب ٥، ح ٢١٣٨. ق: الجنائز: ب ٦٠، ح ١٩٩٤، ١٩٥١- عن أبي هريرة وابن عباس.



حجيــة أخبـــار الآحـــاد

قال المصنف- رحمه الله-: (وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق).

فقد أشار به إلى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والرافضة الذين أحالوا الناس إلى ما سموه بالقواطع العقلية وقدموها على نصوص الوحي، وعزلوا لأجلها نصوص الكتاب والسنة. فقد قالوا: إن الأخبار قسمان:

المتواتر: وهو وإن كان قطعي السند فهو غير قطعي الدلالة؛ لأن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين.

والآحاد: وهي لا تفيد العلم فلا يحتج بها من جهة طَرِيقهَا ولا من جهة متنها. وهكذا أقفرت قلوبهم من الاهتداء بالنصوص، ولم يَظْفَرُوا بالعقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة، بل كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته وما ظنَّه معقولاً، فما وافقه قال: إنه محكم وقبله، واحتج به، وما خالفه قال: إنه متشابه، ثم رده وسمى الرد تَفْوِيضًا، أو حرفة وسمى التحريف تَأْوِيلاً.

أما طريقة أهل السنة فهي الاستمساك بالنصوص وعدم معارضتها لا بالمعقولات، ولا بأقوال الرجال، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1].

(١) الأحزاب: ٣٦.

قال البخاري رحمه الله: سمعت الحميدي يقول: كنا عند الشافعي رحمه الله فأتاه رجل فسأله عن مسألة فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال رجل للشافعي: ما تقول أنت؟ قال: سبحان الله! تراني في كنيسة! تراني في بيعة! تراني على وسطي زنار؟! أقول لك: قضى رسول الله ﷺ وأنت تقول: ما تقول أنت؟ ونظائر ذلك في كلام السلف كثير.

وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول عملاً وتصديقًا، فهو يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة، وهو أحد قسمي التواتر، ولم يكن بين السلف في ذلك نزاع.

كخبر عمر: «**إنما الأعمال بالنيات**»، وخبر أبي هريرة: «**لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها**»، وكخبر من أتى مسجد قباء، وأخبر أن القبلة تحولت إلى الكعبة، فاستداروا إليها[1].

وقد كان رسول الله ﷺ يرسل رسله آحادًا، ويرسل كتبه مع الآحاد، وما قال أحد من المرسَلِ إليهم لا نقبله لأنه خبر واحد، وقد قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[2]. فلا بد من أن يحفظ الله حججه وبيناته على خلقه لئلا تبطل.

ولهذا فضح الله من كذب على رسوله في حياته وبعد وفاته، وبيَّن حاله للناس.

قال سفيان بن عيينة: ما ستر الله أَحَدًا يكذب في الحديث. وقال عبد الله بن المبارك: لو هم رجل في البحر أن يكذب في الحديث لأصبح والناس يقولون: فلان كذاب.

---

(١) وحديث معاذ -لما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن ليبلغ أهلها التوحيد- فيه دليل على حجية خبر الواحد في العقائد، ولو لزم لتبليغ العقائد شرط التواتر -كما يزعم بعضهم - لأمر النبي ﷺ أصحابه أن يبلغوا عنه التوحيد والعقائد وهم جماعات، ولما لم يحصل هذا وحصل خلافه، عُلِم أنه شرط باطل لا أصل له في ديننا.

(٢) التوبة: ٣٣.

وخبر الواحد، وإن كان يحتمل الصدق والكذب، ولكن التفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها لا يناله أحد إلا بعد أن يكون قد قضى معظم وقته مشتغلاً بالحديث، والبحث عن سير الرواة؛ ليقف على أحوالهم، وشدة حذرهم من الطغيان والزلل، فقد كانوا بحيث لو قتلوا لا يسامحون أحدًا في كلمة يقولها على رسول الله ﷺ، فضلاً عن أن يفعلوا ذلك بأنفسهم!

فمن وقف على هذا من شأنهم، وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم، ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه، ذلك أن عندهم من العلم بأحوال نبيهم وسيرته وأخباره، ما ليس لغيرهم به شعور، فَضْلاً عن أن يكون مَعْلُومًا أو مظنوناًا فهم نقَّاد الأخبار، وصيارفة الحديث.

ولكن النفاة جعلوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] مستندًا لهم في رد الأحاديث الصحيحة، ففهموا من أخبار الصفات أن إثباتها يقتضي التمثيل بها للمخلوقين، وهو ما لم يقل به أحد، ثم استدلوا على بطلان ذلك بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ تَحْرِيفًا للنصَّين، ويصنفون في ذلك الكتب، ويقولون: هذه أصول دين الإسلام الذي أمر الله به. ويقرأون كَثِيرًا من القُرْآن، ويفوضون معناه إلى الله تعالى، غير متدبرين لبيان الرسول ﷺ لذلك.

وقد ذم الله أهل الكتاب الأول على نسبة ما كتبوه بأيديهم إلى الله، وعلى اكتسابهم بذلك، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[2]، وَالأَمَانِي هي التلاوة المجردة. ثم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ

(١) الشورى: ١١.

(٢) البقرة: ٧٨.

يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[1].

السنة نوعان:

ويشير رحمه الله بقوله: (من الشرع والبيان) إلى أن ما صح عن رسول الله ﷺ، نوعان:

- شرع ابتدائي.
- بيان لما شرعه الله في كتابه. وكل ذلك حق واجب الاتباع.

(1) البقرة: ٧٩.

أسئلة التقويم الذاتي

س١: توحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية، دون العكس. وضح ذلك مع الاستدلال.

س٢: ما مراتب الشهادة بكلمة التوحيد؟ وكيف بيّن الله تعالى هذه الشهادة؟

س٣: **ضع علامة (✓) أو (×) أمام العبارات الآتية:**

١- المشركون الأوائل كانوا يسلمون بالألوهية، وينازعون في الربوبية. ( )

٢- توحيد الربوبية متضمن لتوحيد الإلهية، دون العكس. ( )

٣- يصح تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أنواع: توحيد عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة. ( )

٤- يستدل خواص المؤمنين بأسماء الله وصفاته على أفعاله. ( )

٥- خرق العادة دليل كرامة العبد على ربه. ( )

٦- إذا صح الدين علمًا وعملاً، فلابد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ( )

٧- ذلك صاحبه. ( )

٨- الكشف المتعلق بكلمات الله الشرعية هو العلم بالحوادث الكونية. ( )

٩- الفراسة الإيمانية تحصل بالجوع والسهر والتخلي. ( )

س٤: إجابة الله لدعاء العباد من جنس ربوبيته لهم. اشرح هذه العبارة موضحًا صور إجابة الله تعالى للدعاء؟

س٥: **كيف ترد على الشبهات الآتية:**

- إذا اقتضت المشيئة المطلوب، فلا حاجة إلى الدعاء.

- الداعي أثَّر فى ربه حتى أعطاه سؤله.
- قد يسأل العبد فلا يُعطى، أو يُعطى غير ما سأل، مما ينافي استجابة الدعاء التي وعد الله تعالى بها.
- الأخذ بالأسباب قدح فى التوكل.

س٦: متى يكون الاستشفاع بالنبي ﷺ فى الدعاء ممنوعاً، ومتى يكون مشروعًا؟

س٧: اذكر أدلة الكتاب والسنة على حرمة صناعة التنجيم، والكهانة، والسحر، ثم وضح أحكام أهل العلم في أصحاب هذه الصناعات؟

س٨: وضح معنى الولاية، ومراتبها، والفرق بين ولاية الله تعالى لعباده، وبين ولاية المخلوق لغيره؟

س٩: التفاضل بين الناس يكون على أساس التقوى والدين. اشرح ذلك مبينًا فساد المعايير الأخرى للتفاضل؟

س١٠: قد يجتمع فى المؤمن ما يستلزم موالاته من وجه، ومعاداته من وجه. وضح ذلك، مع بيان منـزلة الحب والبغض في الله؟

س١١: ما الفرق بين المعجزة والكرامة؟ وما أنواع الأمور الخارقة للعادة؟ وكيف يتنوع الكشف والتأثير بتنوع كلمات الله؟

س١٢: من شروط ولوازم الإيمان: الانقياد والتسليم لأمر النبي ﷺ دون معارضة أو تعقيب. اشرح ذلك مع ذكر الأدلة؟

س١٣: ما موقف أهل السنة من خبر الآحاد الصحيح؟ وكيف ترد على منكري حجية أخبار الآحاد فى العقائد؟

الفصل الثالث

توحيد الأسماء والصفات

- **المبحث الأول:** قواعد كلية في باب الصفات.
- **المبحث الثاني:** كلام الله.
- **المبحث الثالث:** استغناؤه عن خلقه، وإحاطته بهم، وعلوه عليهم.
- **المبحث الرابع:** رؤية الله تعالى والرد على دعاة التأويل.
- **المبحث الخامس:** علم الله تعالى وقدرته.
- **المبحث السادس:** هو الأول والآخر.
- **المبحث السابع:** الحي القيوم.
- **المبحث الثامن:** العرش والكرسي.
- **المبحث التاسع:** الغضب والرضا.
- **المبحث العاشر:** الخلة والمحبة.
- **المبحث الحادي عشر:** تنزيه الله عز وجل عن الظلم.
- **المبحث الثاني عشر:** تنزيه الله عز وجل عن رجل الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات.



يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذا الفصـل أن تكون ملماً بما يلي:

(١) **بعض القواعد الكلية فى باب الصفات:**

أ- نفي التشبيه وبطلان التعطيل.

ب- أزلية صفات الله تعالى.

(٢) **مسألة كلام الله عز وجل.**

(٣) **استغناؤه عن خلقه، وإحاطته بهم، وعلوه عليهم.**

(٤) **مسألة رؤية الله تعالى.**

(٥) **علم الله وقدرته.**

(٦) **من أسمائه تعالى: الأول والآخر.**

(٧) **ومن أسمائه تعالى: الحي القيوم.**

(٨) **العرش والكرسي.**

(٩) **وصف الله عز وجل بالرضا والغضب.**

(١٠) **ثبوت صفة الخلة لله عز وجل.**

(١١) **تنـزيه الله عن الظلم.**

(١٢) **تنـزيه الله عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات.**



قواعد كلية في باب الصفات

القاعدة الأولى: نفي التشبيه وبطلان التعطيل:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ولا شيء مثله).

اتفق أهل السنة والجماعة على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. ولنفي التشبيه معنيان:

أحدهما: وهو الصحيح: أن خصائص الرب لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته. فمن جعل صفات الخالق كصفات المخلوق، فهو المشبه المبطل، ومن جعل صفات المخلوق كصفات الخالق فقد ضاهى النصارى في كفرهم.

والثاني: أن يراد به ألا يثبت لله شيئًا من الصفات، فلا يقال: ليست له قدرة، ولا علم، ولا حياة، لاتصاف العبد بها، وهذا غاية في التعطيل والفساد.

النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ومن لم يَتَوَقَّ النفي والتشبيه زلّ ولم يصب التنـزيه).

وأمراض القلوب نوعان:

مرض الشهوة:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[1].

ومرض الشبهة:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[2].

ومرض الشبهة أردأ من مرض الشهوة؛ لأن مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، وأما مرض الشبهة فلا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته. والشبه التي في باب الصفات نفيها وتشبيهها، وشبهة النفي أردأ؛ لأنها رد وتكذيب لما جاء به الرسول ﷺ، وشبه التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول ﷺ، وكلاهما كفر، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3].

دين الإسلام وسط بين التشبيه والتعطيل:

فدين الإسلام بين التشبيه والتعطيل، وما أحسنَ المثل المضروب للمثبت للصفات من

(١) الأحزاب: ٣٢.

(٢) البقرة: ١٠.

(٣) الشورى: ١١.

غير تشبيه، ولا تعطيل، باللبن الخالص السائغ للشاربين، يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه. فالمعطل يعبد عدمًا، والمشبه يعبد صنمًا، وليس في ما وصف الله به نفسه ولا وصفه به رسوله تشبيه.

فيجب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله، من غير تشبيه، فلا يقال: سمع كسمعنا، ولا بصر كبصرنا ونحوه، ومن غيرتعطيل، فلا يُنفى عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، فإن ذلك تعطيل، وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فهو رد على المشبهة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على المعطلة، فهو موصوف بصفات الكمال وليس له فيها شبه؛ فالمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير، فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره، ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه؛ إذ صفات الخالق كما يليق به وصفات المخلوق كما يليق به، ولا ننفي عن الله شيئًا مما وصف به نفسه، أو وصفته به رسله، فإن من نفى شيئًا من ذلك فقد كفر بما أُنزل على محمد[1]، كما أن من شبهة بخلقه كان كافرًا به.

قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما

(١) التكفير هنا ليس على إطلاقه فإنه لا بد من التفريق بين نفي ونفي، فالنفي الذي يكون مؤداه إلى نسب الضعف والعجز أو النقص لله عز وجل، كنفي العلم والقدرة، والحياة، وأنه سميع بصير وغير ذلك، فهذا النفي كفر وصاحبه كافر خارج من الملة وإن ادعى أن نفيه ناتج عن تأويل! أما من نفى صفة من صفات الله الفعلية وصرفها عن ظاهرها متأولاً، كالنـزول والمجيء، والإتيان، والاستواء وغير ذلك مما لا يستفاد من نفسه نسبة العجز أو النقص لله عز وجل، فهذا التأويل وإن كان خطأ لا يجوز الإقدام عليه، إلا أنه لا يبلغ بصاحبه إلى حد الكفر الأكبر المخرج من الملة، وتكفير من كانت هذه صفته يستلزم تكفير كثير من علماء الأمة المشهود لهم بالخير والفضل، الذين أخطأوا في هذا الأمر.

ثم إن الأشاعرة قد عرفوا بتأولهم ونفيهم لكثير من صفات الله الفعلية، ومع ذلك لا نعرف أحدًا من أهل العلم قال بكفرهم، وإخراجهم من الملة.

وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس في ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيهًا.

وله المثل الأعلى في السماوات والأرض:

وصف الله نفسه بأن له المثل الأعلى: وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر وأكمل كان الموصوف بها أعلى وأكمل من غيره، وجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص لأعدائه. قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1]، فمن سلب صفات الكمال عن الله عز وجل فقد جعل له مثل السوء، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى.

وقد اختلفت عبارات المفسرين في المثل الأعلى، ووفَّق البعض بينها؛ فقال: المثل الأعلى: يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي، والخبر عنها وذكرها وعبادة الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه.

فههنا أمور أربعة:

- ثبوت الصفات العليا له عز وجل سواء أعلمها العباد أم لا.
- وجودها في العلم والشعور، أي: ما في قلوب عابديه من محبته وتعظيمه.
- ذكر صفاته وتَنَزُّهها عن العيوب والنقائص.
- محبة الموصوف بها وتوحيده.

(١) النحل: ٦٠.

بطلان التشبيه:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر، من أبصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر، علم أنه بصفاته ليس كالبشر).

نبه الشيخ بذلك إلى أنه تعالى بصفاته ليس كالبشر، نفيًا للتشبيه، فإن الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

والتشبيه نوعـــــان:

تشبيه الخالق بالمخلوق:

وهو الذي يتعب أهل الكلام في رده وإبطاله، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني.

تشبيه المخلوق بالخالق:

كعبَّاد الشمس والقمر والأصنام، وكعباد المشايخ والملائكة وعزير... إلخ[2]، وهم الذين أرسلت الرسل لدعوتهم إلى عبادة الله وحده.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام).

---

(١) الشورى: ١١.

(٢) وفي هذا النوع رد على من يشبه المخلوق بالخالق؛ إذ ينسب إليه من خصائص الإلهية ما لا يستحقه إلا الله تعالى، فيشرك معه في العبودية ؛ وذلك مثل طاعة هذا المخلوق لذاته، وتقديم أمره وحكمه على أمر الله وحكمه، وعقد الولاء والبراء عليه، وغير ذلك من الخصائص التي تعتبر من ضروب تشبيه المخلوق بالخالق في أخص خصائصه، وهذا النوع من الشرك رغم استفحاله وانتشاره بين الناس قلَّ من ينتبه أو يشير إليه في هذا الباب.

توهمت الشيء ظننته، وفهمت الشيء علمته. والمعنى لا ينتهي إليه وهم، ولا يحيط به علم، فلا يعلم كيف الله إلا الله، وإنما نعرفه سبحانه بصفاته وأسمائه. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [(١)].

الرَّد على المشبهة:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ولا يشبه الأنام).

هذا رد لقول المشبهة وليس نفيًا للصفات كما يقول أهل البدع. قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [(٢)] وقال أبو حنيفة: لا يشبه شيئًا من خلقه، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا. وقال إسحاق بن راهويه: من وصف الله بشيء فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله، فهو كافر بالله العظيم.

وعلامة الجهمية وأتباعهم، أنهم يسمون أهل السنة -لإثباتهم الصفات- مشبهة، وما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات، إلا يسمي المثبت لها مشبهًا؛ ولهذا فإن كتب نفاة الصفات من الجهمية، والمعتزلة، والرافضة، ونحوهم، كلها مشحونة بتسمية مثبتي الصفات مجسمة ومشبهة، وقد غلب هذا الاستعمال عند المتأخرين من غالب الطوائف، فأصبح نفي التشبيه عندهم يساوي نفي الصفات، ولكن المراد به عند أهل السنة أنه تعالى لا يشبه المخلوق في أسمائه، وصفاته، وأفعاله. قال نعيم بن حماد: من

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) الشورى: ١١.

شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر. وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه. والعجيب أن غلاة نفاة الصفات يقولون: إن أصل الفلسفة هي التشبيه بالإله على قدر الطاقة. وقد يوافقهم البعض على ذلك مستدلاً بحديث: «**تخلَّقوا بأخلاق الله**»(1) وهو حديث مكذوب، فإذا كان هؤلاء ينفون الصفات، فبأي شيء يتخلق العبد على زعمهم. وكما أن الله عز وجل لا يشبه شيئًا من مخلوقاته، فإنه لا يشبهه شيء من مخلوقاته، وقد خالف في هذا النصارى والحلولية والاتحادية.

بطلان التعطيل:

لقد أدخل نفاة الصفات، نفي الصفات في مسمى التوحيد، كالجهم بن صفوان، ومن وافقه؛ لأن إثبات الصفات في زعمهم يستلزم تعدد الواجب! وهو غاية التعطيل والفساد؛ لأن إثبات ذات مجردة من جميع الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج، وقد أفضى هذا القول بقوم إلى الحلول والاتحاد.

ولقد أخذ المعطلة نفي المماثلة وانتهوا به إلى تعطيل سائر الصفات، فأحسنوا في التنـزيه، وأساءوا في التعطيل، ويرد عليهم من وجوه:

إن الله قد سمى نفسه بأسماء، وسمى بعض عباده بها، وكذلك بالنسبة لصفاته، وليس المسمَّى كالمسمِّي، ولا يلزم من إثبات هذه الصفات مساواة الخالق بالمخلوق. فالله هو الحي، وقد قال في مخلوقاته: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾(2)، وهو السميع البصير، وقد قال في

(1) لم أجده في كتب السنة، وإنما ذكره بعض الصوفية في بعض كتبهم كأشرف علي التهانوي في كتابه: (أعمال قرآني في ذكر أسرار أسماء رباني)، وقال الشيخ الألباني في تخريج الشرح: لا نعرف له أصلاً في كتب السنة إلخ.. الطبعة السادسة.

(2) الروم: ١٩.

الإنسان: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[1]، وهو الملك وقال: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[2].

ثم إن هؤلاء النفاة يحتج عليهم بما أثبتوه من الصفات، كالعلم والقدرة والحياة، فما كان جوابًا لهم عن إثبات هذه الصفات يصلح جوابًا لأهل السنة عما نفاه هؤلاء منها، فيقال لأحدهم: قل فيما نفيت من الصفات مقالك فيما أثبت منها.

أصل خطأ المعطلة والرد عليهم:

وأصل خطئهم في هذه المسألة توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية، يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتًا في هذا المعين وهذا المعين.

وليس كذلك، فإن ما يوجد في الخارج لا يكون إلا معينًا مختصًا، فهذه الأسماء إذا سمي بها كان معناها مختصًا به، وإذا سمي بها العبد كان مسماها مختصًا به، فالقدر المشترك هو المشابهة في أصل المعنى فقط.

ذلك أن المخاطب لا يفهم المعاني المعبر عنها اللفظ إلا إذا عرف عينها، أو ما يناسب عينها، ويكون بينهما قدر مشترك ومشابهة في أصل المعنى، فالمراتب التي لا بد منها في كل خطاب ثلاث:

- **إدراك الإنسان للمعاني الحسية المشاهدة.**
- **تعقله لمعانيها الكلية.**
- **تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعاني الحسية والعقلية.**

فإذا أخبرنا الشارع عن الأمور الغائبة، فلا بد من تعريفها بالمعاني المشتركة بينها وبين الحقائق المشهورة، والاشتباه الذي بينهما، وذلك بتعريفنا الأمور المشهورة، ثم ينص على

(١) الإنسان: ٢.

(٢) الكهف: ٧٩.

الفارق عند انتفاء المماثلة، وإذا تقرر انتفاء المماثلة، كانت الإضافة وحدها كافية في بيان الفارق، وانتفاء التساوي لا يمنع من وجود القدر المشترك الذي هو مدلول اللفظ المشترك ما أمكن ذلك قط.

وجماع القول: أن **المشبهة** أخذوا معنى إثبات الصفات وزادوا فيه على الحق فضلوا، فهم قد أحسنوا في إثبات الصفات، وأساءوا بزيادة التشبيه.

وأما **المعطلة** فقد أخذوا نفي المماثلة وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا، فأحسنوا في تنـزيه الله عن أن يشبه شيئًا من خلقه، وأساءوا في نفي المعاني الثابتة في نفس الأمر.

وأما كتاب الله، فقد جاء بالحق المعتدل الذي لا انحراف فيه. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

(1) الشورى: ١١.

القاعدة الثانية: أزلية صفات الله:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه، لم يزدَدْ بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفته، كما كان بصفاته أزليًا، كذلك لا يزال عليها أبديًّا).

أي: أن الله عز وجل لم يزل متصفًا بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفًا بها؛ لأن صفاته صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفًا بضده.

ولا يرد على هذا صفات الفعل، والصفات الاختيارية، كالخلق، والتصوير، والإحياء، والإماتة، والمجيء، والنـزول، وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت، كما في حديث الشفاعة: «**إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**»(١)؛ لأن الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، كمن تكلم اليوم، وكان بالأمس ساكتًا لغير آفة، لا يقال: إنه حدث له الكلام، بل هو في حالة سكوته متكلم بالقوة، وفي حالة تكلمه هو متكلم بالفعل.

معنى حلول الحوادث بذاته تعالى وحكمه:

لم يرد بنفي حلول الحوادث في الرب تعالى، ولا بإثباته كتاب ولا سنة، وفيه إجمال: فإن أريد به نفي الصفات الاختيارية فهو باطل، وإن أريد به أنه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، ولا يحدث له وصف متجدد بعد أن لم يكن فهو صحيح.

---

(١) خ: الأنبياء، ب ٥، ح ٣١٦٢، وتفسير سورة الإسراء، ح ٤٤٣٥. م: الإيمان، ب ٨٤، ح ٣٢٧. ت: القيامة، ح ٢٤٣٤، س: تفسير سورة الإسراء، ح ٣٠٦- عن أبي هريرة وعن أنس بن مالك.

أما أهل الكلام المذموم فإنهم يطلقون نفي حلول الحوادث، ويرتبون عليه نفي الصفات الاختيارية.

هل يطلق على صفات الله وكلامه أنه غيره؟

لا يطلق أئمة السنة على صفات الله وكلامه أنه «غيره»، ولا أنه «ليس غيره»؛ لأن في لفظ غير إجمال؛ فقد يطلق ويراد به ما ليس هو إياه، وقد يطلق ويراد به ما جاز مفارقته له.

ولهذا لا يطلق إلا مع البيان والتفصيل؛ لأن إطلاق الإثبات قد يشعر بالمباينة، وإطلاق النفي قد يشعر بأنه هو، فإن أريد به أن هناك ذاتًا مجردة منفصلة عن الصفات الزائدة عليها، فهذا غير صحيح. وإن أريد به أن الصفات زائدة على الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة، فهذا حق.

ولكن ليس في الخارج ذات غير موصوفة، فإن هذا محال، فانفصال الذات عن الصفات أمر يعرض للذهن فقط، بل إن كلمة ذات في أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة: ذات وجود، ذات قدرة، ذات علم.

فقولك: ذات كذا، أي: صاحبة كذا، فهي تأنيث: «ذو». هذا أصل معنى الكلمة، فعلم أن الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه، وإن كان الذهن قد يفرض ذاتًا مجردة من الصفات كما يفرض المحال. قال ﷺ: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**»(١).

وقال ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**»(٢) ولا يعوذ ﷺ بغير الله.

---

(١) م: السلام ب٢٤، ح٦٧. د: الطب، ب١٩، ت ٣٨٩١. ت: الطب، ب ٢٩، ح: ٢٠٨٠. ث: الطب، ب٣٥، ح٢٢ ٥ ٣. ط: العين، بـ٤، ح ٩. ك: ٣٤٣/ ١. حم: ٢١٧/ ٤ و٣٩/ ٦- كلهم عن عثمان بن أبي العاص.

(١) خ: الأنبياء، ب ٢ ١، ح ٩١ ٣١. م: الذكر، ب٦ ١، ح ٣٨٩٣- ٣٨٩٩. ت: الطب، ب١٨، ح ٠ ٦ ٢٠، و الدعوات، ب١ ٤، ح ٣٤٣٧. ق: الطب، ب٣٥، ح ٣٥١٨، ب٣٦، ح ٣٥٢٥. حم: ٢٣٦/ ١- عن ابن عباس وخولة بنت حكيم.

قول القائل: الصفة لا عين الموصوف ولا غيره:

هذا القول له معنى صحيح: وهو أن الصفة ليست عين ذات الموصوف التي يفرضها الذهن مجردة، وليست غير الموصوف، بل الموصوف بصفاته واحد غير متعدد. فإذا قلت: أعوذ بالله، فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة، التي لا تقبل الانفصال. وإذا قلت: أعوذ بعزة الله، فقد عذت بصفة من صفاته ولم تعذ بغيره عز وجل.

هل الاسم عين المسمى، أو غيره؟

الاسم قد يراد به المسمى، كقولك: قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده. وقد يراد به اللفظ الدال عليه، كقولك: «الله» اسم عربي، «الرحمن» من أسماء الله.

فالاسم ههنا هو المراد لا المسمى، ولا يقال «غيره» لما في لفظ «غيره» من الإجمال: فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق، وإن أريد أن الله كان بلا أسماء حتى خلق لنفسه أسماء، أو حتى سماه خلقه، فهذا من أعظم الضلال[1].

وقد أشار الشيخ رحمه الله بقوله: (**ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه**)، إلى الرد على المعتزلة، والجهمية، ومن وافقهم من الشيعة، فإنهم قالوا: إن الله صار قادرًا على الفعل، والكلام، بعد أن لم يكن قادرًا عليه؛ لكون الفعل صار ممكنًا بعد أن كان ممتنعًا، وفيه من الفساد ما لا يخفى.

---

(١) هذه المسائل من اختلافات المتكلمة فإنهم اختلفوا في الصفة والاسم، هل هما عين الموصوف والمسمى، أو غيره، ولزمت كل طائفة طرفًا من القضية، وبعض الأشاعرة نفاهما معًا، فرفع النقيضين وهو محال. والصحيح ما ذكره الشارح من التفصيل، ويقاس عليه سائر المصطلحات البدعية المجملة.

تنـزيه الرب بصفاته:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية).

يشير الشيخ بذلك إلى تنـزيه الرب بالذي هو وصفه، كما وصف نفسه نفيًا وإثباتًا. وكلامه مأخوذ من معنى سورة الإخلاص:

فقوله: «موصوف بصفات الوحدانية»، مأخوذ من قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[(١)] وقوله: «منعوت بنعوت الفردانية»، مأخوذ من قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[(٢)]، وقوله: «ليس في معناه أحد من البرية»، مأخوذ من قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[(٣)]، والوصف والنعت مترادفان، وقيل: متقاربان، فالوصف للذات والنعت للفعل.

وكذلك الوحدانية والفردانية، وقيل: الفرق بينهما أن الوحدانية للذات، والفردانية في الصفات. وفي كلام الشيخ نوع تكرير وسجع، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد.[(٤)]

---

(١) الإخلاص: ١.

(٢) الإخلاص: ٢-٣.

(٣) الإخلاص: ٤.

(١) ومما يرد على كلام ابن أبي العز، أنه يقرر في بداية تعليقه، أن هذه الفقرة من كلام المصنف مأخوذة من معنى سورة الإخلاص وجعل كل جزء منها مقابلاً بآية من آي هذه السورة، ثم يعود فيقرر أن في كلامه- نوع تكرير وسجع، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، فكان الأولى له حذف هذه العبارة.

هو الخالق الرازق:

قال المصنف رحمه الله تعالى: (خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة).

وقال: (ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم «الخالق»، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم «الباري»).

وقال: (له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق).

وقال: (كما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا، استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم).

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[(١)].

وقال ﷺ- من حديث أبي ذر رضي الله عنه-: **«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل في البحر»**[(٢)].

وقوله (بلا مؤنة) أي: بلا ثقل وكلفة.

ظاهر كلام الشيخ أنه يمنع تسلسل الحوادث في الماضي، وإن كان لا يمنعها في

(١) الذاريات: ٥٦-٨٥.

(١) رواه مسلم.

المستقبل بدليل تنصيصه على عدم فناء الجنة والنار. والأظهر عدم التفرقة، فإن الله لم يزل حيًا والفعل من لوازم الحياة.

قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[1]. فلم يزل فعالاً لما يريد، وقد دلت الآية على أمور منها:

- أنه تعالى يفعل بمشيئته وإرادته.
- وأنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، ولا يجوز أن يكون عادمًا لهذا الكمال في وقت من الأوقات.
- أنه إذا أراد شيئًا فعله، فإن «ما» موصولة عامة، أي: يفعل كل ما يريد أن يفعله. وهذا في إرادته المتعلقة بفعله هو، أما إرادته المتعلقة بفعل العبد، فلها شأن آخر. (سيأتي تفصيله في الكلام على مسألة القدر).
- ومنها تلازم فعله وإرادته، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لايريد.
- أن كل ما صح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، كنـزوله إلى السماء الدنيا، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء، وتجليه لعباده... ونحو ذلك، وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به. والقول بحوادث لها أول يلزم منه التعطيل قبل ذلك، ولا يلزم من ذلك قدم العالم؛ لأن ما سوى الله محدث، ممكن الوجود بإيجاد الله له، والاحتياج وصف ذاتي ملازم له[2]. والله واجب الوجود لذاته، والغنى وصف ذاتي ملازم له.

---

(١) البروج: ١٦.

(١) مسألة حوادث لا أول لها مما الْتَبَسَ على كثير من المتكلمين، وقد أطال شيخ الإسلام ابن تيمية في تقريرها في أول «منهاج السنة »، فمن أراد الاستزادة فليراجعه.

وقد سبقت الإشارة إليها في «توحيد الربوبية»، فقرة: «أول المخلوقات» عند شرح حديث: «كان الله ولم يكن معه شيء».

إن الله تعالى موصوف بأنه الرب قبل أن يوجد مربوب، وموصوف بأنه الخالق قبل أن يوجد مخلوق. فدل على أن عدم وجود المخلوق لا يستلزم ألا يوصف الله تعالى بأنه الخالق؛ فإن الله تعالى خالق فعال لما يريد قبل أن يوجد مخلوق في الوجود، فانتفاء وجود المخلوق لا يستلزم تعطيل اسم الخالق.



كـــــــلام الله

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (**وأن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقًا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى:** ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[1] **فلما أوعد الله بسقر لمن قال:** ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[2]. **علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر**).

افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال نذكر منها:

- ما عليه أئمة الحديث والسنة: وهو أن الله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلم بصوت يُسْمَع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا.
- ما ذهب إليه المعتزلة: وهو أنه مخلوق، خلقه الله منفصلاً عنه، وأن إضافته إليه للتشريف.

(١) المدثر: ٢٦.

(٢)

- ما ذهب إليه ابن كِلاب ومن وافقه كالأشعري: وهو أنه معنى واحد قائم بذاته تعالى، وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة.
- ما ذهب إليه أبو منصور الماتريدي: وهو أن كلامه تعالى يتضمن معنى قائمًا بذاته، هو ما خلقه في غيره.
- ما ذهب إليه طائفة من أهل الكلام وأهل الحديث: وهو أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل.

أدلة أهل السنة:

استدل أهل السنة بما يلي:

(١) النصوص الكثيرة التي جاءت بإثبات كلامه عز وجل، منها:

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[(١)]. وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[(٢)].

وقد جاء في بيان هذه الآية: «**أن الله يشرف على أهل الجنة من فوقهم ويقول لهم: السلام عليكم يا أهل الجنة**»[(٣)] قال تعالى في أهل النار: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾[(٤)]. أي: لا يكلمهم كلام تكريم؛ لأنه ورد أنه يقول لهم في النار: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[(٥)]. فلو

(١) النساء: ١٦٤.

(٢) يس: ٥٨.

(١) ق: المقدمة، ب١٣،ح ١١٨الحلية: ٦/٢٠٩. السيوطي في اللآلي: ٢/ ٤١٠- كلهم عن جابر. وهو حديث ضعيف.

(٤) آل عمران: ٧٧.

(٥) المؤمنون: ١٠٨.

كان لا يكلم عباده المؤمنين لتساووا مع أعدائه، ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة.

وقد عقد البخاري في صحيحه بابًا كاملاً عَنْوَنَهُ بقوله: «باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة». وساق فيه عدة أحاديث.

(٢) الوصف بالتكلم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص:

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾(١). فعدم الكلام نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل. هذا ويتناول الكلام عند إطلاقه اللفظ والمعنى جميعًا عند السلف.

وقد اتفق أهل السنة جميعًا، من أهل المذاهب الأربعة، وغيرهم من السلف، على أن كلام الله غير مخلوق. ولكن تنازع المتأخرون بعد ذلك في كلام الله.

هل هو معنى واحد بالذات، أم أنه حروف وأصوات، تكلم بها بعد أن لم يكن متكلمًا، أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وأن نوع الكلام قديم.

بعض الشبه التي أُوردت على مذهب أهل السنة:

أُورد على مذهب أهل السنة في كلام الله بعض الشبه، منها:

أنه يلزم منه التشبيه. وجواب ذلك: أنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله بكيفية لا نعلمها، ألسنا نؤمن أن الأيدي والأرجل والجلود تتكلم يوم القيامة، وإن كنا لا ندري كيف تتكلم؟!

إنه يلزم عليه قيام الحوادث به تعالى. وجواب ذلك: من ذا الذي نفى قيام الحوادث به

(١) الأعراف: ١٤٨.

بهذا المعنى؟ ذلك أن نفي قيام الحوادث به تعالى: إن قصد به أن لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته، ولا يحدث به وصف متجدد لم يكن، فهو صحيح، أما إن قصد به نفي الصفات الاختيارية كما يراد به هنا، فهو باطل.

أدلة المعتزلة:

استدل المعتزلة على ما ذهبوا إليه من أن كلام الله مخلوق، خلقه الله منفصلاً عنه، وأن إضافته إلى الله تعالى إضافة تشريف،كما يقال: بيت الله، بما يلي:

(١) قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾(١). والقرآن شيء، فيكون مخلوقًا. وقد أجيب على ذلك الدليل بما يأتي:

(أ) أن المراد بقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ كل شيء مخلوق، وكل موجود سوى الله فهو مخلوق، فدخل فيه أفعال العباد حتمًا، ولم يدخل فيه الخالق وصفاته؛ لأن عموم «كل» في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن كقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾(٢)، أي: من كل شيء يحتاج إليه الملوك.

(ب) أنه منقوض بقول المعتزلة في أفعال العباد، فهم يرون أنها مخلوقة للعباد، وليست مخلوقة لله، فأخرجوها من عموم «كل» وأدخلوا كلام الله في عمومها، مع أنه صفة من صفاته.

(ج) أن الله قد فرق في القرآن بين خلقه وأمره، وبأمره تكون المخلوقات. قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾(٣). فلو كان الأمر مخلوقًا للزم أن يكون مخلوقًا بأمر آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية.

(١) الزمر: ٦٢.

(٢) النمل: ٢٣.

(٣) الأعراف: ٥٤.

(د) أنه يلزم عليه أن تكون جميع صفاته مخلوقة أيضًا، كالعلم والقدرة وغيرها، وذلك صريح الكفر.

(ه) لو صح أن يكون متكلمًا بكلام يخلقه في غيره، للزم أن يكون متكلمًا بكل كلام خلقه في غيره، ولو كان كفرًا، وفساده ظاهر. تعالى الله عن ذلك.

(٢) قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[١].

وقد أجيب عن هذا الدليل: بأن (جعل) إذا كانت بمعنى (خلق)، تتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾[٣]. أما إذا تعدت إلى مفعولين، لم تكن بمعنى: خلق. كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾[٥]. وكذلك قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[٦].

(٣) قوله تعالى: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[٧].

فالكلام خلقه الله في الشجرة، فسمعه موسى منها.

وقد أجيب عن هذا الدليل، بأن النداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى النداء من حافة الوادي، وقد كان هذا النداء في البقعة المباركة من عند الشجرة، كما تقول: سمعت كلام زيد من البيت، فإن «من»: تكون لابتداء الغاية، لا أن المتكلم هو البيت.

---

(١) الزخرف: ٣.

(٢) الأنعام: ١.

(٣) الأنبياء: ٣١.

(٤) النحل: ٩١.

(٥) الحجر: ٩١.

(٦) الزخرف: ٣.

(٧) القصص: ٣٠.

ولو كان الكلام مخلوقًا في الشجرة لكانت هي القائلة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. بل لكان قول فرعون: أنا ربكم الأعلى صدقًا؛ إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قاله غير الله، ولكنهم فرقوا بين الكلامين، فقالوا: هذا كلام خلقه الله في الشجرة، وذلك كلام فرعون.

(٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[2]. وهذا يدل على أن الرسول أحدثه: إما جبريل وإما محمد. وقد أجيب عن ذلك بما يلي:

- أن الرسول في إحدى الآيتين هو جبريل، وفي الأخرى هو محمد ﷺ، فإضافته إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ؛ إذ لو أحدثه أحدهما، لامتنع أن يحدثه الآخر.
- ذكر الرسول معرف بمعنى أنه مبلغ عن مُرسِله، لا أنه أنشأه من نفسه، ولهذا لم يقل: إنه قول ملك، أو نبي، والكلام هو لمن قاله مبتدئًا، لا لمن قاله مبلغًا.
- وأيضاً فوصفه الرسول بأنه أمين دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسل بتبليغه، ولا ينقص منه. ولا شك في كفر من زعم أن محمدًا أو جبريل، قد أنشأ القرآن من عنده.

(٥) أما قول المعتزلة: إن إضافة الكلام إلى الله إنما هي للتشريف، فيجاب عنه بأن الإضافة إلى الله نوعان:

إضافة تشريف، وهي للأعيان؛ كقولك: بيت الله، وناقة الله، وهذه الأعيان مخلوقة لله جل وعلا.

---

(١) القصص: ٣٠.

(٢) التكوير: ١٩.

إضافة صفة، وهي للمعاني: كعلم الله، وقدرته، وكلامه؛ فإن هذا كله من صفاته، لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقًا.

أدلة ابن كلاب ومن تابعه:

استدل ابن كلاب ومن تابعه كالأشعري على ما ذهبوا إليه من أن الكلام معنى واحد قائم بذاته، لم يسمع منه، وإنما هو الكلام النفسي، بقول الأخطل:

إن الكـــلام لفـــي الفـــؤاد وإنـــما * جعـل اللســان عـلى الفـؤاد دلـيلاً**

الجواب: وقد رد عليهم بما يأتي:

(١) ليس في كلام الأخطل دليل، فقد قيل: إن البيت موضوع، منسوب إليه، وقيل: إن صحته: إن البيان لفي الفؤاد، وعلى تقدير صحته فكيف يستدل بقول نصراني ضل في معنى الكلام، على معنى الكلام، ويترك ما هو معروف من لغة العرب؟! أليس النصارى هم الذين ضلوا في معنى الكلام، وزعموا أن عيسى نفسه كلمة الله، واتحد اللاهوت بالناسوت؟

(٢) أن لازم هذا القول أن يسمى الأخرس متكلمًا؛ لقيام الكلام بقلبه، وإن لم ينطق به، أو يُسمع منه.

(٣) النصوص الكثيرة التي نفت اسم الكلام عما يدور في النفس، مثل: ما جاء في الصحيحين من قوله ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها، ما لم تتكلم به، أو تعمل به**». ففرق بين حديث النفس وبين الكلام.

(٤) قوله ﷺ: «**إن صلاتنا لا يصح فيها شيء من كلام الناس**»[1]. وإجماع المسلمين على أن من تكلم عمدًا في الصلاة لغير مصلحتها بطلت صلاته. وكذلك

(١) م: المساجد، ب٧، ح ٣٣. د: الصلاة، ب ١٧١، ح ٩٣٠- كلاهما عن معاوية بن الحكم.

إجماعهم أيضًا على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية، وطلب، لا يبطل الصلاة، فعلم اتفاقهم أن هذا ليس بكلام.

(٥) أن هذا يؤدي إلى القول بخلق القرآن، فمن قال: إن كلام الله معنى قائم بنفسه، وإن المتلو في المصاحف هو حكاية كلام الله، وهو مخلوق. فقد قال بخلق القرآن، وهو لا يشعر. فقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[1]. أتراه يشير إلى ما في نفسه أم إلى المتلو المسموع؟ لاشك أنه إشارة إلى المتلو المسموع. وهل هناك حيلة أو وسيلة لمعرفة ما في نفسه تعالى؟! فإن قالوا بأنه أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارته، وهو المتلو المكتوب المسموع، فهذا تصريح بخلق القرآن، بل هم في ذلك أكفر من المعتزلة، فإن حكاية الشيء تكون بمثله وشبهه، وهذا تصريح بأن صفات الله محكية، ولو كانت هذه التلاوة حكاية، لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله فأين عجزهم؟.

(٦) أما قولهم: إنه معنى واحد، فيقال لهم: هل جمع موسى كل كلام الله أو بعضه؟ فإن قالوا: كله، فذلك محض الكذب، وإن قالوا: بعضه، فقد أقروا بالتبعيض. وكذلك أيضًا بالنسبة للملائكة في قول الله لهم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2]. وقوله: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾[3]. هل كان هذا جميع كلامه تعالى أو بعضه؟ فإن قالوا: جميعه فهذه مكابرة، وإن قالوا: بعضه فقد اعترفوا بالتعدد.

وكيف يكون الكلام معنى واحدًا، وفيه كلام التكريم لأهل الإيمان. كقوله تعالى لأهل

(١) الإسراء: ٨٨.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) البقرة: ٣٤.

الجنة: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾[1] . وكلام الإهانة لأهل الكفر والمعصية، كقوله تعالى لأهل النار: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[2]، وفيه الأمر والنهي والخبر.

فساد القول: بأن كلام الله معنى واحد والتعدد حاصل في الدلالات:

وذهب كثير من متأخري الأحناف إلى أن كلام الله معنى واحد، والتعدد حاصل في الدلالات لا في المدلول، وهذه العبارات مخلوقة، وسميت كلام الله مجازًا؛ لدلالتها عليه وتأديه بها؛ وهو فاسد، والرد عليه من وجوه:

- أَنَّ لازمه أن معنى قوله: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾[3]، هو معنى قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[4]، ومعنى آية: الكرسي هو معنى آية: الدين.
- لو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، لما حرم على الجنب والمحدث مسه، ولو كان ما يقرأ القارئ ليس كلام الله، لما حرم على الجنب والمحدث قراءته. وقد قال تعالى: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[5].

فالحق الذي لا معدل عنه أنه كلام الله-كما قال أبو حنيفة- محفوظ في الصدور، مقروء بالألسن، مكتوب في المصاحف.

---

(١) يس: ٥٨.

(٢) المؤمنون: ١٠٨.

(٣) الإسراء: ٣٢.

(٤) المزمل: ٢٠.

(٥) التوبة: ٦.

الفرق بين كون القرآن في زبر الأولين، وكونه في رق منشور، ولوح محفوظ:

الفرق بينهما: أن قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(١) أي: ذكره ووصفه والإخبار عنه. أما قوله: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾(٢)، ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾(٣)، ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾(٤). أي: كونه وحصوله واستقراره، أو يقدر: مكتوب في كتاب أو في رق. والكتاب تارة يذكر ويراد به محل الكتابة، وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب. ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب، وكتابة الأعيان الموجودة في الخارج فيه، فإن تلك إنما يكتب ذكرها، كذلك القرآن -وهو مصدر في الأصل:

- فتارة يذكر ويراد به القراءة، كقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾(٥).
- وتارة يذكر ويراد به المقروء، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(٦).

البيان الإجمالي لكلام الطحاوي:

قوله: (**وأن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً**) أي: ظهر منه، ولا ندري كيف تكلم به، وأكد هذا المعنى بقوله: (قولاً) لنفي المجاز، وفيه رد على المعتزلة وغيرهم، فقد زعم

---

(١) الشعراء: ١٩٦.

(٢) الطور: ٣.

(٣) البروج: ٢٢.

(٤) الواقعة: ٧٨.

(٥) الإسراء: ٧٨.

(٦) النحل: ٩٨.

المعتزلة أن القرآن لم يبدُ منه، وأن إضافته إليه إضافة تشريف، ورُد بأن الإضافة التي للتشريف هي إضافة الأعيان كبيت الله، أما إضافة المعاني إليه، كعلم الله، وكلام الله، فهذا من صفاته.

قوله: **(وأنزله على رسوله وحيًا)** أي: أنزله على لسان الملك، فسمع الملك من الله، وسمع محمد ﷺ من الملك، وقد أُورد على ذلك أن إنزال القرآن نظير إنزال المطر، والحديد، والأنعام. ورُد بأن إنزال القرآن مذكور فيه أنه إنزال من الله. قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1]. بخلاف إنزال المطر فإنه مقيد بأنه إنزال من السماء وهي العلو، وفي مكان آخر أنه من المزن، وهو السحاب، وفي مكان آخر أنه من المعصرات.

وإنزال الحديد، والأنعام، مطلق، فكيف يشبه هذا الإنزال، بهذا الإنزال. فالحديد إنما يكون من المعادن التي في الجبال وهي عالية في الأرض، والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من الأصلاب إلى أرحام الإناث، ثم نزول الأجنة من بطون الأمهات، إلى غير ذلك.

قوله: **(وصدقه المؤمنون على ذلك حقًا)** أي: هذا قول الصحابة والتابعين وهم السلف الصالح، وأن هذا حق وصدق.

قوله: **(وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية)** فيه رد على المعتزلة، وقوله: بالحقيقة رد على من قال: إنه معنى واحد قائم بذات الله، لم يسمع منه وإنما هو الكلام النفساني.

قوله: **(فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر)** أي: فمن أنكر أن القرآن كلام الله فقد كفر.

(١) الزمر: ١.

أما من قال: إنه كلام الله ثم أوَّل وحرَّف، فقد وافق من قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[1] في بعض ما به كفر، أما حكمه على التعيين فسيأتي الكلام عليه إن شاء الله.

قوله: (**ولا يشبه قول البشر**) فهو أشرف وأفصح وأصدق، وإعجازه من جهة نظمه ومعناه، لا من جهة أحدهما فقط، ولا من حيث الكلمات والحروف. ذلك أن الله عز وجل عندما تحدى الكفار، قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[2]. ولم يقل فأتوا بحرف أو كلمة.

(١) المدثر: ٢٥.

(٢) البقرة: ٢٣.



استغناؤه عن خلقه، وإحاطته بهم، وعلوه عليهم

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (وهو مستغنٍ عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه).

استغناؤه تعالى عن خلقه:

أما قوله: **(وهو مستغنٍ عن العرش وما دونه)** فقد ذكره الشيخ بعد ذكر العَرْش والكرسي، ليبين أن خلقه تعالى للعرش لم يكن لحاجة إليه، وإنما لحكمة اقتضته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

فكما أن السماء فوق الأرض، وليست مفتقرة إليها، فالله أعظم من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه:

فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته.

وغناه عن العرش وفقر العرش إليه.

(١) العنكبوت: ١٦.

وإحاطته بالعرش وعدم إحاطة العرش به.

وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق، ولو أن دعاة التعطيل فصَّلوا هذا التفصيل لهدوا إلى سواء السبيل. سئل مالك عن قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[1]. كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول. وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة موقوفًا، ومرفوعًا إلى النبي ﷺ.

إحاطته تعالى بكل شيء:

وأما قوله: (**محيط بكل شيء وفوقه**) أي: محيط بكل شيء، وفوق كل شي، إحاطة عظمته، وسعة علمه، وقدرته، وأن المخلوقات بالنسبة لعظمته كخردلة، وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾[3].

روي عن ابن عباس أنه قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم». ومن المعلوم أنه لو كان في يد أحدنا خردلة، فإنه إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها، أو جعلها تحته، وهو في الحالين مباين لها، عالٍ عليها من جميع الوجوه، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف؟!

كيف يستبعد العقل مع ذلك أن يدنو من بعض أجزاء العالم، وهو على عرشه فوق سماواته؟!

وفي حديث أبي رزين المشهور: ... فقال له أبو رزين: كيف يسعنا يا رسول الله! هو واحد ونحن جميع؟، فقال ﷺ: «**سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله: هذا القمر، آية من**

(١) الأعراف: ٥٤.

(٢) فصلت: ٥٤.

(٣) النساء: ١٢٦.

آيات الله، كلكم يراه مخليًا به، والله أكبر من ذلك، وإذا أفل تبين أنه أعظم وأكبر من كل شيء»[1]. ففي هذا الحديث ما يزيل كل إشكال، ويبطل كل خيال.

كونه تعالى فوق المخلوقات:

إن من يتتبع نصوص القرآن والسنة، وكلام السلف الصالح من هذه الأمة، يجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر، هذا فضلاً عن شهادة العقول السليمة والفطر المستقيمة. وسوف نُقِيم الأدلة على علو الله على خلقه. وكونه فوق عباده إلى ثلاثة أقسام:

- **شهادة النصوص والآثار.**
- **وشهادة العقول.**
- **وشهادة الفطر.**

أولاً: شهادة النصوص والآثار:

لقد شهدت نصوص القرآن والسنة شهادة قاطعة بعلو الله على خلقه. وهذه النصوص أنواع كثيرة، منها:

١- التصريح بالفوقية:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**قضى الله الخلق وكتب في كتاب**

(١) حم: ١٣/ ٤. طب: ١٩/٢١١، ح ٤٧٧.
(٢)الأنعام: ٦١.
(٣) النحل: ٥٠.

فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»[1]. رواه البخاري وغيره.

وروي مسلم عن النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[2] قوله: «**أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[3]. المراد بالظهور هنا: العلو، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾[4] أي: يعلوه.

وقول النبي ﷺ لسعد بن معاذ يوم بني قريظة: «**لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات**»[5].

روى ابن ماجه عن جابر مرفوعًا: «**بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا إليه رؤوسهم، فإذا الجبار جل جلاله أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم.....**»[6] الحديث.

روى البخاري عن زينب أنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: «**زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات**»[7].

---

(١) خ: بدء الخلق، ب ا، ح ٣٠٢٢، والتوحيد، ب ١٥، ح ٦٩٩٦، ب ٢٢، ح ٦٩٨٦، ب ٢٨، ح ٥ ١ ٧٠، ب ٥٥. خ ٧١١٤ و ٧١١٥. م: التوبة، ب ٤، ح ١٤- ١٦. ق: المقدمة، ب ١٣، ح ١٨٩- كلهم عن أبي هريرة.

(٢) الحديد: ٣.

(٣) م: الذكر، ب ١٧، ح ٦١. د: الأدب، ب ١٠٦، ح ٥٠٥١. ت: الدعوات، ب ١٩، ح ٣٤٠٠. ق: الدعاء، ب ١٥، ح ٣٨٧٣- كلهم عن أبي هريرة.

(٤) الكهف: ٩٧.

(١) خ: الجهاد، ب ١٦٥، ح ٢٨٧٨، والفضائل، ب ٤٢، ح ٣٥٩٣، والمغازي، ب ٢٨، ح ٣٨٩٥، والاستئذان، ب ٢٦، ح ٥٩٠٧. م: الجهاد، ب ٢٢، ح ٦٤- كلاهما عن أبي سعيد ا لخدري.

(٢) ق: المقدمة، ب ١٣، ح ١٨٤- عن جابر، وهو حديث ضعيف.

(٣) خ: التوحيد، ب ٢٢، ح ٦٩٨٤ و ٦٩٨٥- عن أنس بن مالك.

قول عمر رضي الله عنه عن خولة: «**امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة التي أنزل الله فيها:** ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1]»[2] أخرجه الدارمي.

٢- التصريح بالعروج:

قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ...﴾[3].

وقال ﷺ: «**يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم..**»[4] الحديث.

٣- التصريح بالصعود إليه:

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[5].

٤- التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه:

قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[7].

٥- التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتًا وقدرًا وشرفًا:

كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[2].

---

(١) المجادلة: ١.

(٢) قال الشيخ الألباني: ضعيف أخرجه أبو سعيد الدارمي ص ٢٦ طبع المكتب الإسلامي. قال الذهبي: (١١٣) وهذا إسناد فيه انقطاع أبو يزيد لم يلحق عمر (شرح الطحاوية ص ٣١٨، الطبعة السادسة).

(٣) المعارج: ٤.

(٤)خ: المواقيت، ب ١٥، ح ٥٣٠، وبدء الخلق، ب ٦، ح ٣٠٥١، والتوحيد، ب ٢٣، ح ٦٩٩٢، ب ٣٣ ح ٧٠٤٨. م: المساجد، ب ٣٧، ح ٢١٠. س: الصلاة، ب ٢١، ح ٤٨٦.

(٥) فاطر: ١٠.

(٦) النساء: ١٥٨.

(٧) آل عمران: ٥٥.

٦- **التصريح بتنـزيل الكتاب منه:**

قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾[(٤)].

٧- **التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقرب من بعض:**

قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾[(٥)]. ففرق بين (من له) عمومًا، وبين (من عنده) من ملائكته وعبيده خصوصًا.

وقال ﷺ في الكتاب الذي كتبه الرب على نفسه: «**إنه عنده فوق العرش**».

٨- **التصريح بأنه تعالى في السماء:**

قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾[(٦)].

وهو عند مفسري أهل السنة على أحد وجهين:

إما أن تكون (في) بمعنى (على).

وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك.

٩- **التصريح بالاستواء مقرونًا بأداة (على)، مختصًا بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات، مصاحبًا في الأكثر بأداة (ثم) الدالة على الترتيب والمهلة:**

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) الشورى: ٥١.

(٣) الزمر: ١.

(٤) النحل: ١٠٢.

(٥) الأنبياء: ١٩.

(٦) الملك: ١٦.

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[1]. قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾[2].

١٠- التصريح برفع الأيدي إليه:

قال ﷺ: «**إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا** »[3]

١١- التصريح بنـزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا:

والنـزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علوٍ إلى سفل.

١٢- الإشارة إليه حسًا إلى العلو:

كرفعه ﷺ أصبعه إلى السماء في حجة الوداع وهو يقول: «**اللهم اشهد** »[4].

١٣- التصريح بلفظ الأين: كقوله ﷺ للجارية: «**أين الله**»؟[5] وإخباره ﷺ بأنه تردد بين موسى وربه ليلة المعراج لتخفيف الصلاة، يصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى[6]. والنصوص الدالة على رؤية أهل الجنة لربهم من فوقهم كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب وقد سبق ذكر بعضها.

---

(١) طه: ٥.

(٢) يونس: ٣.

(٣) ك: ١/ ٥٣٥. حب: ٦/ ٢٠٠، ح ٤١٨٦- ٤١٨٨. عن خزيمة بن ثابت وعن سلمان الفارسي.

(٤) خ: الحج، ب ١٣١، ح ١٦٥٤ و ١٦٥٥، والمغازي، ب٣٩، ح ٤١٤١. م: القسامة، ب ٩، ح ٣١. ق: المناسك، ب ٧٦، ح ٣٠٥٨- عن ابن عمر وأبي بكرة.

(٥) م: المساجد، ب ٧، ح ٣٣. س: الصلاة، ب ٤٧٣، ح ١٢١٩.- عن معاوية بن الحكم.

(٦) خ: الصلاة، ب ا، خ ٣٤٢، والأنبياء، ب ٧، خ ٣١٦٤، وبدء الخلق ب ٦، ح ٣٠٣٥، وفضائل الصحابة، ب ٧١، ح ٢٦٧٤. م: الإيمان، ب ٧٤، ح ٢٦٣. عن أبي ذر.

بعض الآثار الواردة في إثبات الفوقية:

سأل أبو مطيع البلخي أبا حنيفة (١) عمن قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض، فقال: قد كفر؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ (٢). وعرشه فوق سبع سماواته، قلت: فإن قال: إنه على العرش، ولكن يقول: لا أدري، العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر؛ لأنه أنكر أنه في السماء، فمن أنكر أنه في السماء فقد كفر. ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبي حنيفة، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم مخالفون له في كثير من اعتقاداته. وقصة أبي يوسف في استتابة بشر المريسي، لما أنكر أن يكون الله فوق العرش مشهورة.

ثانياً: شهادة العقول:

لقد شهدت العقول السليمة بعلو الله على خلقه، وذلك من وجوه:

العلم البدهي القاطع بأن كل موجودَين إما أن يكون أحدهما قائمًا بالآخر كالصفات، وإما أن يكون قائمًا بنفسه بائنًامن الآخر.

إن الله لما خلق العالم، فإما أن يكون قد خلقه في ذاته، أو خارجًا عن ذاته والأول باطل بالاتفاق؛ لما يلزم عليه أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات، والثاني يقتضي الانفصال والمباينة؛ لأن القول بأنه غير متصل بالعالم، وغير منفصل عنه غير معضل.

إن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية، فيكون موجودًا إما داخله وإما خارجه، والأول باطل، فتعين الثاني، ولزمت المباينة.

لو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات، مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان متصفًا

(١) رواه أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه: الفاروق.

(٢) طه: ٥.

بضد ذلك وهو السفول؛ وذلك مذموم لأنه مستقر إبليس وجنوده.

فإن قيل: لا نسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها!

قلنا: لو لم يكن قابلاً للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بذاتها، فمتى أقررنا أنه قائم بذاته غير مخالط للعالم، وأنه موجود في الخارج وليس في الأذهان فقط، وقد علم العقلاء جميعًا أن من كان كذلك إما داخل العالم أو خارجًا عنه، وإنكار ذلك إنكار لما هو أظهر من البديهات.

إن العلو والفوقية صفة كمال لا نقص فيه، ولا يستلزم نقصًا ولا يخالف كتابًا ولا سنة ولا إجماعًا. فنفي حقيقته عين الباطل المحال الذي لا تأتي به شريعة أصلاً.

ثالثاً: شهادة الفطر:

شهدت الفطر المستقيمة بعلو الله على خلقه، فالخلق جميعًا يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى. ذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الجويني المعروف بإمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو، ويقول: كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان. فقال الهمدانى: أخبرنا يا أستاذ عن هـذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا؟ فإنه ما قال عارف قط يا الله، إلا وجد في قلبه ضرورة طلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع بهذه الضرورة عن أنفسنا. قال: فلطم الجوينى على رأسه ونزل، وأظنه قال: وبكى! وقال: حيرني الهمدانى حيرني! فهذا أمر فطر الله عليه عباده من غير أن يتلقوه من المرسلين.

اعتراضات وجوابها:

(١) اعتراض على الأدلة العقلية وجوابه:

اعترض على الدليل العقلي بإنكار بداهته؛ لأنه قد أنكره جمهور العقلاء، ولو كان بدهيًا ما اختلف فيه.

فالجواب أن يقال لهم: إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أعظم قبولاً، وإن رد قولنا فهو لقولكم أعظم ردًا، فكل منا يدعي بالضرورة بطلان قول الآخر، ولكننا نترجح عليكم بالفطر؛ لأن الناس موافقون لنا على هذا، فإن رددتم حكم الفطر بطل قولكم بالكلية؛ لأنكم قد بنيتموه على مقدمات معلومة بالفطرة الآدمية وبطلت عقلياتنا كذلك، ورجعنا إلى النصوص وحدها وهي شاهدة لنا دونكم، فنحن مختصون بالسمع، والعقل مشترك بيننا وبينكم.

فإن قلتم: إن أكثر العقلاء يقولون بقولنا. قلنا: ليس الأمر كذلك، بل أول ما عُرف ذلك عن طائفة من النظار، وأول من عُرف عنه ذلك في الإسلام جهم بن صفوان.

(٢) اعتراض على الدليل الفطري وجوابه:

اعترض على الدليل الفطري بما يلي: إن ذلك إنما كان لأن السماء قبلة الدعاء كما أن الكعبة قبلة الصلاة، وإنه منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس في جهة الأرض. وأجيب عن ذلك من وجوه:

القول بأن السماء قبلة الدعاء قول لا دليل عليه لم يقله أحد من السلف، ولا أنزل الله به من سلطان، فقبلة الدعاء هي قبلة الصلاة، فيستحب للداعي أن يستقبل القبلة، ومن قال سوى ذلك فهو مبتدع.

إن القبلة هي ما يستقبله الداعي بوجهه، فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها، ولكن ذلك لم تأمر به الرسل، بل نهوا عنه.

أما الوضع الذي ترفع إليه الأيدي فلا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازًا. ومعلوم أن التوجه بالقلب، واللجأ والطلب الذي يجده الداعي من نفسه أمر فطري يفعله الناس جميعًا مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ، والتحويل، كما تحولت من الصخرة إلى الكعبة. وأمر التوجه في

الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك، بخلاف الداعي فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه، ويرجو الرحمة أن تنـزل من عنده.

وأما النقض بوضع الجبهة على الأرض فما أفسده وأسمجه؛ لأن من يفعل ذلك يقصد الخضوع لمن فوقه بالذل له، لا بأن يميل إليه إذ هو تحته، هذا لا يخطر بقلب ساجد وإن كان قد حكي عن بشر المريسي أنه سُمع وهو يقول: سبحان ربي الأسفل! تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا. وإن من أفضى به النفي إلى هذا الحال حري أن يتزندق إن لم يتداركه الله برحمته.

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2].

فمن لم يطلب الهدى من مظانه يعاقب بالحرمان. نسأل الله العفو والعافية.

(٣) الرد على من تأول الفوقية بمعنى الخيرية والأفضلية.

إن تأويل الفوقية بمعنى أنه خير وأفضل لمما تنفر منه العقول السليمة؛ لأنه من جنس قول القائل: السماء أعلى من سقف الدار، والجبل أثقل من الحصى، ورسول الله أفضل من اليهود، فليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه بل فيه تنقص كما قيل في المثل السائر:

ألم تـر أن السـيف يـنقص قـدره إذا * قيـل: إن السـيف أمضى مـن للـعصى**

اللهم إلا إذا كان المقام يقتضي ذلك كما في الاحتجاج على مبطل. قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ

(١) الأنعام: ١١٠.

(٢) الصف: ٥.

مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[(١)] . وقال تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[(٢)] .

وإنما ثبت هذا المعنى من الفوقية ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه فله سبحانه فوقية القهر، وفوقية القدر، وفوقية الذات، فمن أثبت بعضًا ونفى البعض فقد تنقص.

(٤) الرد على من تأول العلو بأنه علو المكانة والمنـزلة، أو علوه في القلوب:

علوه تعالى مطلق من جميع الوجوه. فإن قالوا: بل علو المكانة والمنـزلة لا المكان والمنـزل. قلنا: إن المكانة والمنـزلة تأنيث للمكان والمنـزل، وهي تستعمل في المكانات النفسانية والروحية كما يستعمل لفظ المكان والمنـزل في الأمكنة الجسمانية.

جاء في الأثر: «إذا أحب أحدكم أن يعرف كيف منـزلته عند الله فلينظر كيف منـزلة الله في قلبه، فإن الله ينـزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد في قلبه»[(٣)].

فقوله: منـزلة الله في قلبه: أي: ما يكون في قلبه من معرفة الله ومحبته وتعظيمه، فإذا عرف أن المكانة والمنـزلة تأنيث المكان والمنـزل، والمؤنث فرع المذكر في اللفظ والمعنى وتابع له، فعلو المثل الذي يكون في الذهن يتبع علو الحقيقة، إذا كان مطابقًا كان حقًا وإلا كان باطلاً.

فإن قيل: المراد علوه في القلوب من كل شيء.

قلنا: وكذلك هو، وهذا العلو مطابق لعلوه في نفسه على كل شيء، فإن لم يكن عاليًا بنفسه على كل شيء كان علوه في القلوب غير مطابق، كمن جعل ما ليس بأعلى أعلى.

---

(١) يوسف: ٣٩.

(٢) النمل: ٥٩.

(٣) لم أجده في كتب السنة، وقال الألباني في تخريجه: ص ٣٢٤، لم أعرفه- الطبعة السادسة. قلت: ذكره السيوطي في فيض القدير بلفظ: «**من أراد أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما له عنده**» عن أنس وعروة، وهو حديث ضعيف. راجع فيض القدير ٤٩١٦، ح ٨٣٨٦. ١٢٨.

(٥) الرد على بعض الشبه التي تعلق بها نفاة العلو من المعطلة:

لقد تعلق كثير من نفاة العلو ببعض النصوص التي حسبوا أنها تشهد لما ذهبوا إليه من نفي حقيقة العلو، وتأويل النصوص التي تدل على ذلك، نذكر منها:

أ- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1].

وقد أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية[2] عن ذلك: بأن هذه الآية ليست من آيات الصفات، وأن من عدها في الصفات، فقد غلط، فالوجه هو الجهة، يقال أي وجه تريده؟ أي: أيَّ جهة، وأنا أريد هذا الوجه، أي: هذه الجهة، وسياق الكلام يدل على ذلك حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

والمشرق والمغرب: الجهات، وقد صح عن مجاهد والشافعي وغيرهما تفسيرها بالقبلة، أي: قبلة الله أينما توجهت شرقًا أو غربًا.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عدة أقوال، منها: أنها نزلت في قوم عميت عليهم القبلة فصلوا على أنحاء مختلفة، فأخبرهم جل وعلا أن له المشارق والمغارب وأنهم حيثما ولوا وجوههم فصلاتهم ماضية.

وروي أنها نزلت على رسول الله إذنًا من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب في سفره؛ لما روي عن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

وقيل: إنها نزلت ردًا على اليهود عندما قالوا بعد تحويل القبلة إلى الكعبة: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن

(١) البقرة: ١١٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٩٣/ ٣.

قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾[1] . قال عكرمة عن ابن عباس: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾. قال: قبلة الله أينما توجهت شرقًا أو غربًا.

وقال مجاهد: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها: الكعبة.

وعلى هذا، فدلالة السياق من ناحية، ودلالة أسباب النـزول من ناحية أخرى، يشهدان بأن المقصود هو الحديث عن جهة القبلة، وأن الآية لم تسق للحديث عن صفة من صفات الله عز وجل، حتى يمثل الأمر شبهة على قضية العلو، أو يكون بحاجة إلى تأويل.

ب- ومنها النصوص الدالة على المعية، وهي نوعان:

- **نصوص تدل على المعية العامة،** مثل: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2] .

  وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3] .

- **ونصوص تدل على المعية الخاصة** مثل: قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[4] . وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[5] .

---

(١) البقرة: ١٤٢.

(٢) الحديد: ٤.

(٣) المجادلة: ٧.

(٤) طه: ٤٦.

(٥) التوبة: ٤٠.

والجواب: إنه لا حجة للمعطلة في هذه النصوص؛ إذ لا منافاة بين علوه على عرشه وبين معيته لخلقه، فما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر فيهما من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، فهو عليّ في دنوه قريب في علوه.

وقد أجمع سلف الأمة الصالح من الصحابة والتابعين، وأئمة العلماء المجتهدين على أنه سبحانه وتعالى فوق سماواته مستوٍ على عرشه بائن من خلقه، وأنه مع ذلك قريب من عباده أينما كانوا، فهو معهم جميعًا بعلمه وقدرته وسلطانه، ويختص بعضهم بمعية إعانة وتأييد ونصر، هذا هو المنقول عن علماء الصحابة والتابعين، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله، وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يخالفهم في ذلك أحد يعتد بقوله، وهو مأثور عن ابن عباس، والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم.

ومن ناحية أخرى: فإن المعية -كما سبق- قد وردت خاصة ووردت عامة، فلو كان المراد أنه بذاته مع كل شيء لكان التعميم ينافي التخصيص، فإنه قد علم أن قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾. أراد به تخصيصه وأبا بكر دون عدوهم من الكفار. وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[1]. خصهم بذلك دون الظالمين والفجار.

ومن ناحية ثالثة: فإن لفظ المعية لا يراد به- في لغة العرب ولا في القرآن الكريم- اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى، كما في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾[2]. وقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

(١) النحل: ١٢٨.

(٢) الفتح: ٢٩.

﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[1]. وقوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾[2]. وقوله: ﴿وَجَـٰهَدُواْ مَعَكُمْ﴾[3]. ومثل هذا كثير فامتنع أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾[4] يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق فهذا خلاف ما فطر الله عليه الخلق وأجمع عليه سلف الأمة.

وإلى الذين تضيق آفاقهم وتقصر عقولهم دون إدراك ذلك، نقول لهم: أليس القمر- وهو آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته- يراه المسافر وغير المسافر معه أينما كان بينما هو موضوع في مكانه في السماء؟!

والله أكبر من ذلك وأعظم، فما الذي يحيله العقل في أن يكون عز وجل فوق سماواته مستويًا على عرشه بائنًا من خلقه، وأن يكون مع عباده حيث كانوا، معية في كل موضع بحسبه، فهي مع الخلق كلهم معية علم وإحاطة، ومع بعضهم معية تأييد وإعانة؟

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) النساء: ٦٩.

(٣) الأنفال: ٧٥.

(٤) الحديد: ٤.



رؤية الله تعالى والرد على دعاة التأويل

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: **(والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب** ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [1]. **وتفسيره على ما أراد الله وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلَّم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه).**

أثبت الرؤية أهل السنة والجماعة، وخالف فيها المعتزلة والجهمية ومن تبعهم من الخوارج والإمامية.

أدلة أهل السنة:

أولاً: من القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [2]. والنظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديته بنفسه:

---

(١) القيامة: ٢٢-٢٣.

(٢) القيامة: ٢٢-٢٣.

فإن عُدي بفي كان معناه التفكر والاعتبار، كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

وإن عُدي بإلى كان معناه المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾[2]. فكيف إذا أضيفت إلى الوجه الذي هو محل البصر؟ فإضافة النظر إلى الوجه، وتعديته بإلى الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام عن قرينة تدل على خلافه برهان قاطع بأن الله أراد نظر العين إلى الرب جل جلاله.

وهذا هو قول المفسرين من أهل السنة والحديث، فهو قول ابن عمر، والحسن، وابن عباس، وعكرمة وغيرهم. وقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[3]. فإذا حجب الكفار في السخط دل ذلك على أن أولياءه يرونه في الرضا، وقد احتج بذلك الشافعي وغيره من الأئمة على الرؤية لأهل الجنة.

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[4]. والزيادة قد فسرها رسول الله ﷺ بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل.

روى مسلم عن صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله وعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة**».

(١) الأعراف: ١٨٥.

(٢) الأنعام: ٩٩.

(٣) المطففين: ١٥.

(٤) يونس: ٢٦.

ثانياً: من السنة:

روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيًا، وهي متواترة، رواها أصحاب الصحاح، والمسانيد والسنن منها:

حديث أبي هريرة: إن ناساً قالوا: يا رسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول اللهﷺ: «**هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا. قال: فإنكم ترون ربكم كذلك**»[1]. متفق عليه.

حديث جرير بن عبد الله البجلي: قال: كنا جلوسًا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة. فقال: «**إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته**»[2] متفق عليه.

والأحاديث في هذا المقام كثيرة. والتشبيه الذي في هذه الأحاديث إنما هو للرؤية وليس للمرئي، فهو تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي. ولكن فيها دليل على علو الله على خلقه؛ لأنه لا تعقل رؤية بلا مقابلة، ولأن القول بأنه يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته، ترده الفطر السليمة.

هذه بعض أدلة أهل السنة، وهي قاطعة في إثبات الرؤية، ولا يلتفت إلى التأويلات الفاسدة فهذه هي التي خربت العقول والديار، فبها قتل عثمان والحسين رضي الله

(١) خ: الصلاة، ب ٤٥، ح ٧٧٣، الرقائق، ب ٥٢، ب٦٢٠٤، تفسير سورة النساء، ح ٤٣٠٥. التوحيد، ب ٢٤، ح ٧٠٠٠ و ٧٠٠١. م: الإيمان، ب ٨١، خ ٢٩٩- ٣٠٢، والرقائق، ب٥٣، ح ٦ ١. د: السنة، ب ٢٠، ح ٤٧٣٠. ت: الجنة، ب ١٧، ح ٢٥٥٤. ق: المقدمة، ب١٣، ح ١٧٨ و ١٧٩- كلهم عن أبي هريرة وأبي سعيد.

(٢) خ: الصلاة، ب ١٥، ح ٥٢٩، ب٢٥، ح ٥٤٧، تفسير سورة ق، ح ٤٥٧٠، التوحيد، ب ٢٤، ح ٦٩٩٧- ٦٩٩٩. م: الصلاة، ب ٣٧، ح ٢١١ و ٢١٢. د: السنة، ب ٢٠، ح ٤٧٢٩. ت: الجنة، ب ١، ح ٢٥٥١. س: تفسير سورة ق، ح ٥٣٦. ق: المقدمة، ب ١٣، خ ١٧٧- كلهم عن جرير.

عنهما، وبها وقع ما وقع يوم الجمل وصفين، وبها خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الرافضة، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة!!

أدلة المعتزلة ونقضها:

استدل المعتزلة على نفي الرؤية بعدة أدلة منها:

(١) قوله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[1]. فتأبيد النفي بـ «لن» يدل على نفي الرؤية في الآخرة. وفي هذه الآية دليل عليهم من عدة وجوه:

(٢) لو كانت الرؤية غير جائزة على الله لما سألها موسى ﷺ وهو من أعلم الناس بربه.

- إن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه وقال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2].
- إن الله عز وجل قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل: إني لا أرى، أو لا تجوز رؤيتي، وهذا دليل على أنه تعالى يُرى ولكن موسى لا يحتمل ذلك في هذه الدار لضعف قوى البشر فيها.
- إن الله تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل وذاك ممكن مقدور لله عز وجل والمعلَّق على الممكن ممكن.
- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، فإذا جاز أن يتجلى للجبل وهو جماد فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته، ولكن الله تعالى أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

(١) الأعراف: ١٤٣.

(٢) هود: ٤٦.

- إن الله تعالى كلم موسى، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يُسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز؛ ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار الكلام.

أما قولهم: إن تأبيد النفي بلن يدل على نفي الرؤية في الآخرة فهو فاسد؛ لأنها لو قيدت بالتأبيد لا تدل على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت؟

قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾(1). مع قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾(2).

ولو كانت للتأبيد المطلق ما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك:

قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾(3). فثبت أن «لن» لا تقتضي النفي المؤبد، كما قال ابن مالك:

ومـــن رأى النفـــي بلـــن مؤبـــدًا ❊❊❊ فقولـــه اردد وســـواه فاعضـــدا

(٣) قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾(4). وقد رُد استدلالهم بهذه الآية من وجوه، منها:

أن نفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية؛ لأن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا﴾(1). فنفى الإدراك ولم ينفِ الرؤية.

---

(١) البقرة: ٩٥.

(٢) الزخرف: ٧٧.

(٣) يوسف: ٨٠.

(٤) الأنعام: ١٠٣.

أن الآية قد ذكرت في سياق التمدح، والمدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، فالعدم المحض ليس بكمال فلا يمدح به، فقد مدح الله بنفي الموت المتضمن كمال الحياة ونفي اللغوب المتضمن كمال القدرة، ونفي السنة والنوم المتضمن لكمال القيومية.

فلم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمرًا ثبوتيًا؛ ولهذا فإن المعنى هنا: إنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به، وذلك يتضمن كمال عظمته، كما إنه يعلم ولا يحاط به علمًا.

هل رأى محمد ربه ليلة المعراج؟

اتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه، وتنازعوا في نبينا ﷺ خاصة؛ فمنهم من نفى رؤيته بالعين، وهو المشهور عن ابن مسعود وأبي هريرة وعائشة رضي الله عنهم وجماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لمسروق حين سألها: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت ثم قالت: من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب[(٢)].

ومنهم من أثبتها له، فقد روى ابن عباس أنه رآه بعينه، وروى عطاء عنه أنه رآه بقلبه[(٣)]. والأمر ليس فيه نص قاطع، وإنما يقال: الرؤية في الدنيا ممكنة، ولو لم تكن لما سألها موسى عليه السلام، لكن لم يرد نص بأن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، بل ورد ما يدل على نفي ذلك وهو ما رواه مسلم عن أبي ذر قال: « **سألت رسول الله** ﷺ

---

(١) الشعراء: ٦١-٦٢.

(٢) خ: تفسير سورة النجم، ح ٤٥٧٤، التوحيد، ب٤، ح ٦٩٤٥. م: الإيمان، ب ٧٧، ح ٢٨٩. ت: تفسير سورة الأنعام، ح ٣٠٦٨، وتفسير سورة النجم، ح ٣٢٧٨. س: تفسير سورة النجم، ح ٥٤٧، ٥٤٩.

(٣) ابن خزيمة في التوحيد ٤٩٦،٤٧٩١٢، ح ٢٧٢، ٢٨٧. بألفاظ مختلفة موقوفًا على ابن عباس. وراجع: تفسير الدر المنثور للسيوطي فإنه ذكر آثارًا كثيرة في تفسير سورة النجم.

هل رأيت ربك؟ فقال: نور أنىَّ أراه- وفي رواية-: رأيت نورًا»[1].

وفي رواية مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: **«إن الله لا ينام، ولا ينبغي أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور-وفي رواية- النار، لو كشفه لأحرقت سَبُحَاتُ وَجهِهِ ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[2].

فيكون معنى قوله لأبي ذر: «**رأيت نوراً**» أنه رأى الحجاب، ومعنى قوله: «**نور أنّى أراه**»، النور: هو الحجاب الذي يمنع من رؤيته، فأنَّى أراه؟ أي: فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته.

البيان الإجمالي لكلام الطحاوي في مسألة الرؤية:

يقول المصنف -رحمه الله تعالى-: **(والرؤية حق لأهل الجنة)، أي**: لاشك في رؤية أهل الجنة لربهم في الجنة، وكذلك في المحشر قبل دخولهم الجنة، واختلف في رؤية أهل المحشر ربهم على ثلاثة أقوال:

١- لا يراه إلا المؤمنون.

---

(١) م: الإيمان، ب ٧٨، ح ٢٩١ و ٢٩٢. ت: تفسير سورة النجم، ب٥٤، ح ٣٢٨٢، كلاهما عن أبي ذر الغفاري.

(٢) م: الإيمان، ب ٧٩، خ ٢٩٣، ٢٩٥. ق: المقدمة، ب ١٣، خ ١٩٥ و ١٩٦، كلاهما عن أبي موسى الأشعري.

قال النووي في الشرح (٣/ ١٣): قال القاضي عياض: قال الهروي: قال ابن قتيبة: القسط الميزان، وسمي قسطًا؛ لأن القسط العدل، وبالميزان يقع العدل، قال: والمراد أن الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن من أعمال العباد المرتفعة ا. هـ.

وقوله: «سبحات وجهه» قال النووي في الشرح: قال جميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين: معنى سبحات وجهه: نوره وجلاله وبهاؤه، والمراد «بما انتهى إليه بصره من خلقه»: جميع المخلوقات؛ لأن بصره سبحانه وتعالى محيط بجميع الكائنات. ولفظة «من» لبيان الجنس لا للتبعيض. والتقدير:

لو أزال المانع من رؤيته، وهو الحجاب المسمى نورًا أو نارًا وتجلى لخلقه لأحرق جلال ذاته جميع مخلوفاته. والله أعلم أ هـ.

٢- يراه أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار ولا يرونه بعد ذلك.

٣- يراه المؤمنون والمنافقون دون بقية الكفار. وكذلك الخلاف في تكليمه لأهل الموقف.

قوله: (**بغير إحاطة ولا كيفية**) وذلك لكمال عظمته وبهائه، ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾[1]، كما يعلم ولا يحاط به علمًا.

قوله: (**وتفسيره على ما أراد الله وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا**)، أي: كما فعلت المعتزلة بنصوص الرؤية، فالتأويل الصحيح: هو الذي يوافق ما جاءت به السنة، والفاسد: المخالف له، وكل تأويل لم يدل عليه دليل من السياق، ولا معه قرينة تقتضيه فهو رد وغير مقصود.

ذلك أن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه، وذلك له طرق متعددة، منها: التصريح بإرادة ذلك المعنى، ومنها: استعمال اللفظ الذي له معنى ظاهر بالوضع بغير قرينة صارفة، فكيف إذا حف بكلامه ما يدل على إرادة الحقيقة ونفي المجاز، كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[2]. وقوله ﷺ: «**إنكم ترون ربكم عيانًا كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب**».

فإن قيل: إنما نحمله على خلاف ظاهره لاستحالة إرادة الحقيقة. قيل: يمتنع أن يراد خلاف الحقيقة بغير بيان ذلك للسامع، إذا كان المتكلم قد قصد البيان والإيضاح فكيف إذا عرف من الكلام ما يؤكد إرادة الظاهر والحقيقة.

هذا، ولا يجوز أن يتكلم في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة، وفهم

(١) الأنعام: ١٠٣.

(٢) النساء: ١٦٤.

السلف الصالح من هذه الأمة، فإنهم لم ينقلوا نظم القرآن وحده وإنما نقلوا نظمه ومعناه، فما كانوا يتعلمون القرآن كتعلم الصبيان، بل يتعلمون معانيه أيضًا.

قوله: (**فإنه ما سلم في دينه إلا من سلَّم لله ورسوله، ورد علم ما اشتبه فيه إلى عالمه**)، أى: سلم لنصوص الكتاب والسنة، ولم يعترض عليها بالشبه والتأويلات، ولا بقوله: العقل يشهد بضد ما دل عليه النقل؛ إذ لا يتصور أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبدًا، فإذا صح النقل فذلك الذي يُدّعَى أنه معقول إنما هو مجهول، وإذا لم يصح النقل فلا يصلح للمعارضة.

توحيد المرسِل وتوحيد متابعة الرسول:

فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره، فنوحده بالاتباع كما نوحد الله بالعبادة فهما توحيدان لا نجاة إلا بهما:

- توحيد المرسِل بالعبادة.
- توحيد الرسول بالاتباع.

فلا نحاكم إلى غيره، ولا نوقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول أحد من الناس ولا يستشكل قوله لمخالفته لرأي فلان، بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر الأقيسة ونتلقى نصوصه[1]، ولا نحرف كلامه عن

---

(١) قال الإمام أحمد -رحمه الله-: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣] وجعل يكررها ويقول وما الفتنة؟ الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه. وقيل له: إن قومًا يدعون الحديث، ويذهبون إلى رأي سفيان! فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره! قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أوتدري ما الفتنة؟ الكفر. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾، فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ، وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي؟!ا. هـ.

حقيقته لخيال يسميه أصحابه بالمعقول وهو في الحقيقة مجهول، فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يُعلم هل خالفه أو وافقه أُمسك عنه.

الرد على من أنكر الرؤية:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أو تأولها بفهم، إذا كان تأويل الرؤية- وتأويل كل معنى يضاف إلى الرؤية- بترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين).

يشير الشيخ بذلك إلى الرد على المعتزلة ومن قال بقولهم من نفاة الرؤية.

ففي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربعةَ عشرَ وقال: «**إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا لا تضامون**[1] **في رؤيته**».

والتشبيه هنا في الرؤية لا في المرئي؛ لأن كاف التشبيه هنا دخلت على «ما» المصدرية أو الموصولة بـ «ترون » التي تتأول مع صلتها بمصدر هو الرؤية، والمراد بهذا التشبيه إثبات الرؤية وتحقيقها ودفع الاحتمالات عنها.

أفبعد هذا يحتمل مثل هذا النص أن يكون معناه: إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة

(١) تضامون بتشديد الميم وتخفيفها. تضامُّون (بالتشديد) من الضم ومعناه تزاحمون، وتضامون (بالتخفيف) من الضيم، أي: لا يظلم بعضكم بعضًا. انظر: لسان العرب ص٢٦٢٩.

البدر ويستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾[1] . ونحوه مما استعمل فيه «رأى» التي هى من أفعال القلوب؟

ولا شك أن «رأى» تكون بصرية، وتكون قلبية، وتكون من رؤيا الحلم، ولكن لا يخلو الكلام من قرينة تعين المراد، وإلا كان المتكلم مجملاً مُلغِزًا لا مُبِّيناً موضِّحًا.

وأي بيان فوق قوله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب**».

فإن قالوا: ألجأنا إلى ذلك حكم العقل باستحالة الرؤية، قلنا: ذلك قولكم بأفواهكم، وقد خالفكم فيه كثير من العقلاء، بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن أن يرى لحكم بأن هذا محال.

قول المصنف رحمه الله تعالى: (**لمن اعتبرها منهم بوهم**)، أي: توهم أن الله يُرى على صفة كذا، فتوهم تشبيهًا فإن أثبته على هذا الوصف فهو مشبه، وإن نفاها من أصلها لأجل ذلك الوهم فهو معطل.

فالمعتزلة يزعمون تنـزيه الله بنفيهم الرؤية، مع أن نفي الرؤية ليس بكمال، فإن المعدوم لا يرى أيضًا، وإنما الكمال في إثبات الرؤية ونفي إدراك الرائي له إدراك إحاطة،كما أن الكمال في إثبات العلم ونفي الإحاطة به علمًا.

قوله: (..**أو تأولها بفهم**)، أي: ادّعى أنه فهم تأويلاً يخالف ظاهرها، والتأويل عند المتأخرين: صرف اللفظ عن ظاهره، وبه تسلط المحرفون على النصوص، وقالوا: نتأول ما يخالف قولنا؛ فسموا التحريف تأويلاً.

---

(١) الفجر: ١٦.

ومراد الشيخ: ترك هذه التأولات الفاسدة المبتدعة التي دل الكتاب والسنة على فسادها.

أنواع التأويل:

(١) **التأويل في الكتاب والسنة وكلام السلف**: هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام سواء كان موافقًا للظاهر أو مخالفًا له.

- فتأويل الخبر هو عين المخبر به.
- وتأويل الأمر نفس الفعل المأمور به.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[2].

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه: «**سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي**»، يتأول القرآن[3]. فما كان من تأويل الأخبار كالإخبار عن الله واليوم الآخر قد لا يعلم تأويله الذي هو حقيقته ولكن لا يلزم من ذلك نفي العلم بالمعنى الذي قصد المتكلم إفهام المخاطب إياه؛ لأنه ما من آية في القرآن إلا وقد أمرنا بتدبرها.

(٢) **أما التأويل في كلام كثير من المفسرين**: كابن جرير ونحوه فهو تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق الظاهر أو خالفه، وهو كالتفسير، يحمد حقه، ويرد باطله.

---

(١) الأعراف: ٥٣.

(٢) يوسف: ١٠٠.

(٣) الصلاة، ب ٤، خ ٧٦١، ب ٥٥، ح ٧٨٤، المغازي، ب ٤٨، خ ٤٠٤٢، تفسير سورة النصر، خ ٤٦٨٣ و ٤٦٨٤. م: الصلاة، ب ٤٢، ح ٢١٧- ٢٢٠. د: الصلاة، ب١٥٢، خ ٨٧٧. س: الصلاة، ب ٣٥٧، ح ١٠٤٨، ب ٤١١، ح ١١٢٣، ب ٤١٢، ح١١٢٤، تفسير سورة النصر.

(٣) **أما التأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين:** فهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح؛ لدلالة توجب ذلك، ومنه الصحيح وهو ما وافق الكتاب والسنة، والفاسد وهو ما خالفهم.

بيان قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾(١) فيها قراءتان، وكلتا القراءتين حق:

- **قراءة من يقف على قوله:** ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾: ويراد بها المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله، ولا يراد بالتأويل هنا تفسير المعنى؛ لأن لازم ذلك أن يكون الله قد أنزل على رسوله كلامًا لا يعلم معناه أحد من الخلق.

ويكون الراسخون في العلم لا حظَّ لهم فيه سوى قول: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾(٢). وهذا يقوله غيرهم من العوام، ويجب امتياز الراسخين في العلم عن العوام في ذلك.

قال ابن عباس: أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله، وقد تواترت النقول عنه أنه تكلم في جميع معاني القرآن.

قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أوقفه عند كل آية وأسأله عنها، أما قول الأصحاب: إن المتشابه هو الحروف المقطعة في أوائل السور، فهذه الحروف قد تكلم في معناها كثير من الناس، فإن كان معناها معروفًا فقد علم المتشابه، وإلا كان ما سواها معلوم المعنى وهو المطلوب. وقال تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾(٣). وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العادّين.

- **قراءة من لا يقف عندها:** ويراد بها المتشابه الإضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله.

(١) آل عمران: ٧.

(٢) آل عمران: ٧.

(٣) آل عمران: ٧.

وقد سئل بعض السلف عن آيات الصفات؛ فقال: نمرها على ما جاءت، ونؤمن بها، ولا نقول: كيف كيف. ويجب أن يعلم أن المعنى الفاسد الكفري ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه، ومن زعم ذلك فإنما هو لقصور فهمه ونقص علمه، بل ما دل عليه القرآن فهو حق، وما كان باطلاً لم يدل عليه.

ثم يقال لهؤلاء المؤولين: إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ؟ فإن قلتم: ما دل القاطع العقلي على استحالته تأولناه وإلا أقررناه. قلنا: وبأى عقل نزن هذا القاطع العقلي؟

سوف يزعم القرمطي الباطني قيام القواطع على بطلان ظاهر الشرع.

ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان الحشر.

ويزعم المعتزلي قيام القواطع على انعدام الرؤية وهكذا.

فيلزم محذوران عظيمان:

(١) ألا نقر شيئًا من معاني الكتاب والسنة حتى نبحث عن إمكانه بالعقل، وكل طائفة من المختلفين تزعم أن العقل يدل على ما ذهبت إليه.

(٢) اضطراب الاعتقاد بما أخبر به الرسول؛ إذ لا يوثق أن الظاهر مراد، فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الإرشاد والدلالة على الحق.

ولهذا نجد أهل التأويل يذكرون النصوص للاعتضاد لا للاعتماد، فإن وافقت العقل قبلوها، وإلا أولوها، وهذا فتحٌ لباب الزندقة، فنسأل الله العافية.



علم الله تعالى وقدرته

علم الله:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (خلق الخلق بعلمه).

وقال: (ولا يخفى عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلِم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم).

خلق: أوجد وأنشأ وأبدع، وتأتي بمعنى قدَّر. والخلق بمعنى المخلوق أي: خلقهم عالمًا بهم.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[(٢)].

---

(١) الملك: ١٤.

(٢) الأنعام: ٥٩.

والدليل العقلي على علمه تعالى:

- أن إيجاد الأشياء يستلزم الإرادة، والإرادة تستلزم العلم بالمراد.
- وأن في المخلوقات من الإحكام ما يستلزم علم الفاعل لها.
- ولأن العلم صفة كمال، ومن المخلوقات من هو عالم فيمتنع أن يكون الخالق لها غير عالم.

قدرة الله:

قال المصنف-رحمه الله تعالى-: (ولا شيء يعجزه).

هذا بيان لكمال قدرته عز وجل، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾(١).

فهذا النفي في كلام الشيخ لثبوت كمال ضده، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة فإنما هو لثبوت كمال ضده، فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(٢)؛ لكمال عدله، وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾(٣)؛ لكمال حياته وقيوميته، وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾(٤)؛ لكمال قدرته، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه، فقول الشاعر:

وقبيلـــة لا يغـــدرون بذمـــة * ولا يظلمـون النـاس حبـة خـردل**

لا يدل على مدح، بل المراد به بيان عجزهم وضعفهم وذلك لما ذكره قبل هذا البيت وبعده وتصغيرهم بقوله: قُبيلة.

---

(١) الكهف: ٤٥.

(٢) الكهف: ٤٦.

(٣) البقرة: ٢٥٥.

(٤) ق: ٣٨.

ولهذا يأتي الإثبات للصفات في كلام الله مفصلاً والنفي مجملاً، عكس طريقة أهل الكلام المذموم؛ فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل، وهذا الأسلوب على ما فيه من مخالفة لطريقة الكتاب والسنة فإن فيه إساءة أدب، فلو قلت للسلطان: أنت لست بزبال ولا حجام ولا حائك؟ لأدبك وإن كنت صادقًا، فإذا أجملت في النفي فقد أجملت في الأدب. والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية هو سبيل أهل السنة، أما المعطلة فإنهم يجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده، واعتماده، فغالب عقائدهم السلوب «ليست بكذا» وأكثره ليس متلقًّى من الكتاب والسنة، وأما الإثبات فهو قليل وهو أنه عالم قادر حي.

ولا يعتبر قول الشيخ: (**ولا شيء يعجزه**) من النفي المذموم؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾[1].

فقد نبه في آخر الآية على دليل انتفاء العجز وهو كمال العلم والقدرة، فإن مرد العجز إما إلى الضعف أو الجهل، وقد أثبت الله في الآية علمه وقدرته فانتفى العجز، بالإضافة إلى أن العاجز لا يصلح أن يكون إلهًا، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

(١) فاطر: ٤٤.



هـو الأول والآخر

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء).

هذا هو معنى اسمه الأول والآخر، والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطرة، فإن الموجودات لابد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته؛ قطعًا للتسلسل.

وإدخال اسم القديم في أسماء الله تعالى من صنيع المتكلمين، وليس من أسماء الله الحسنى، فإن القديم في لغة العرب يطلق على المتقدم على غيره لا فيما لا يسبقه عدم. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[1].

والعرجون القديم هو الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، فإذا وجد الحديث قيل للأول قديم.

ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً في نفس التقدم فإن ما يقدم على الحوادث كلها أولى بالتقدم من غيره، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى التي تدل على خصوص ما

(١) يس: ٣٩.

يمدح به، والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها؛ ولهذا فقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف منهم ابن حزم.

وجاء الشرع باسم الأول وهو أحسن من القديم؛ لأنه يشعر أن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف القديم، والله تعالى له الأسماء الحسنى.



الحــى القيـــوم

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (حي لا يموت قيوم لا ينام).
وقال: (لا يفنى، ولا يبيد).

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾[1] فنفي السِّنَة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته، وقد أشار بذلك إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه بذكر ما يتصف به تعالى دون خلقه.

من ذلك أنه حي لا يموت، فالحياة الباقية خاصة به دون خلقه؛ لأنهم يموتون.

ومن ذلك أنه قيوم لا ينام بخلاف خلقه فإنهم ينامون، وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه لا يستلزم نفي الصفات، فالحي بحياة باقية دائمة لا يشبه الحي بحياة زائلة، أما دوام حياة أهل الجنة فذلك بإدامة الله لها، وليس وصفًا لازمًا لها لذاتها.

وهذان الاسمان: «الحي القيوم» من أعظم أسماء الله الحسنى، وقيل: إنهما الاسم

(١) البقرة: ٢٥٥.

الأعظم[1] لأنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه.

ويدل اسم «القيوم» على معنى الأزلية والأبدية أكثر مما يدل عليه لفظ القديم، كما يدل على كونه موجودًا بنفسه وعلى قيامه بنفسه باتفاق، وعلى قيامه على غيره على أصح القولين، واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال ويدل على بقائها ودوامها. فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما ترجع معانيها؛ فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، ولا يتخلف عنها صفة إلا لضعف الحياة، وحياته تعالى أكمل حياة وأتمها. وأما القيوم فإنه يتضمن كمال غناه وقدرته، فانتظم بهما كل صفات الكمال.

ومن ثم كان قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[2]. أعظم آية في القرآن[3].

وقوله: (**لا يفنى، ولا يبيد**) إقرار بدوام بقائه، والفناء والبيد متقاربان في المعنى، والجمع بينهما للتأكيد.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾[4].

---

(١) عن أنس أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا، ورجل يصلي ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**». صحيح سنن أبي داود: ١٣٢٦.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

(٣) ومن اللغو ما يقوله بعض أهل الكلام من الأشاعرة وغيرهم تهوينًا لشأن هذين الاسمين كقولهم: إن الحي هو الدَّراك الفعال وهذا ليس فيه كثرة عظمة، والقيوم دال على مجموع سلب وإضافة! انظر: تفسير الفخر الرازي: ١/١٢٢، ط: دار الفكر.

(٤) الرحمن: ٢٦-٢٧.



العـــرش والكرســـتي

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (والعرش والكرسي حق).

العـــرش:

العرش في اللغة: سرير الملك، قال تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[(١)].

وقد استفاضت النصوص بذكره، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[(٤)].

وفي صحيح البخاري: قال ﷺ: **«إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن»**[(٥)].

(١) النمل: ٢٣.

(٢) غافر: ١٥.

(٣) طه: ٥.

(٤) الحاقة: ١٧.

(٥) الجهاد، ب٤، ح ٢٦٣٧، التو حيد، ب ٢٢، ح ٦٩٨٧. ت: الجنة، ب ٤ء ح ٢٥٣٠ و ٢٥٣١. ق: الزهد، ب٣٩، ح ٤٣٣١. حم: ٢/٣٣٥ و ٣٣٩- عن معاذ بن جبل وأبي هريرة وعبادة بن الصامت.

روي «فوقه» بالنصب على الظرفية، وبالرفع على الابتداء، أي: وسقفه.

وذهب بعض أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم، وربما سموه الفلك الأطلس، أو الفلك التاسع، وهو غير صحيح لسببين:

(١) ما ثبت في الشرع من أنه له قوائم تحمله الملائكة: قال ﷺ: «.. **فإن الناس يصعقون، فَأَكُون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، لا أدري، أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور**»[١].

وقال ﷺ: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**»[٢].

(٢) ما ثبت في اللغة: من أن العرش هو السرير الذي للملك، وليس هو فَلَكًا ولا تفهم منه العرب ذلك فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المَخْلُوقَات. فمن شعر عبد الله بن رَوَاحَة يعرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته:

شهـــدت بـــأن وعـــد الله * وأن النـــار مثـــوى الكافرينـــا**

وأن العـــرش فـــوق المـــاء طـــافٍ * وفـــوق العـــرش رب العالمينـــا**

وتحملــــه ملائكــــة الإلــــه شــــدادٌ * ملائكــــة الإلــــه مســــومينا**

وأما من جعل العرش عبارة عن الملك، فكيف يصنع بقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ

(١) متفق عليه. خ: الخُصُومَات، ب ا، ح ٢٢٨٠ و ٢٢٨١،الأنبياء، ب ٢٧، ح ٣٢١٧، ب ٣٢، ح ٣٢٢٧، ب ٣٦، ح ٣٢٣٣، تفسير سورة الأعراف، ح ٤٣٦٢، وتفسير سورة غافر، ح ٤٥٣٥، الرقاق: ب ٤٣، ح ٦١٥٢ و ٦١٥٣، الديات، ب٣١، ح ٦٥١٩، التوحيد، ب ٢٢، ح ٦٩١١، ب٣١، ح ٧٠٣٤. م: الفضائل، ب٤٢، ح ١٥٩، ١٦٣. س: تفسير سورة الزمر، ح ٤٧٢ و ٤٧٣. حم: ٣٣/ ٣- عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري.

(٢) السنة، ب١٩، ح ٤٧٢٧- عن جابر بن عبد الله، وهو حديث صحيح. وقد استوعب تَخْرِيجه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١/ ص ٧٢، ح ١٥١. ١٥٠.

ﵟثَمَٰنِيَةٞﵞ(١). أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية؟ وقوله: ﵟوَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِﵞ(٢). أيقول: وكان ملكه على الماء؟ ويكون موسى عليه السلام آخذًابقائمة من قوائم الملك؟

الكـــرســـــي:

وأما الكرسي فهو بين يدي العرش كالمرقاة إليه، قاله غير واحد من السلف.

قال تعالى: ﵟوَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَﵞ(٣).

وروى ابن أبي شيبة والحاكم عن ابن عباس أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى». وقد روي مرفوعًا، والصواب وقفه على ابن عباس، وقال السديّ: السماوات والأرض في جوف الكرسى بين يدي العرش. وقال ابن جرير: قال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**».

ونسب إلى ابن عباس أنه قال: كرسيه علمه، والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة كما تقدم، ومن قال غير ذلك فلا دليل عليه إلا مجرد الظن، ولعله من جراب الكلام المذموم.

(١) الحاقة: ١٧.

(٢) هود: ٧.

(٣) البقرة: ٢٥٥.



الغضـــب والـــرضـــا

قـال المصـنف -رحمـه الله تعـالى-: (والله يغضـب ويرضـى، لا كأحد من الورى).

مذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضا، والعداوة والولاية، والحب والبغض، ونحو ذلك من الصفات، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[(1)]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[(2)].

وقول الشيخ: **(لا كأحد من الورى)** نفي للتشبيه.

الرد على الجهمية في نفيهم لهذه الصِّفَات:

نفى الجهمية ومن تابعهم هذه الصفات، وتأولوا الغَضَب بأنه إرادة الانتقام، والرضا بأنه إرادة الإحسان، وقد رد عليهم بأن هذا نفي للصفة، وقد اتفق أهل السنة على أن الله قد يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كان لا يريده، ولا يَشَاؤُهُ، وينهى عما يسخطه ويكرهه وإن كان قد شاءه وأراده.

(1) الفتح: ١٨.

(2) النساء: ٩٣.

ثم يقال لهذا المتأول: لم تأولت ذلك؟

فإن قال: لأن الغَضَب غليان دم القلب، والرضا: الميل والهوى، وذلك لا يليق بالله تعالى.

قلنا له: فكذلك الإرَادَة هي ميل الحي إلى الشيء، أو إلى ما يلائمه ويناسبه، فإن الحي منَّا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة، وهو محتاج إلى ذلك مفتقر إليه، فإن جاز هذا جاز ذاك، وإن امتنع هذا امتنع ذاك.

فإن قال: الإرادة التي يوصف بها الله مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد، وإن كان كل منهما حقيقة.

قلنا: فكذلك الغضب والرضا وإن كان كل منهما حقيقة، فإن كان ما يقال في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات فقد وجب ترك التأويل لنسلم من التناقض، ونسلم أيضًا من التعطيل، فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بلا موجب حرام. ولا يقال: إن الموجب للصرف هو ما دل عليه العقل؛ إذ العقول متفاوتة.

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى، فإنه لا بد أن يثبت شيئًا لله تعالى على خلاف ما يعهده فيحتج عليه بما أثبته لإلزامه بما نفاه، وإذا كان الجهم ومن وافقه قد نفوا كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وقالوا: لا يتصف بشيء من ذلك بل هي أمور مخلوقة منفصلة عنه، فإن ابن كلاب ومن وافقه عارضوا هؤلاء، وقالوا: جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة أزلية، فلا يرضى في قت دون وقت، ولا يغضب في وقت دون وقت، فلا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلاً؛ إذ لو تعلقت بذلك لكان محلاً للحوادث.

ويرد عليهم حديث الشفاعة وفيه قوله ﷺ: «**إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب**

قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله».

وقوله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول لأهل الجنة، يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»[1]. فيستدل بهذا الحديث على أنه قد يحل رضوانه في وقت دون وقت، وإنه قد يحل رضوانه ثم يسخط كما يحل السخط ثم يرضى. فنفى هؤلاء الصفات العقلية الذاتية مطلقًا بهذا الأصل كما نفى أولئك الصفات مطلقًا بقولهم وليس محلاً للإعراض.

(١) خ: الرقاق، ب ٥١، ح٦١٨٣، التوحيد، ب٣٨، ح٧٠٨٠. م: الجنة، ب٢، ح٩. ت: الجنة، ب١٨، ح٢٥٥٥ - كلهم عن أبي سعيد الخدريّ.



الخلــــة والمحبـــــة

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونقول: إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً، وكلم الله موسى تَكْلِيمًا، إيمَانًا وَتَصْدِيقًا وَتَسْلِيمًا).

الخُلة: كمال المحبة، وهي ثابتة لله على وجه يليق به، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (1). وقالﷺ: «لو كنت مُتَّخِذًا من أهل الأرض خَلِيلاً لاتخذت أبا بكر خَلِيلاً ولكن صاحبكم خليل الله».

وفي رواية: «إني أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت مُتَّخِذًا من أهل الأرض خَلِيلاً لاتخذت أبا بكر خَلِيلاً» (2).

الفرق بين الخلة والمحبة:

الخلة أخص من مطلق المحبة، فقد بين ﷺ أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خَليلاً(3)، وأنه لو أمكن ذلك لكان أحقَّ الناس به أبو بكر، مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه

(1) النساء: ١٢٥.

(2) خ: الصلاة،ب٤٦،ح ٤٥٤، فضائل الصحابة، ب ٣، ح ٣٤٥٤، ب٥، ح ٣٤٥٦ و ٣٤٥٧، ب٧٤، ح ٣٦٩١،، الفرائض، ب ٨، ح ٦٣٥٧. م: المساجد، ب٣، ح ٢٣، فضائل الصحابة ب ١،ح ٢-٧. عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدريّ.

(3) الخلة من النبي ﷺ لمن دونه من الصحابة ممتنعة بالنص أما خلة الصحابة وغيرهم من المسلمين للنبي ﷺ غير ممتنعة ويجوز إطلاقها؛ لذا كان بعض الصحابة إذا أراد أحدهم أن يحدث عن النبي ﷺ قال: قال خليلي أو حدثني

يحب أَشْخَاصًا كقوله لمعاذ: «**والله إني لأحبك**»[1]، وكذلك قوله للأنصار، وكان أسامة بن زيد حِبَّ رسول الله وابن حِبِّه. فالخلة إذن أخص من مطلق المحبة، ومن كمالها أن المحبوب بها محبوب لذاته، وأنها لا تقبل الشركة ففيها كمال التوحيد وكمال الحب.

ولذلك أمر الله خليله إبراهيم بذبح ولده لما أخذ منه شعبة من قلبه، غيرة من الله على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره، فلما استسلم لربه، وظهر سلطان الخلة جاء الفداء لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح مفسدة فنسخ في حقه. وكما أن منـزلة الخلة ثابتة لإبراهيم قد شاركه فيها نبينا ﷺ، فإن منـزلة التكليم ثابتة لموسى قد شاركه فيها نبينا ﷺ كما في حديث المعراج.

وقد أنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين، زَعمًا منهم أنها لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، ولا تناسب بين القديم والحديث، كما أنكروا حقيقة التكلم. وأول من ابتدع ذلك هو الجعد بن درهم في أوائل المائة الثانية، وضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسط، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين. وأخذ هذا المذهب عن الجعد الجهم بن صفوان، وإليه نسبت الجهمية، فقتله مسلم بن

خليلي، ومثل هذا كثير في السنة. وكذلك قوله ﷺ: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**». أما قول= =البعض: إن الخلة لا تجوز منا للنبي ﷺ ولا بين المؤمنين بعضهم لبعض؛ لأن هذا يستلزم أن لا يبقى شيء من الحب لله تعالى؛ لأن الخلة منتهى الحب وذروته، فيرد عليه من وجهين:

أولهما: وجود النصوص الشرعية الدالة على ثبوت هذا النوع من الخلة، كقوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ولقوله ﷺ: «**فلينظر أحدكم من يخالل**».أما **الثاني**، أن هذه الخلة في حقيقتها هي معقودة في الله ولله وليست لذات الخليل وإلا لكانت شركًا والعياذ بالله.

(١) الصلاة، ب ٣٦١، ح ١٥٢٢. س: الصلاة، ب ٥١٣، خ ١٣٠٤. حم.٢٤٥/ ٥ و ٢٤٧- عن معاذ بن جبل. وهو حديث صحيح.

أحوز أمير خراسان بها، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد، وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون حتى امتحن أئمة الإسلام ودعاهم إلى الموافقة على ذلك.

وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة، وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلاً وموسى كليمًا؛ لأن الخلة: هي كمال المحبة المستغرقة للمحب كما قيل:

قــد تخللــت مســلك الــروح منــي * ولـــذا سُـــمِّي الخليـــل خلـــيلاً**

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى كسائر صفاته.

وها هنا مسألة: إذا كان النبي ﷺ أفضل من إبراهيم، فكيف يطلب له من الصلاة مثل ما لإبراهيم مع أن الأصل في المشبه به أن يكون فوق المشبه؟ وقد أجيب عن ذلك بأجوبة عديدة، وأحسنها جوابان:

- إن آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس من آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبي وآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء، حصل لآل محمد ما يليق بهم لا يبلغون مراتب الأنبياء، وتبقى الزيادة التي للأنبياء- وفيهم إبراهيم- لمحمد ﷺ، فيحصل له من المزية ما لم يحصل لغيره.
- النبي من آل إبراهيم، بل أفضل آل إبراهيم، فيكون قولنا: كما صليت على آل إبراهيم مُتَنَاوِلاً الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم.

الخَصَائِص التي خص الله بها بيت إبراهيم:

لما كان بيت إبراهيم أشرف بيوت العالم على الإطلاق خصهم الله بخصائص، منها:

- أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته.
- أنه جَعَلَهُمْ أئمة يهدون بأمر الله، فمن دخل الجنة من بعدهم فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم.

- أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين.
- أنه جعل صاحب هذا البيت إمامًا للناس، وأجرى على يديه بناء بيته الحرام.
- أنه أمر عباده أن يصلوا على أهل هذا البيت.



تنـزيه الله عن الظلم

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبداً). وقال: (وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله).

وقال: (يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلاً).

الذي دل عليه القرآن من تنـزيه الله نفسَه عن ظلم العباد، يقتضي قَوْلاً وَسَطًا بين قولي القدرية والجبرية. فليس ما كان من ابن آدم ظُلْمًا وَقَبِيحًا يكون منه ظُلْمًا وَقَبِيحًا،كما يقول القدرية والمعتزلة، فإن ذلك يقتضي تمثيل الله بخلقه، وقياسه عليهم، وهو ظاهر الفساد. وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، كما يقوله بعض المتكلمين، يقولون: كل ما كان مُمْكِنًا مقدورًا لله عز وجل، فلا يكون ظُلْمًا منه إن فعله؛ لأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهي، وهو باطل للأدلة الآتية:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[(1)]. وقال تعالى:

(1) طه: ١١٢.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1]. وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته فيما بينكم مُحرّمًا فلا تظالموا**»[2].

ووجه الدلالة في هذه النصوص: أن الله حرم على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة، وإنما حرم على نفسه وكتب على نفسه ما هو قادر عليه، لا ما هو ممتنع عليه. وَأَيْضًا فإن الإنسان لا يَخَاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك، وإنما يأمن مما يمكن، فلما آمنه من الظلم بقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ علم أنه ممكن مقدور عليه. وقد فسر السلف الظلم في قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، بأن توضع عليه سيئات غيره، والهضم: أن يُنْقص من حسناته.

وأنه يلزم على قولهم ألا يكون الله منـزهًاعن شيء من الأفعال أَصْلاً ولا حقيقة لفعل السوء، بل ذلك ممتنع، والممتنع لا حقيقة له، والقرآن يدل على نقيض ذلك.

فقد نزّه الله نفسه عن فعل ما لا ينبغي له، فعلم أنه منـزّهٌ عن فعل السوء، والفعل المعيب المذموم، كما أنه منـزه عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[3]. فنـزه نفسه عن خلق الخلق عَبَثًا، وأنكر على من حسب ذلك. وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[4]. فأنكر على من جوّز عليه أن يسوي بين هذا وهذا.

عذابه عدل، ورحمته فضل:

وقد قال النبي ﷺ: «**لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم**

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) م الأدب، ب ١٥، ح ٥٥. حم: ١٦٠/ ٥. ك: ٢٤١/ ٤- عن أبي ذر الغفاريّ.

(٣) المؤمنون: ١١٥.

(٤) القلم: ٣٥-٣٦.

هم، ولو رحمهم كانت رحمته خَيْرًا لهم من أعمالهم»[1].

احتج الجبرية بهذا الحديث على مذهبهم الفاسد، وتلقاه القدرية إما بالتكذيب وإما بالتأويل[2] وكان أسعد الناس به أهل السنة الذين قابلوه بالتصديق، وعلموا من عظمة الله وجلاله قدر نعمه على خلقه وعجزهم عن القيام بشكرها كما ينبغي، كما علموا عظيم حقه على خلقه من أن يطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشْكر فلا يُكفر، وأن يكون القلب عَاكِفًا على إفراده بالمحبة والتأليه، واللسان مَحْبُوسًا على ذكره، والجوارح وَقْفًا على طاعته.

رأوا ذلك ففقهوا كيف أن الله عز وجل لو وضع عدله على أهل سماواته وأرضه لعذبهم بعدله، ولم يكن ظَالِمًا لهم، فلا يسع الخلائق إلا عفوه ورحمته عز وجل. قال ﷺ: «**لن ينجي أَحَدًا منكم عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[3].

(١) د: السنة، ب١٧، ح ٤٦٩٩. ث: المقدمة، ب، ١، ح ٧٧. حم: ١٨٩/ ٥- عن أُبيّ بن كعب وزيد ابن ثابت. وهو حديث صحيح.

(٢) منشأ الفساد في المذهبين: أن الجبرية فهمت طلاقة المشيئة الإلهية على أنها مجردة عن الحكمة والعدل والرحمة، مع أن الله تعالى يتصف بهذه الصفات جميعًا بلا تعارض بينها. والقدرية فهمت من جريان أحكام الله عز وجل وفق سنن ثابتة عادلة أن ذلك واجب عليه لا يستطيع تَغْيِيره، تعالى الله عن ذلك علوًّا كَبِيرًا. فأولئك غفلوا عن الحكمة والعدل، وهؤلاء غفلوا عن المشيئة والإرادة. واللهَّ أعلم.

(٣) م: المنافقين، ب ١٧، ح ٧١- ٧٨. حم: ٤٨٢/ ٢ و ٤٨٨- عن أبي هريرة.



تنزيه الله عز وجل عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات).

للناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال:

- فطائفة تنفيها.
- وطائفة تثبتها.
- وطائفة تفصل.

وهؤلاء الذين يفصلون هم المتبعون للسلف؛ لأن في هذه الألفاظ إجمالاً وإبهامًا، وليس كل الناس يستعملها في نفس معناها اللغوي؛ ولهذا كان النفاة ينفون بها حقًّا وَبَاطِلاً، ويذكرون عن مثبتها ما لا يقول به. وبعض المثبتين لها يدخل معنى بَاطِلاً مُخَالِفًا لقول السلف ولما دل عليه الكتاب والميزان لا سيما وأن هذه الألفاظ لم يرد نص من الكتاب

والسنة بنفيها ولا بإثباتها؛ ولهذا فإن الواجب في باب الصفات أن نثبت ما أثبته الله ورسوله، وأن ننفي ما نفاه الله ورسوله، أما ما لم يرد نص بإثباته ولا بنفيه كهذه الألفاظ فإنه ينظر في مقصود قائله: فإن كان معنى صَحِيحًا قيل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص دون هذه الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة، كأن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود منها إلا به، وحينئذ فلا بد من قرائن تبين المراد.

والشيخ -رحمه الله- قد قصد بهذا الكلام الرد على المشبهة كَداود الجَوَارِبِي وأمثاله القائلين بأن الله جسم، وأنه جثة وأعضاء، ومقصوده[1] هذا صحيح، ولكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقًّا وَبَاطِلاً فاحتاج الأمر إلى بيان.

- فقوله: **(تعالى عن الحدود)**. **الحَدُّ**: هو ما ينفصل به الشَّيء ويتميز به عن غيره، أي: أن الله تعالى عن أن يحيط أحد بحده؛ لأنه متميز عن خلقه، منفصل عنهم، مباين لهم، وقد اتفق السلف على أن البشر لا يعلمون لله حدًّا وأنهم لا يحدون شيئًا من صفاته، وهذا هو مراد الشيخ بقوله: **(تعالى عن الحدود)**.

وإذا كان الحد -كما أسلفنا- يقال على ما ينفصل به الشَّيء ويتميز به عن غيره، والله تعالى غير حالٍّ في خلقه ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه القيم لما سواه، فَالْحَدُّ بهذا المعنى لا يجوز أن تكون فيه منازعة، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفي وجود الرب ونفي حقيقته. سُئل عبد الله بن المبارك: بم نعرف ربنا؟ قال بأنه على العرش، بائن من خلقه، قيل: بحد. قال: بحد.

- **أما ألفاظ**: «**الأركان والأعضاء والأدوات**»: فالركن جزء من الماهية، والله لا يتجزأ. والأعضاء فيها معنى التفريق وَالْبَعْضِيَّة، تعالى الله عن ذلك. والجوارح فيها معنى

(١) أي: مقصود الطحاوي.

الاكتساب والانتفاع، وكذلك الأدوات وهي الآلات التي ينتفع بها في جلب النفع ودفع الضر.

كل هذه المعاني منتفية عن الله عز وجل؛ ولهذا لم يرد ذكرها في صفاته، فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فيجب ألا يعدل عنها لغيرها حتى لا يُنفى معنى صحيح أو يُثبَت معنى فاسد.

ولكن فريقًا من المعطلة يستدلون بذلك على نفي الصفات الثابتة بالأدلة القطعية كاليد والوجه. قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر: له يد ووجه ونفس، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف، ولا يقال: إن يده قدرته ونعمته؛ لأن فيه إبطالاً للصفة.

وهذا الذي ذكره الإمام ثابت بالأدلة القاطعة: قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[3]. وقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[4]. وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[5]. وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[6].

(١) ص: ٧٥.
(٢) الزمر: ٦٧.
(٣) القصص: ٨٨.
(٤) الرحمن: ٢٧.
(٥) الأنعام: ٥٤.
(٦) آل عمران: ٢٨.

ولا يصح تأويل اليد بالقدرة، فإن قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1]. لا يصح أن يكون معناه بقدْرتي مع تثنية اليد- ولو صح ذلك لقال إبليس: وأنا خلقتني بقدرتك أَيْضًا فلا فضل له عليَّ بذلك.

- **أما لفظ الجهة:** فقد يراد به ما هو موجود، وقد يراد به ما هو معدوم. فإذا أُريدَ بها أمر موجود غير الله كان مَخْلُوقًا، والله لا يحصره شَيء، ولا يحيط به شَيء من المَخْلُوقَات. وإن أُريدَ بها أمر عدمي وهو ما فوق العالم فليس هناك إلا الله وحده، فإذا قيل: إنه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح، ومعناه: أنه فوق العالم حيث انتهت المَخْلُوقَات فهو فوق الجميع عالٍ عليه. ونفاة لفظ الجهة الذين يريدون بذلك نفي العلو يذكرون من أدلتهم أن الجهات كلها مخلوقة وأنه كان قبل الجهات، وأن القول بالجهة يلزمه القول بقدم شَيء من العالم، وأنه كان مُسْتَغْنِيًا عن الجهة ثم صار فيها.

وهذه العبارات تدل على أنه ليس في شَيء من المَخْلُوقَات سواء سمي جهة أو لم يُسَمَّ، وهذا حق، ولكن الجهة ليست أمرًا وُجُوديًّا بل أمرًا اعتباريًّا، ولاشك أن الجهات لا نهاية لها وما لا يوجد في ما لا نهاية له فليس بموجود.

وقول المصنف -رحمه الله تعالى-: (**ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات**)،أي: أن الله لا يحيط به شيء ولا يحويه شَيء، بل هو المحيط بكل شَيء والعالي على كل شيء، هذا هو مراد الشيخ بهذه العبارة بدليل قوله بعد ذلك: (**وأنه محيط بكل شيء وفوقه**). ولكن في عبارته إجمال وإبهام بالتناقض في إثبات الإحاطة والفوقية ونفي جهة العلو، وإن أُجيبَ عنه بأنه نفى أن يحويه شيء من مخلوقاته، ومن ثم فقد كان تركه والاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى.

---

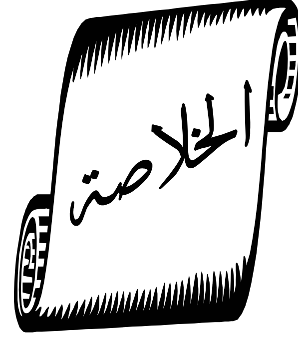
(١) ص: ٧٥.

ومن ناحية أخرى فإن قوله: **(كسائر المبتدعات)** يفهم منه أنه ما من مبتدع إلا وهو محوي، وفيه نظر:

- فإن أراد أنه محويٌّ بأمر وجوديٍّ فممنوع، فإن العالم ليس في عالم آخر وإلا لزم التسلسل.
- وإن أراد أمرًا عدميًّا فليس كل مبتدع في العدم، بل منها ما هو داخل في غيره كالسماوات والأرض في الكرسي، ومنها ما هو منتهى المَخْلُوقَات كالعرش.
- وإن كان يمكن أن يجاب عن ذلك بأن «سائر» بمعنى البقية لا بمعنى الجميع، ومنه السؤر. وهو ما يبقيه الشارب في الإناء، فيكون المعنى أنه تعالى غير محوي كما يكون أغلب المَخْلُوقَات مَحْوِيًّا بل هو غير محوي بِشَيء، تعالى الله عن ذلك.

ولا يظن بالشيخ أنه يقول: إن الله ليس داخل العالم ولا خارجه، بل مراده أنه منـزه عن أن يحيط به شيء من مخلوقاته، وأن يكون مُفْتَقِرًا إلى شيء منها كالعرش أو غيره(1).

(١) قال الشيخ ابن باز في تعليقه على متن الطحاوية: هذا الكلام فيه إجمال قد يستغله أهل التأويل والإلحاد في أسماء الله وصفاته وليس لهم بذلك حجة؛ لأن مراده رحمه الله تنـزيه الباري سبحانه عن مشابهة المخلوقات لكنه أتى بعبارة مجملة تحتاج إلى تفصيل حتى يزول الاشتباه، فمراده "الحدود" التي يعلمها البشر، فهو سبحانه لا يعلم حدوده إلا هو سبحانه؛ لأن الخلق لا يحيطون به علمًا، كما قال الله تعالى في سورة طه: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾، ومن قال من السلف بإثبات الحد في الاستواء أو غيره فمراده حد يعلمه الله سبحانه، ولا يعلمه العباد. وأما «الغايات والأركان والأعضاء والأدوات»؛ فمراده -رحمه الله- تنـزيهه عن مشابهة المخلوقات في حكمته وصفاته الذاتية من الوجه واليد والقدم ونحو ذلك، فهو سبحانه موصوف بذلك وليست صفاته مثل صفات الخلق، ولا يعلم كيفيتها إلا هو سبحانه، وأهل البدع يطلقون مثل هذه الألفاظ لينفوا بها الصفات بغير الألفاظ التي تكلم الله بها وأثبتها لنفسه حتى لا يفتضحوا وحتى لا يشنع عليهم أهل الحق. والمؤلف الطحاوي -رحمه الله- لم يقصد هذا المقصد؛ لكونه من أهل السنة المثبتين لصفات الله، وكلامه في هذه العقيدة يفسر بعضه بعضًا ويصدق بعضه بعضًا، ويفسر مشتبهه بمحكمه، وهكذا قوله: «لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات» مراده الجهات الست المخلوقة، وليس مراده نفي علو الله واستوائه على عرشه؛ لأن ذلك داخلاً في الجهات الست، بل هو فوق العالم ومحيط به، وقد فطر الله عباده على الإيمان بعلوه سبحانه وأنه في جهة العلو.



أولاً: توحيد الربوبية:

- القلوب مفطورة على الإقرار بتوحيد الربوبية أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات.
- لم يذهب إلى نقيض هذا التوحيد بالكلية طائفة معروفة من بني آدم، إنما وقع الشرك منهم في بعض الربوبية؛ لذا لم يقدهم إلى إفراد الله وحده بالعبادة؛ فالإقرار بالربوبية لايكفي وحده للبراءة من الشرك.
- الميثاق الذي أخذه الله من بني آدم حجة عليهم يوم القيامة، والمراد منه على الراجح: فطرهم على التوحيد.
- الشرك حادث طارئ تقلده الأبناء عن الآباء، ولا يصح قياسه على تقليدهم في العادات الدنيوية التي قد لا يعلمون فسادها ابتداءًا، بخلاف الشرك الذي كان عندهم من المعرفة الفطرية ما يبين فساده.

ثانياً: توحيد الإلهية:

- توحيد الإلهية هو عبادة الله وحده، وخلع ما يعبد من دونه، وهو المقصود من شهادة أن لاإله إلا الله.
- وتوحيد الإلهية هو مقصد دعوة الرسل لأقوامهم؛ إذ جعلوا من توحيد الربوبية

مدخلاً ودليلاً عليه.

- شهد الله لنفسه بهذا التوحيد؛ فقد أخبر، وبَيّن، وقضى، وأعلم الخلق أنه لايستحق العبادة سواه، وأن إلهية من سواه باطلة. وبناءًا عليه، فقد شهد بذلك الملائكة، والرسل، وأولو العلم.
- خواص المؤمنين يستدلون بأسماء الله وصفاته على أفعاله، بينما الجمهور يستدلون على توحيد الله بآياته المشهودة.
- الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع، ودفع المضار، وذلك إذا حصلت شروطه، وانتفت موانعه، سواء كان العبد مسلمًا، أو كافرًا؛ إذ إن إجابة الله للداعين من جنس رزقه، وربوبيته لهم.
- التوكل يتألف من وجوب التوحيد، والشرع، والعقل. فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، والإعراض عنها قدح في الشرع، ومحو الأسباب أن تكون أسباب نقص في العقل.
- التوسل بالأنبياء والصالحين يكون مشروعًا من جهة المحبة والاتباع، ومحذورًا من جهة الإقسام بذواتهم.
- الكهان، والسحرة، والمنجمون صناعاتهم محرمة بالكتاب والسنة والإجماع.
- محبة الله تستلزم موافقته في محبوبه ومكروهه، وولايته وعداوته؛ لذا فإن محبة الصالحين والمؤمنين، وموالاتهم في الله من تمام محبة الله، كذلك بغض المفسدين والمستكبرين، ومعاداتهم في الله من تمام محبته تعالى، والحب والبغض يكون بحسب ما في العبد من خير وشر.
- الإسلام قائم على التسليم والاستسلام لنصوص الوحيين، وبنقصان التسليم

ينقص التوحيد حتى يجر صاحبه إلى الكفر إذا اتخذ هواه إلهًا مطاعًا من دون الله.

ثالثاً: توحيد الأسماء والصفات:

- التشبيه والتعطيل في باب الأسماء والصفات طرفان باطلان، والوسط المعتدل بينهما هو دين الإسلام.
- المشبهة غلوا في إثبات الصفات فصاروا كأنما يعبدون صنمًا، والمعطلة غلوا في نفي المماثلة من باب التنـزيه فصاروا كأنما يعبدون عدمًا، أما أهل السنة فيصفون الله تعالى بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله، من غير تشبيه، ولا تعطيل.
- الله عز وجل متصف بصفات الكمال في الذات، والفعل أزلاً وأبدًا.
- القرآن كلام الله عز وجل بالحقيقة، ليس بمخلوق، تكلم به سبحانه وتعالى على وجه يليق بجلاله، بكيفية لايعلمها إلا هو، فكلامه عز وجل صفة من صفات كماله.
- الله عز وجل فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، محيط به، وغني عنه. كما أن علوه سبحانه على خلقه مطلق على جميع المراتب ذاتًا، وقدرًا، وشرفًا. ولامنافاة بين علوه على عرشه، وبين معيته لخلقه، سواء معيته العامة بعلمه وقدرته وسلطانه، أو معيته الخاصة بعباده المتقين بعونه ونصرته وتأييده.
- اتفق أهل السنة على إثبات رؤية الله عز وجل، ولكن لايراه أحد في الدنيا بعينه. أما المعتزلة فقد تأولوا نصوص الرؤية لينفوها حتى لايقعوا في التشبيه بزعمهم.
- تعددت أنواع التأويل على حسب معناه في كلام السلف، وفي كلام المفسرين، وفي كلام المتأخرين من الفقهاء. والتأويل الصحيح هو الذي يوافق ما جاءت به السنة.

- علم الله المطلق وقدرته المطلقة من صفات الكمال لله عز وجل.
- الله عز وجل هو الأول الذي لا يسبقه عدم، وهو الآخر الذي لايلحقه عدم.
- الحي القيوم اسمان لله عز وجل، عليهما مدار الأسماء الحسنى كلها، وذلك لتضمنهما إثبات كل صفات كمال الله سبحانه وتعالى.
- العرش هو موضع استواء الله عز وجل، والكرسي بين يدي العرش كالمرقاة إليه.
- الله عز وجل يغضب ويرضى على الوجه الذي يليق به تعالى. وقد يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كان لايريد وقوعه، كما أنه قد ينهى عما يسخطه وإن كان قد أراد وقوعه.
- اختص الله نبيه محمدًا ونبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام بمنـزلة الخلة: وهي أخص من مطلق المحبة؛ إذ إن المقصود منها كمال المحبة، وهي ثابتة لله عز وجل على الوجه الذي يليق به.
- الله سبحانه وتعالى منـزه عن أدنى الظلم؛ لأن الظلم صفة نقص لاتنبغي له عز وجل، فقد وصف الله نفسه بأن له المثل الأعلى وهو الكمال المطلق في كل ما يتعلق به.
- تعالى الله عز وجل عن أن يحيط أحد بحده؛ لأنه مباين لخلقه، محيط بهم دون أن يحيط به شيء.

أسئلة التقويم الذاتي

س١: «التشبيه والتعطيل طرفان باطلان بينهما وسط الإسلام المعتدل. اشرح هذه العبارة موضحًا أسباب بطلان التشبيه والتعطيل، وكيفية الرد على المشبهة والمعطلة؟

س٢: تسمية المخلوق ووصفه ببعض أسماء الخالق وصفاته، هل يستلزم التشبيه؟ أو هل يستدعي نفي صفات الخالق بدعوى نفي التشبيه؟ أجب مع ذكر الأدلة.

س٣: هل يجوز اعتقاد وصف الله بصفة بعد أن لم يكن متصفًا بها؟ وكيف نفهم حدوث بعض صفات الفعل الاختيارية فى وقت دون وقت؟

س٤: اشرح قول المصنف -رحمه الله-: «له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق».

س٥: اذكر أدلة أهل السنة فى إثبات صفة الكلام لله عز وجل. ثم أجب على استدلالات المعتزلة والأشاعرة الباطلة فيما ذهب إليه كل منهم فى مسألة الكلام.

س٦: شهدت نصوص الكتاب والسنة بعلو الله على خلقه. وضح ذلك؟

س٧: كيف ترد على الشبهات الآتية:

- علو الله وفوقيته في المكانة والمنـزلة فحسب.
- دلالة آية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ على نفي حقيقة العلو.
- المنافاة بين علو الله على عرشه، وبين معيته لخلقه.

س٨: ما أدلة أهل السنة والجماعة في إثبات رؤية الله عز وجل؟ وهل نفي استطاعة

الرؤية في الدنيا يستلزم نفيها في الآخرة؟ أجب في ضوء قوله تعالى لنبيه موسى حين طلب منه رؤيته: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي...﴾.

س٩: رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج موضع خلاف عند السلف والخلف. وضح أدلة الفريقين في هذا الخلاف و الترجيح بينهما.

س١٠: اشرح قول المصنف -رحمه الله-: «و لا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أو تأولها بفهم». مع بيان أنواع التأويل وضرب الأمثلة على كل نوع؟

س١١: أهل السنة يثبتون صفات الله تعالى على التفصيل وينفونها على الإجمال. وضح فائدة ذلك، مع مقارنة هذه الطريقة بطريقة أهل الكلام المذموم؟

س١٢: لماذا كان استخدام اسم الله «الأول»، واسم الله «القيوم» أبلغ وأولى من استخدام لفظ «القديم»؟

س١٣: «الحي القيوم» اسمان عظيمان لله عز وجل يستلزمان سائر صفات الكمال. وضح ذلك؟

س١٤: اذكر الأدلة التي تدل على أن العرش والكرسي حق؟

س١٥: كيف تأول الجهمية صفتي «الغضب والرضا» لله عز وجل؟ وبم يُرَدُّ عليهم عقلاً ونقلاً؟

س١٦: ما الفرق بين الخلة والمحبة؟ عضد إجابتك بالأدلة من النصوص؟

س١٧: خلة النبي ﷺ لنا ممتنعة، وخلتنا له ثابتة. وضح ذلك؟

س١٨: الظلم من أوصاف النقص التي تتنافى مع وصف الله نفسه بأن له المثل الأعلى. وضح ذلك مستشهدًا بالأدلة من النصوص؟

الاختبـار البعـدي للوحـدة

س١: في واقع الناس تجد ظاهرة الاستدلال بتوحيد الربوبية على صحة الإيمان وكمال التوحيد، فيعتقد الكثير أن مبلغ شهادة أن لا إله إلا الله أنه لا خالق إلا الله، ولامدبر للأمر سواه.. إلخ. فما مدى صحة هذا الفهم؟ وأين يكمن القصور فيه؟ وما مدى انتشار هذه الظاهرة في المجتمع الذي تحيا فيه؟

س٢: فى ظل الثورة التكنولوجية الحديثة، ظهرت أمم بأكملها تعتنق المذاهب الإلحادية وتعطيها الصبغة العلمية والتقدمية مع كونها تتنكر لحقيقة وجود الله، وربوبيته على خلقه فكيف يمكن تطويع الوسائل المقروءة، والسمعية، والمرئية فى التصدي لهذه الظاهرة لبيان الآيات الكونية والنفسية الدالة على ربوبيته تعالى؟

س٣: صفحة الوجود مفتوحة أمام أعين المتدبرين، دالة على تفرد الله عز وجل بصفات الربوبية. فهل وفَّينا لهذا الجانب حقه من التأمل والتدبر أثناء الانشغال بالدنيا وتحصيل المعاش؟ وكيف يمكن علاج هذا التقصير الذي يوهن من قدر معرفة الله فى القلوب؟

س٤: من خلال تلاوتك لسور القرآن، تمر كثيراً على الآيات التي تتحدث عن تفرد الله بصفات الربوبية من خلق، وملك، ورزق، وتدبير.. إلخ، استخرج هذه الآيات واجمعها من سور: الرعد، النحل، فاطر، الرحمن، وتعرف على معانيها وتفسيرها، وكيف استخدمت في سياقها كمدخل لتوحيد الألوهية ودليلاً عليه؟

س٥: يقول الله عز وجل على لسان نبيه هود فى معرض محاجته لقومه: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ

وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ وضح على ضوء مادرست من مراتب الشهادة كيف أقام هود عليه السلام حجة التوحيد على قومه؟

س٦: أصل الشرك عند العرب وغيرهم يكمن في الغلوّ فى تعظيم الصالحين والأولياء وضح ذلك، مع بيان موقف الإسلام من هذا الغلو والشرك؟

س٧: توحيد الإلهية يقوم على ركنين عظيمين، كلٌ منهما لازم للآخر وانتفاء أحدهما يلزم انتفاء الآخر. اشرح ذلك مع ذكر الأدلة؟

س٨: التشبيه والتعطيل منهجان باطلان في باب الأسماء والصفات، إلا إن أهل التشبيه مع ضلالهم خير من أهل التعطيل لغلبة المحاذير الناجمة عن التعطيل، حتى قيل: «المعطل أعمى، والمشبه أعشى». وضح ذلك مع ضرب الأمثلة؟

س٩: التشبيه نوعان، اذكرهما، واذكر أكثرهما انتشاراً وشيوعاً بين الناس، مع التعليل والتفصيل؟

س١٠: وضح طريقة الأشاعرة في إثبات صفات الله تعالى؟

الوحدة الثانية

الإيمان بالملائكة

- المبحث الأول: أصناف الملائكة ومراتبهم.

- المبحث الثاني: المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر.





يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون ملماً بما يلي:

(١) أصناف الملائكة ومراتبهم:

- من هم الملائكة؟
- **الكرام الكاتبون.**
- **ملك الموت.**

(٢) المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر.



أصناف الملائكة ومراتبهم

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونؤمن بالملائكة).

الملائكة هم الموكلون بالسماوات والأرض، وكل حركة في العالم فهي ناشئة عنهم، قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾(1). وهم الملائكة عند أهل الإيمان، والنجوم عند أهل الجحود والكفران. والإيمان بهم ركن من أركان الإِيمَان، وقد دل الكتاب والسنة على أصناف منهم:

فمنهم الموكل بالجبال، ومنهم الموكل بالسحاب، ومنهم الموكل بالرحم، ومنهم الحفظة، ومنهم الموكل بسؤال أهل القبور، ومنهم الموكل بالنفخ في الصور، ومنهم الموكل بالنار وعذابها، ومنهم الموكل بالجنة ونعيمها، ومنهم حملة العرش، ومنهم من وكلوا بعمارة السماوات بالصلاة والتسبيح إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله.

وقد «**أطَّت السماوات بهم وحُقَّ لها أن تئط، فما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم**

(1) النازعات: 5.

أو راكع أو ساجد لله تعالى، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون أَلْفًا لا يعودون إليه»[(١)]. والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم، ومراتبهم، فتارة يقرن الله اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم والتقريب والإخلاص، قال تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[(٥)]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[(٦)].

الكرام الكاتبون:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين).

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[(٧)]، وقال تعالى: ﴿ إِذْ

(١)ت: الزهد، ب ٩، ح ٢٣١٢. ث: الزهد، ب١٩، ح٤١٩٠. حم: ١٧٣/ ٥- كلهم عن أبي ذر.وقال الترمذي: حسن غريب.

(٢) الانفطار: ١١.

(٣) المطففين: ٢١.

(٤) فصلت: ٣٨.

(٥) آل عمران: ١٨.

(٦) الأحزاب: ٤٣.

(٧) الانفطار: ١٠-١٢.

يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[(١)] . وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[(٢)] .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَتَعَاقبونَ فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين كانوا فيكم فيسألهم -والله أعلم بهم-: كيف تَرَكْتُمْ عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وفارقناهم وهم يصلون**»[(٣)].

وفي الحديث الآخر: «**إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم**»[(٤)] .

جاء في التفسير: اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات.

وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه: واحد من ورائه، وواحد أمامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بَدَلاً، حافظان وكاتبان.

وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله قال: قال ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قَرِينُه من الجن وقَرِينُه من الملائكة**، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ **قال: وإياى لكن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**»[(٥)]. أي: فاستسلم وانقاد لي في أصح القولين؛ ولهذا قال: «**فلا**

(١) ق: ١٧-١٨.

(٢) الرعد: ١١.

(٣) خ: الصلاة، ب١٥،ح ٥٣٠، بدء الخلق، ب ٦، ح٣٠٥١، التوحيد، ب٢٣، ح ١٩٩٢ وب٣٣،- ٧٠٤٨. م: المساجد: ب٣٧،ح ٢١٠.س: الصلاة، ب ٢١،ح٤٨٦- كلهم عن أبي هريرة.

(٤) ت: الأدب، ب ٤٢،ح ٢٨٠٠- عن ابن عمر، وهو حديث ضعيف،: قال الترمذي: غريب.

(٥) م: المنافقين، ب١٦، ح٦٩. حب، ٨/ ١١٠، ح ٦٣٨٣.-حم: ٣٨٥/ ١، ٤٠٠ كلهم عن ابن مسعود.

يأمرني إلا بخير» ومن قال: إن الشيطان صار مُؤْمِناً فقد حرف معناه، فإن الشيطان لا يكون مُؤْمِنًا، ومعنى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ (١) أن الله أمرهم بذلك، يشهد لذلك قراءة من قرأ: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

وقد ثبت بالنصوص أن الملائكة تكتب القول والفعل وكذلك النية؛ لأنها فعل القلب، فدخلت في عموم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢).

وبدليل الحديث القدسي: «**إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة، وإذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عَشرًا**» (٣).

ملك الموت:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (نؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (٤). وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (٥). وقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (٦).

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) الانفطار: ١٢.

(٣) متفق عليه. خ: الرقاق، ب ٣١، ح ٦١٢٦، التوحيد، ب٣٥، ح ٧٠٦٢، م: الإيمان، ب ٥٩، ح ٢٠٣-٢٠٨، ح ٣٠٧٣. س: تفسير سورة الأنعام، ح ٢٠١. عن أبي هريرة وعبد الله بن عباس

(٤) السجدة: ١١.

(٥) الأنعام: ٦١.

(٦) الزمر: ٤٢.

ولا تعارض بين هذه الآيات: فملك الموت يتولى قبض الأرواح واستخراجها، ثم تأخذها منه ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب ويتولونها بعده، كل ذلك بإذن الله وحكمه وأمره، فصحت إضافة التوفي إلى كلٍّ بحسبه.



المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر

تكلم الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر: وينسب إلى أهل السنة تفضيل صالحي البشر والأنبياء فقط على الملائكة. وينسب إلى المعتزلة تفضيل الملائكة. وينسب إلى الشيعة أن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة.

وأمَّا أتباع الأشعري فعلى قولين: منهم من يفضل الأنبياء والأولياء، ومنهم من يقف ولا يقطع في ذلك قَوْلاً.

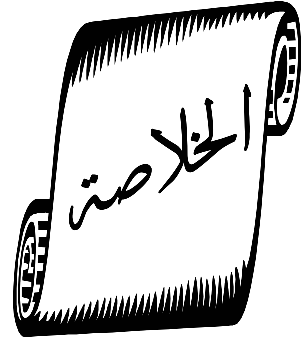
ولم يتعرض الشيخ رحمه الله لهذه المسألة بنفي ولا إثبات، ولعله قصد ذلك لتوقف الإمام أبي حنيفة في الجواب عنها، وهذا هو الحق فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين، وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل؛ إذ لو كان ذلك من الواجبات لبين لنا نَصًّا. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[1]. فالسكوت عن الكلام في هذه المسألة أولى.

قال الشيخ تاج الدين الفزاري: اعلم أن هذه المسألة من بدع علم الكلام التي لم يَتكَلَمْ فيها الصدر الأول من الأمة، ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كثير من المقاصد؛ ولهذا خلا عنها

(١) مريم: ٦٤.

طائفة من مصنفات هذا الشأن وامتنع من الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخلُ كلامه عن ضعف واضطراب. والأدلة التي يسوقها كل فريق في هذه المسألة إنما تدل على الفضل لا على الأفضلية وذلك ما لا نزاع فيه.

وحاصل الكلام أن هذه المسألة من فضول المسائل؛ ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول وتوقف أبو حنيفة -رحمه الله- في الجواب عنها.



- الملائكة خلق من نور، لايحصي أصنافهم ولا أعدادهم إلا الله، وهم الموكلون بالسماوات والأرض وكل حركة في العالم.
- الكرام الكاتبون من الملائكة يسجلون على بني آدم الحسنات والسيئات من الأقوال والأفعال والنيات.
- ملك الموت يقبض الروح بإذن الله، ثم تأخذها منه ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب.
- تعددت الأقوال في المفاضلة بين الملائكة، وبين الأنبياء وصالحي البشر، إلا أن الأدلة سيقت في ذكر فضل كل منهم، لا في ذكر الأفضلية بينهم، فالسكوت عن الكلام في هذا المسألة أولى.

الاختبار البعدي للوحدة

س١: من هم الملائكة؟ وبم كلفوا؟ وما واجبنا الذي كلفنا به نحوهم؟

س٢: اذكر الأدلة التي توجب الإيمان بالكرام الكاتبين من الملائكة؟

س٣: كيف يمكن الجمع بين الآيات التي أضافت التوفي تارة لله عز وجل، وتارة لملك الموت، وتارة لبقية الملائكة؟

س٤: ما أقوال الفرق في المفاضلة بين الملائكة والأنبياء؟ اذكر الصحيح منها مع التعليل.

س٥: استخرج من نصوص الكتاب والسنة الأوصاف التي ذكرت في شأن كل من الأصناف الآتية من الملائكة: - حملة العرش - الموكلون بالجنة - زبانية النار - الموكلون بقبض الروح – الموكلون بسؤال القبر.

س٦: ما المنـزلة والمهمة المنوطة بكل من الآتي أسماؤهم من الملائكة: - جبريل- ميكائيل – إسرافيل – مالك – رضوان؟

س٧: يزعم الملاحدة الذين ينكرون حقيقة وجود الملائكة أن الكون محكوم بقوانين قائمة وثابتة، وأسباب محكمة يرتبط بعضها ببعض، فلا داعي لتوهم وجود مخلوقات قائمة على تسخير الرياح والأمطار والجبال... إلخ، كيف يمكن دحض هذه الشبهة؟

س٨: ما أثر الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان؟

س٩: جبريل عليه السلام كان يتمثل للنبي ﷺ في عدة صور مختلفة. اذكرها مع بيان المواقف التي وردت متعلقة بكل منها؟

الوحدة الثالثة

الإيمـــان بالكتـــب المنزلـــة

- المبحث الأول: الإيمـــان بالكتب المنزلة.





يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون ملماً بما يلي:

(١) معنى كون القرآن قد نزل على سبعة أحرف.

(٢) القرآن كلام الله غير مخلوق.

(٣) نزول جبريل بالوحي على النبي ﷺ.



الإيمان بالكتب المنزلة

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونؤمن بالملائكة والنبيين، والكتب المنزلة على المرسلين).

وقال: (ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلَّمه سيد المرسلين محمدًا ﷺ، وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين).

قوله: (**ولا نجادل في القرآن**): يحتمل أنه أراد به أنَّا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا، بل نقول: إنه كلام رب العالمين.... إلخ كلامه.

ويحتمل أنه أراد: أنَّا لا نجادل في القراءة الثابتة، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح، وكل من المعنيين حق.

ويشهد للثاني ما روي عن ابن مسعود أنه قال: سمعت رَجُلاً قرأ آية سمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها، فأخذت بيده فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك، فعرفت في وجهه

الكراهة، وقال: «**لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»(١). وفيه نهي عن الاختلاف الذي فيه جحد كل منهما ما مع صاحبه من الحق؛ لأن كلاًّ منهما كان مُحِقًّا.

ولهذا قال حذيفة لعثمان: أدرك هذه الأمة كي لا تختلف كما اختلفت الأمم قبلهم. فجمع الناس على حرف واحد اِجْتِمَاعًا سَائِغًا، ولم يكن في ذلك ترك واجب أو فعل محظور؛ لأن القراءة على سبعة أحرف جائزة وليست واجبة، رخصة من الله تعالى.

فلما خشي الصحابة أن تختلف الأمة وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد؛ جمعهم الصحابة عليه، وهم معصومون من أن يجتمعوا على ضلالة، وهذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء.

كما أن ترتيب السور ليس واجِبًا مَنْصُوصًا عليه بل هو جائز؛ ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب المصحف اَلْعُثْمَانِيّ، بخلاف ترتيب الآيات فإنه منصوص عليه فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية.

وقد ذكر ابن جرير: أن الترخيص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام لمشقة الاجْتِمَاع على الحرف الواحد، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة اجتمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة.

هل كان ابن مسعود يجوِّز القراءة بالمعنى؟

من نقل عن ابن مسعود أنه كان يجوز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه، وإنما قال: نظرت إلى القراءة فرأيت قراءتهم متقاربة، وإنما هو كقول أَحدكم: هَلُمَّ، أقبل، تعال، فاقرءوا كما عَلِمْتم.

وإذا كان الله قد أمرنا أن نجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، فكيف بأهل القبلة وهم بالجملة خير من أهل الكتاب، فلا يجوز أن يُنَاظَرَ من لم يظلم

(١) رواه البخاري.

منهم إلا بالتي هي أحسن، ولا يُكفَّر المخْطِئُ منهم قبل أن تقوم عليه الحجة التي يَكفر من تركها، وقد ذم السلف أهل الأهواء وذكروا أن آخر أمرهم السيف!

وقول المصنف-رحمه الله تعالى-: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[1]. وهو جبريل ؛ سُمِّي رُوحًا لأنه حامل الوحي الذي به حياة القلوب إلى الرسل من البشر وهو أمينٌ حَقُّ أمين، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[3].

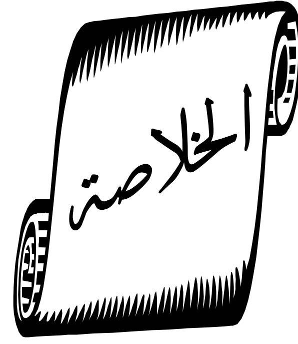
وقوله: **(فعلَّمه سيدَ المرسلين)** فيه تصريح بتعليم جِبريل إياه إِبْطَالاً لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره في نفسه إلهامًا.

وقوله: **(ولا نقول بِخَلْقِه ولا نخالف جماعة المسلمين)**؛ لأن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين؛ لاتفاق السلف على أنه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق، بل قوله: **(ولا نخالف جماعة المسلمين)** يُجرَى على إطلاقه: أي: لا نخالف به جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه فإن خلافهم زيغ وضلالة.

(١) الشعراء: ١٩٣.

(٢) الشعراء: ١٩٣-١٩٤.

(٣) التكوير: ١٩-٢١.



- نهى الشارع عن الاختلاف بين طرفين حال كون كلٍ منهما يحمل الحق.
- نزل القرآن على سبعة أحرف، وقراءته بها جائزة؛ لمشقة الاجتماع على حرف واحد في أول الإسلام.
- جمع عثمان بن عفان المسلمين على حرف واحد للقرآن خشية اختلاف الأمة في القراءة على سبعة أحرف.
- جبريل -عليه السلام- هو حامل الوحي إلى الرسل.

الاختبار البعدي للوحدة

س١: اشرح قول المصنف -رحمه الله-: (ولا نجادل في القرآن).

س٢: اختر الإجابة الصحيحة، مع تصويب العبارات الخاطئة:

- ترتيب السور في المصحف ثابت ومنصوص عليه.
- ترتيب الآيات داخل السور ليس بواجب.
- قراءة القرآن على سبعة أحرف رخصة من الله عز وجل.
- ينبغي جمع المسلمين على قراءة واحدة للقرآن وجوبًا.

س٣: ما الكتب التي أنزلت على الرسل وسماها الله عز وجل في القرآن الكريم؟ وعلى من أنزلت؟ اذكر الآيات التي وردت فيها ذكر هذه الكتب؟

س٤: اختص الله تعالى القرآن الكريم بمزايا تميز بها عن جميع ما تقدمه من الكتب المنـزلة. اذكر هذه المزايا مع بيان مواضع الاتفاق والاختلاف بين جميع الكتب المنـزلة؟

الوحدة الرابعة

الإيمان بالرسل

- **المبحث الأول:** المقصود من الإيمان برسل الله.
- **المبحث الثاني:** الأدلة على نبوة محمد ﷺ.
- **المبحث الثالث:** ختم النبوة بمحمد ﷺ.
- **المبحث الرابع:** عموم بعثته ﷺ.
- **المبحث الخامس:** المفاضلة بين الأنبياء.
- **المبحث السادس:** الإسراء والمعراج.





يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون ملماً بما يلي:

(١) المقصود من الإيمان برسل الله.

(٢) الأدلة على نبوة محمد ﷺ.

(٣) ختم النبوة بمحمد ﷺ.

(٤) عموم بعثته إلى الإنس والجن.

(٥) المفاضلة بين الأنبياء.

(٦) الإسراء والمعراج.



المقصود من الإيمان برسل الله

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونؤمن بالملائكة والنبيين).

يجب علينا الإيمان بمن سمَّى الله في كتابه من الأنبياء والمرسلين، والإيمان بأن الله أرسل رُسُلاً وبعث أنبياء سِوَاهُمْ مما لا يعلم أَسمَاءَهُمْ ولا عددهم إلا الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[1]. كذلك يجب الإيمان بأنهم جَمِيعًا قد بلغوا ما أمروا بتبليغه، وَبَيَّنُوه بيانًا لا يسع أَحَدًا ممن أرسلوا إليه جهله. وأما الإيمان بمحمد ﷺ فتصديقه، واتباع ما جاء به جملة وَتَفْصِيلاً.

أولو العزم من الرسل:

أما أولو العزم من الرسل منهم؛ فقد قيل فيهم أقوال، أحسنها: ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ، وهم المذكورون في آيتي: الأحزاب والشورى. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[3].

---

(١) غافر: ٧٨.

(٢) الأحزاب: ٧.

(٣) الشورى: ١٣.



الأدلة على نبوة محمد ﷺ

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (وأن محمدًا عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى).

الاصطفاء والاجتباء وَالارتِضَاء: متقارب المعنى.

كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لِلَّهِ تعالى:

واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى، ومن توهم أن الخروج عن العبودية أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾[(١)].

وقد ذكر الله نبيه مُحَمَّدًا ﷺ باسم العبد في أشرف المقامات؛ فقال في ذكر الإسراء: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾[(٢)]، **وقال:** ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾[(٣)]، **وقال:** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[(٤)].

---

(١) الأنبياء: ٢٦.

(٢) الإسراء: ١.

(٣) النجم: ١٠.

(٤) الكهف: ١.

أدلة النبـوة:

(١) **المعجزات:** وهي دليل صحيح، وقد استدل بها أهل الكلام على نبوة الأنبياء، ولكن الدليل ليس مَحْصُوراً فيها.

(٢) **قرائن الأحوال:** فقرائن الأحوال تفرق أيضًا بين الصادق والكاذب، فلم يدَّعِ النبوة أحد من الكاذبين إلا وقد ظهر عليه من الكذب والفجور ما يُعرف به أمره.

ولهذا قال ﷺ لابن صياد: «**قد خبأت لك خَبئاً، فقال: هو الدخ. فقال: اخسأ، فلن تعدو قدرك**» يعني: إنما أنت كاهن[١].

فمن عرف الرسول وصِدْقَه، ومطابقةَ قوله لعمله، علم يَقِينًا أنه لا بد أن يكون رَسُولاً من عند الله. وإذا كان الناس يميزون بين الصادق والكاذب في مجال الصناعات والمقالات، كالفلاحة والفصاحة، فكيف يشتبه الأمر في مجال النبوة؟!

وإذا كان صدق الخبر وكذبه يُعلم مما يقترن به من الدلائل والقرائن، كما قالوا: ما أسرَّ أحد سريرة إلا أظهرها الله في صفحات وجهه وفلتات لسانه، فكيف يخفى صدق من يدَّعي أنه رسول الله من كذبه؟!

ولهذا قالت خديجة للنبي ﷺ- وقد قال لها لما جاءه الوحي: «**إني قد خشيت على نفسي**»-: والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتَقري الضيف وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق[٢]. وذلك لما تعلمه من صدقه وبره ﷺ.

وكذلك قال النجاشي- لما استخبرهم عما يخبر به، واستقرأهم القرآن، فقرأوه عليه-:

---

(١) خ: الجنائِز، ب٧٨، ١٢٨٩، الجهاد، ب ١٧٤، ح ٢٨٩٠، الأدب، هـ ٩٧، ٥٨٢٠، ٥٨٢١، القدر، ب ١٣ ٦٢٤٤، م: القدر، ب١٩، ح ٩٥. د: الملاحم، ب ١٦، ح ٤٢٢٦. ت: الفتى، ب ٦٣، ح٢٢٤٩. حم: ١/٣٨٠ و ١٤٨/ ٢ و ٨٢/ ٣ و ٣٦٨ و ١٤٨/ ٥ عن ابن مسعود وغيره

(٢) خ: بدء الوحي، ب ١، ح ٣، تفسير سورة الفلق، ح ٤٦٧٠، التعبير، ب ١، ح ١ ١٥٨. م: الإيمان، ب ٧٣، خ ٢٥٢- ٢٥٤ -عن عَائشَة.

إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.

وكذلك ورقة بن نوفل عندما سمع من النبي ﷺ فقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى.

وكذلك هرقل عندما سأل أبا سفيان عن نسبه ﷺ وأتباعه ودعوته وغير ذلك من الأسئلة فأدرك من خلال ذلك أن هذا هو النبي المرتقب، وإن كان قَد آثر ملكه على النجاة بنفسه.

(٣) **آثار السابقين**: وإن فيما أبقاه الله في العالم من الآثار الدالة على ما فعله الله بأنبيائه من الكرامة، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة، وما قصه علينا من أخبارهم، لأعظم الأدلة على صدقهم لمن يتدبر ذلك ويتأمله. فقد أُخبروا بما سيكون من انتصارهم، وقد نصرهم الله فعلاً، وأهلك أعداءهم، هذا فضلاً عما أتوا به من الشرائع القويمة التي لا يحصل مثلها لكذاب جاهل.

أدلة نبوته ﷺ:

أما عن معجزات نبينا ﷺ فلبسطها مقام آخر، وقد أفردها البعض بمصنفات كالبيهقي وغيره، بل إن في إنكار رسالته ﷺ طَعْنًا في الرب تبارك وتعالى، ونسبته إلى ما لا يليق بذاته من الظلم والسفه؛ ذلك أنه إذا كان محمد ليس بنبي صادق، وقد ظل يفتري على الله الكذب ثلاثًا وعشرين سنة: ينسخ فيها الملل، ويشرع الشرائع، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل- وهم أهل الحق- ويسبي نساءهم، ويغنم أموالهم، ثم يؤيده الله مع ذلك وينصره ويجيب دعوته، ويهلك أعداءه، ويرفع له ذكره؛ فإن معنى ذلك أنه ليس للعالم مدبر قدير حكيم! إذ لو كان لأخذ على يديه وجعله نَكَالاً للصالحين، وإذا كان بعض الكذابين قد قام في الأرض، وظهرت له شوكة، فإن أمره لم يتم، بل سلط الله عليه من يقطع دابره ويستأصله.

الفرق بين النبي والرسول:

إن أحسن ما يفرق بين النبي والرسول أن من نبَّأه الله بخبر السماء إن أُمر بتبليغه فهو نبي ورسول، وإن لم يؤمر فهو نبي وليس برسول، فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رَسُولاً[1].

النعمة في إرسال الرسل:

ولا شك أن إرسال الرسل من أعظم نعم الله على خلقه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

(1) قال الشيخ ناصر في تعليقه على العقيدة الطحاوية: «ولعل الأقرب أن الرسول من بعث بشرع جديد، والنبي من بعث لتقرير شرع من قبله، وهو بالطبع مأمور بتبليغه؛ إذ من المعلوم أن العلماء مأمورون بذلك، فهو أولى كما لا يخفى».

(2) آل عمران: ١٦٤.



ختم النبوة بمحمد ﷺ

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (وأنه خاتم الأنبياء).
وقال: (وكل دعوى للنبوة بعده فغيٌّ وهوى).

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[1].

وقال ﷺ: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بَيْتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين**»[2].

وعن ثوبان: قال: قال رسول الله ﷺ: «**وإنه سيكون في أمتي ثَلاثُونَ كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي**»[3].

وقول المصنف رحمه الله تعالى: (**وكل دعوى للنبوة بعده فغي وهوى**). **الغيُّ**: ضد

(١) الأحزاب: ٤٠.

(٢) خ: المناقب، ب ١٦، ح ٣٣٤١ و ٣٣٤٢. م: الفضائل، ب٧، ح ٢٠ - ٢٣. عن أبي هريرة.

(٣) خ: المناقب، ب٢٢، ح ٣٤١٣، الفتن، ب٢٣، ح ٦٧٠٤. م: الفتن، ب١٨، ح ٨٣. عن أبي هريرة.

الرَّشَد، **والهوى**: عبارة عن شهوة النفس. فلما ثبت أنه ﷺ خاتم النبيين عُلِم أن كل من ادَّعى النبوة بعده فهو كاذب[1]. ولا يقال: فكيف إذا جاء مدعي النبوة بعده بالمعجزات؟ لأن هذا من باب فَرْض المحال، بل لا بد أن تظهر أمارة كذبه في دعواه.

(١) قال الشيخ ناصر في تعليقه على الطحاوية: قد أخبر النبي ﷺ أمته نصحًا لهم وتحذيرًا في أحاديث كثيرة أنه سيكون بعده دجالون كثيرون، وقال في بعضها: «**كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**» رواه مسلم، وفي رواية: «**يكون في آخر الزمان دجالون كاذبون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم**».

لذا فالأصح أن يقول الشيخ: (وكل دعوى للنبوة بعده فكفر وزندقة) بدلاً من (غيٌّ وهوى)".



عموم بعثته ﷺ

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، وبالنور والضياء).

أشار الشيخ-رحمه الله- بهذه العبارة إلى عموم بعثته ﷺ إلى الجن والإنس.

عموم بعثته إلى الجن:

أما الأدلة على بعثته إلى عامة الجن فكثيرة منها:

- سورة الجن.
- قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ...﴾(1). فهذه حكاية لقول الجن لما سمعوا القرآن.
- قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ...﴾(2). والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسول، كذا قال مجاهد وغيره من السلف.

---

(1) الأحقاف: ٣١.

(2) الأنعام: ١٣٠.

هل أرسل الله رَسُولاً إلى الجن قبل محمد ﷺ؟

نفى ذلك مقاتل، وهو بعيد؛ للآية السابقة: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ...﴾(1) الآية. والرسل من الإنس فقط كما قال غير واحد من السلف، فهي كقوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾(2)، أي: من أحدهما. وظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾(3). أن موسى كان مُرْسَلاً إليهم أَيْضًا.

هـل مــن الجـــن رســـل؟

حكي ذلك عن الضحاك، ودليله قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾(4). وفي استدلاله بالآية نظر؛ لأنها محتملة فهي - كما تقدم - كقوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾.

ولهذا قال مجاهد وغيره: ليس من الجن رسل، وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر.

عموم بعثته ﷺ إلى الإنس:

أما عموم بعثته إلى الناس كافة فهو مما عُلم من الدين بالضرورة، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾(5). وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾(6).

(1) الأنعام: ١٣٠.
(2) الرحمن: ٢٢.
(3) الأحقاف: ٣٠.
(4) الأنعام: ١٣٠.
(5) الأعراف: ١٥٨.
(6) سبأ: ٢٨.

وقال ﷺ: «**لا يسمع بي رجل من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**»[1]

وقال ﷺ: «**أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي..... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»[2].

بطلان ما زعمه النصارى من أنه رسول إلى العرب خاصة:

وأما قول النصارى: إنه رسول إلى العرب خاصة فظاهر البطلان؛ لأنهم إذا سلَّموا برسالته لزمهم تصديقه في كل ما أخبر به، وقد أخبر عن نفسه أنه رسول الله إلى الناس عامة، وبَعث رسُلَه بكتبه إلى كافة أقطار الأرض.

(١) م: الإيمان، ب٧٠، ح ٢٤٠- عن أبي هريرة.

(٢) خ: أوائل التيمم، ح ٣٢٨، الصلاة، ب ٢٣، ح ٤٢٧، الخمس، ب٨، ح ٩٥٤. م: أوائل الصلاة،ح ٣. س: الطهارة، ب ٢٧١، خ ٤٣٢، الصلاة، ب١٦٣، ح ٧٣٧- كلهم عن جابر بن عبد الله.



المفاضلة بين الأنبياء

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (وسيد المرسلين).

الأدلة على كونه ﷺ سيد المرسلين: قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع**»(١).

وفي أول حديث الشفاعة: «**أنا سيد الناس يوم القيامة..**»(٢).

هل يجوز تفضيله ﷺ على موسى؟

فإن قيل: كيف يجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: «**لاتفضلوني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فَأكُون أول من يفيق، فأجد موسى باطشًا بساق العرش، فلا أدري هل أفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله؟**»(٣).

(١) م: الفضائل، ب ٢، ح ٣. د: ا السنة، ب١٤، ح ٤٦٧٣ - كلاهما عن أبي هريرة.

(٢) خ: الأنبياء، ب ٥، ح ٣١٦٢، تفسير سورة الإسراء، ح ٤٤٣٥. م: الإيمان، ب ٨٤، ح ٣٢٧ و ٣٢٨س: تفسير سورة الإسراء: ح ٢٠٦- و حديث طويل- كلهم عن أبي هريرة.

(٣) البخاري (٢٢٨٠).

فالجواب: أن المنهي عنه إنما هو التفضيل على وجه الحمية والفخر.

فقد جاء في سبب هذا الحديث أن يَهُوديًّا قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه مسلم، وقال: أتقول هذا ورسول الله بين أظهرنا، فاشتكاه اليهودي إلى النبي ﷺ فقال هذا الحديث. بل الجهاد نفسه إذا كان حمية كان مَذْمُومًا.

أو على وجه الانتقاص بالمفضول، وعلى هذا يحمل قوله ﷺ: «**لا تفضلوا بين الأنبياء**»(١). إذا كان ثابتًا.

وقيل: إن المنهي عنه هو التفضيل الخاص، أي: لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه بخلاف التفضيل العام فلا يمنع منه كقوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(٢).

هل يجوز تفضيله ﷺ على يونس بن متى؟

أما ما يروى عنه ﷺ أنه قال: «**لا تفضلوني على يونس بن متى**»(٣).

فالجواب: أنه لم يثبت بهذا اللفظ، بل الثابت الصحيح: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**»(٤).

وفي رواية: «**من قال: إني خير من يونس بن متى فقد كذب**».

وهذا اللفظ يدل على العموم، فهو نهي لكل أحد أن يفضِّل نفسه على يونس ابن متى؛

(١) مر تخريجه.

(٢) ت: تفسير سورة الإسراء، ح٣١٤٨، المناقب، ب١، ٣٦١٥. ق: الزهد، ب٣٧، ح٤٣٠٨- عن أبي هريرة.

(٣) قال الألباني: «لا أعرف له أصلاً بهذا اللفظ» تخريج الطحاوية. الطبعة السادسة ص١٧٢.

(٤) خ: الأنبياء:، ب٣٦، ح٣٢١٥، ب٢٦، ح٣٢٣١، - ٣٢٣٤، تفسير سورة النساء، ح٤٣٢٧ و٤٣٢٨، وتفسير سورة الأنعام، ح٤٣١٥، و٤٣٥٥، وتفسير سورة الصافات، ح٤٥٢٦ و٤٥٢٧، التوحيد، ب٥٠، ح٧١٠١. م: الفضائل: ب٤٣، ح١٦٦، ١٦٧. د: السنة، ب١٤، ح٤٦٦٩ و٤٦٧٠ - كلهم عن أبي هريرة وابن عباس.

وذلك لأن الله قد أخبر عنه أنه فعل ما يلام عليه: قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلى هذا المقام؛ لأنه لم يفعل ما يلام عليه فنبه النبي ﷺ على ذلك، وإن كل عبد من عباد الله يقول ما قاله يونس: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، كما قالها أول الأنبياء وآخرهم؛ فأولهم آدم قد قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3]. وآخرهم وسيدهم محمد ﷺ قال في حديث الاستفتاح: «... **اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذُنُوبِي جَمِيعًا، لا يغفر الذنوب إلا أنت** »[4].

وَأَيْضًا: لما أمر الله نبيه أن يتشبه بأولي العزم من الرسل، ونهاه أن يتشبه بيونس، فقد يقول قائل: أنا خير من يونس، فنبه بالحديث على منع ذلك.

وأما قوله: «**من قال إني خير من يونس بن متى فقد كذب**»، فإنه لو قدر أنه كان أفضل، فهذا الكلام يصير نَقْصًا فيكون كَاذِبًا. أما إخباره ﷺ بأنه سيد ولد آدم؛ فلأنه لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره؛ إذ لا نبي بعده يخبرنا بذلك؛ ولهذا نبه بقوله: «**ولا فخر**».

خُلَّة الله لنبيه:

قال المصنف -رحمه الله تعالى- (وحبيب رب العالمين).

(١) الصافات: ١٤٢.

(٢) الأنبياء: ٨٧.

(٣) الأعراف: ٢٣.

(٤) م: الصلاة، ب ٢٦، ح٢٠١. حم: ١/ ٩٤، ٢/ ٥١٥ - عن أبي هريرة وعلي بن أبي طالب.

المحبة مراتب أعلاها الخلة. وقد ثبتت الخلة للنبي ﷺ كما ثبتت لإبراهيم. قال ﷺ: «**إن الله اتخذني خَلِيلاً كما اتخذ إبراهيم خَلِيلاً**»(١).

أما المحبة فهي عامة، وقد ثبتت لغيره ﷺ. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

العلاقة بين العبد وربه لا توصف بالعشق:

واعلم أن العشق وهو أحد مراتب المحبة لا توصف به العلاقة بين العبد وربه؛ لأنه محبة مع شهوة، وقيل: لعدم التوقيف، وقيل غير ذلك.

وغني عن الذكر أن وصف الله بالمحبة والخلة هو كما يليق بجلاله وعظمته كسائر صفاته تعالى، ويوصف الله تعالى- من مراتب المحبة- بالإرادة وَالْوُدّ والمحبة والخلة، حيثما ورد في النص.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونحن مؤمنون بذلك كله، لا نفرق بين أحد من رسله، ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به).

الإشارة (**بذلك**) إلى ما تقدم مما يجب الإيمان به تَفْصِيلاً.

وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾(٤). أي: لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض؛ فإن من فعل ذلك فهو كافر بالكل، ذلك أن الرسول الذي زعم أنه آمن به قد جاء بتصديق بقية

(١) م: المساجد، ب ٣، ح ٢٣. س: تَفْسِير سورة النساء، ح ١٤٣. ف: المقدمة، ب ١١، ح١٤١- عن جندب.

(٢) البقرة: ٢٢٢.

(٣) البقرة: ١٩٥.

(٤) البقرة: ٢٨٥.

المرسلين، فإذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كَافِرًا بمن في زعمه أنه يؤمن به؛ لأن ذلك الرسول قد جاء بتصديق المرسلين كلهم.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [1].

(١) النساء: ١٥٠-١٥١.



الإسراء والمعراج

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (والمعراج حق، وقد أُسري بالنبي ﷺ وَعُرج بشخصه في اليقظة، إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى، فصلى الله عليه في الآخرة والأولى).

اختلف الناس في الإسراء:

- فقيل: كان بروحه ولم يفقد جسده، وقد نقل هذا عن عائشة والحسن البصري، ولكنْ فرق بين أن يكون الإسراء بالروح دون الجسد، وبين أن يكون مَنَامًا؛ لأن النائم قد يرى أَمْثَالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة، فيرى كأنه عرج به إلى السماء وذهب به إلى مكة، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، أما الإسراء بالروح فهو يعني أن الروح قد فارقت الجسد وَعُرِج بها ثم عادت إليه.
- وقيل كان الإسراء مرتين: مرة يقظة، ومرة مَنَامًا، وكأن أصحاب هذا القول أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله: ثم استيقظت، وبين سائر الروايات.

- ومنهم من قال: بل كان مرتين، مرة قبل الوحي ومرة بعده.
- ومنهم من عكس فقال: مرة قبل الوحي، مرتين بعده، وقد تعجب ابن القيم من هؤلاء القائلين بالتعدد، كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليهم الصلوات خمسين، ثم تنقص إلى خمس ويقول الله: «**أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي**»، فإذا كانت المرة الثانية عادت إلى خمسين، واستقرت على خمس؟!. قال: وقد غَلَّط الحفاظ شُرِيْكًا في ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه ثم قال فَقَدَّمَ وأَخَّرَ وزاد ونقص.

والصحيح أنه أسري بجسده ﷺ في اليقظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رَاكِبًا على البراق في صحبة جبريل، ثم عرج به إلى السماوات العلا، فرأى في الأولى آدم، وفي الثانية يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم، عليهم السلام، كلهم قد رحب به، وأقر بنبوتهﷺ، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، ثم رُفع إلى البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله، فدنا حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وفرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، فأشار عليه مُوسَى عند عودته أن يرجع إلى ربه ويسأله التخفيف فلم يزل بين موسى وربه حتى جعلها الله خَمْسًا، ثم نادى مناد: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي.

ومما يدل على أن الإسراء كان بجسده في اليقظة قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[1]، والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح مَعًا.

(١) الإسراء: ١.

الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس أولاً:

وأما الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس أولاً فهي إظهار صدقه ﷺ في دعوى المعراج، حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم، وأخبرهم عن عِيرهم التي مر عليها في طريقه، ولو كان العروج إلى السماء مُبَاشرة ما حصل ذلك؛ إذ لا يمكن إطلاعهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه وقد اطلعوا على بيت المقدس، فأخبرهم بنعته.

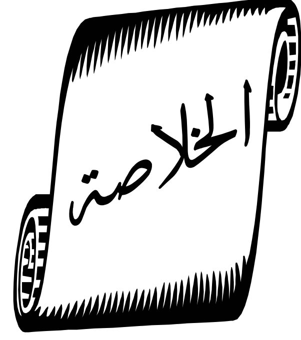
معنى المعراج:

المعراج هو الآلة التي يعرج بها-أي: يصعد-وهو بمنـزلة السُّلَّم، وهو حق، وحكمه حكم غيره من المُغَيَّبَات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

الفرق بين الدُّنُوِّ الذي في سورة النجم وَالدُّنُوِّ الذي في قصة الإسراء:

ويلاحظ أن الدُّنُوَّ والتدلي الذي في سورة النجم راجع إلى جبريل، كما قالت عائشة وابن مسعود: فإنه قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[1]. فالضمائر كلها راجعة إلى جِبْرِيل. وأما الذي في حديث الإسراء فإن النص صَرِيحٌ في أنه دُنُوُّ الرب وتدليه.

(١) النجم: ٥-٨.



- يجب الإيمان بأن الرسل جميعًا بلغوا رسالات ربهم بلاغًا مبينًا بها لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليه جهله.
- الإيمان بمحمد ﷺ يتحقق بتصديقه، واتباع ما جاء به جملة وتفصيلاً.
- أدلة النبوة تتمثل في عدة وجوه منها: المعجزات التي أيد الله بها أنبياءه، وقرائن أحوالهم الدالة على صدقهم، والآثار التي تثبت نصر الله لهم، وإهلاكه لأعدائهم.
- النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء؛ فكل من ادَّعى النبوة بعده كاذب في دعواه.
- وهو المبعوث للجن والإنس كافة بشيرًا ونذيرًا.
- ورد النهي عن إجراء المفاضلة الخاصة بين الأنبياء بأعيانهم، بخلاف التفضيل العام الذي عرف به أن النبي ﷺ هو سيد المرسلين، وسيد ولد آدم.
- أسري بالنبي ﷺ في اليقظة، بجسده وروحه، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السماوات العلا حيث فرض الله عليه الصلاة.

الاختبـار البعـدي للوحـدة

س١: ما المقصود بالإيمان بالرسل عمومًا، والإيمان بالنبي ﷺ خصوصاً؟

س٢: كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى. اشرح ذلك مع ذكر الأدلة؟

س٣: يعلم صدق الرسل من وجوه متعددة. اذكر ثلاثة منها؟

س٤: صدق الأنبياء دليل على صدق نبوتهم. وضح ذلك مع سوق الشواهد عليه؟

س٥: كيف يكون إنكار رسالة النبي ﷺ طعنًا في الرب تبارك وتعالى؟

س٦: **اذكر الأقوال المختلفة لأهل العلم مع ترجيح الصحيح منها في كل من المسائل التالية:**

- الفرق بين النبي والرسول.
- إسراء النبي ﷺ.
- المفاضلة بين الأنبياء.

س٧: تكرر لفظ «الدنو» في سورة النجم، وفي حديث الإسراء. فما الفرق في كلا الموضعين؟

س٨: **اذكر أدلة الكتاب والسنة على ما يلي:**

- كون النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء.
- بعثته إلى الجن والإنس كافة.

الوحدة الخامسة

الإيمـــان باليـوم الآخـــر

- **الفصل الأول:** حيـــاة البـــرزخ.

- **الفصل الثاني:** الإيمـــان بالمعـــاد.





يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون ملماً بما يلي:

أولاً: البرزخ:

(١) أشراط الساعة.

(٢) عذاب القبر وفتنته.

(٣) الروح.

(٤) انتفاع الموتى بالدعاء والصدقة.

ثانيًا: الإيمان بالمعاد:

(١) عموم العلم بالقيامة الكبرى عند جميع الأنبياء.

(٢) العرض.

(٣) الحوض.

(٤) الميزان.

(٥) الصراط.

(٦) الشفاعة.

(٧) وجود الجنة والنار وأبديتهما.

الفصل الأول

حياة البرزخ

- المبحث الأول: أشراط الساعة.
- المبحث الثاني: عذاب القبر وفتنته.
- المبحث الثالث: الروح.
- المبحث الرابع: انتفاع الموتى بالدعاء والصدقة.

المـوت:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة).

الموت صفة وجودية وليس عدمًا كما يقول الفلاسفة ومن وافقهم؛ لأنه وصف في القرآن بكونه مخلوقًا، والعدم لا يوصف بذلك، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[(1)].

وقال ﷺ: «**يُؤْتَى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار**»[(2)].
وهو وإن كان عَرَضًا فإن الله يقلبه عَيْنًا، كما ورد في العمل الصالح أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة، وكما ورد في القرآن أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون، كما ورد في سورة البقرة وآل عمران أنهما يوم القيامة يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان، أو غيايتان أو فرقان من طير صواف. وسيأتي الكلام على البعث والنشور إن شاء الله.

---

(١) الملك: ٢.

(٢) خ: تفسير سورة مريم، ح ٤٤٥٣. م: الجنة، ب١٣، ح٤٠. ت: تفسير سورة مريم. ح ٣١٥٦، س: تفسير سُورَة مريم، ح ٣٣٧- عن أبي سعيد الخدري.



أشـــراط الســـاعـــة

قال المصنف-رحمه الله تعالى-: (ونؤمن بأشراط الساعة: من خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض من موضعها).

أشراط الساعة كثيرة، وقد ذكر الشيخ فيها أربعة: الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، وطلوع الشمس من مغربها، والدابة.

روى مسلم عن حذيفة بن أسيد قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة، فقال: **«ما تذكرون»**؟ قالوا: نذكر الساعة، فقال: **«إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»**[(1)].

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: ذُكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: **«إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينه، وإن المسيح الدجال أعور عينه اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»**[(2)].

---

(1) م: الفتن، ب ١٣، ح ٣٩ و٤٠. د: الملاحم، ب ١٢، ح ٤٣١١. س: تفسير سورة الدخان، ح ٢/ ٤٩٥

(2) خ: الجهاد، ب١٧٤، ح ٢٨٩٢، الأنبياء، ب ٥، ح ٣١٥٩، وب ٤٩، ح٣٢٥٦ و ٣٢٥٧، التوحيد، ب ١٧، ح ٦٩٧٢، ٦٩٧٣. م: الإيمان، ب ٧٥، ح ٢٧٣ - ٢٧٥، الفتن، ب ٢٠، ح ١٠٠ و ١٠١. - عن عبد الله بن عمر.

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة: قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينـزل فيكم ابن مريم حكمًا عَدْلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنـزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة خيرًا من الدنيا وما فيها**"، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾(١) (٢)

وروى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة: قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل**»(٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾(٤).

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حَدِيثًا لم أنسه بعد، سمعْت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الآيات خُرُوجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبًا**»(٥).

أي: أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال ونزول عيسى من السماء وخروج يأجوج ومأجوج قبل ذلك إلا أنها أمور مألوفة؛ لأنهم بشر مشاهدة مثلهم

---

(١) النساء:١٥٩.

(٢) خ: البيوع، ب ١٠٢، ح ٢١٠٩. م: الإيمان، ب ٧١، ح ٢٤٢- ٢٤٦. عن أبي هريرة.

(٣) م: الإيمان، ب ٧٢، ح ٢٤٨- ٢٥٠. ق: الفتن، ب ٣٢، ح ٤٠٦٨ و ٤٠٧٠. عن أبي هريرة.

(٤) النمل: ٨٢.

(٥) م: الفتن، ب ٢٣، ح ١١٨. د: الملاحم، ب ١٢، ح ٤٣١٠. ق: الفتن، ب٣٢، ح ٤٠٦٩- عن عبد الله بن عمرو.

مألوفة، أما الدابة التي تكلم الناس وتَسِمُهم بالإيمان أو الكفر، والشمس التي تطلع من مغربها فذلك مما يخرج عن مجاري العادات، فالدابة على هذا أول الآيات الأرضية، وطلوع الشمس من مغربها أول الآيات السماوية.



عذاب القبر وفتنته

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (وبعذاب القبر لمن كان له أهل، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة رضي الله عنهم، والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران).

عذاب القبر:

تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه، فيجب الإيمان بذلك ولا يتكلم في كيفيته.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].

وهو محتمل لعذاب القتل وغيره في الدنيا، أو عذاب البرزخ؛ وهو أظهر لأن كَثِيرًا منهم مات ولم يعذب في الدنيا.

(١) غافر ٤٦.

(٢) الطور: ٤٧.

وفي الصحيحين عن ابن عباس: أن النَّبِيّ ﷺ مر بقبرين: فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**» فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين، وقال: «**لعله يخفف عنهما ما لم يَيْبَسَا**»(1).

وروى أحمد وأبو داود حديث البراء بن عازب وفيه أن العبد المؤمن يُفرش له في قبره من الجنة ويفتح له باب إليها ويفسح له في قبره مد البصر بعد أن يوفق للإجابة على أسئلة الملكين. وفيه أيضًا أن العبد الكافر يفرش له في قبره من النار، ويفتح له باب إليها فيأتيه من حرها وسَمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه بعد أن يخذل عند سؤال الملكين ولا يجد الجواب.

والعذاب أو النعيم في القبر إنما يكون للنفس والبدن مَعًا جَمِيعًا باتفاق أهل السنة والجماعة فيجب الإيمان بذلك ولا يُتكلم في كيفيته؛ إذ ليس للعقل مدخل في ذلك؛ لأنه لا عهد له به في هذه الدار.

وعذاب القبر هو عذاب البرزخ، وهو ينال من مات مستحقًّا له قُبِرَ أو لم يقبر، ولو أكلته السباع، أو احترق حتى صار رَمَادًا تذروه الرياح، أو غرق في البحار، فيصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور.

أما ما ورد من إجلاسه، واختلاف أضلاعه، ونحو ذلك، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، ذلك أن سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، وهو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، لا سيما إذا أضيف إليه سوء القصد!!

---

(1) خ: الْوُضُوء، ب ٥٤، ح٢١٣ وب ٥٥، ح ٢١٥، الجنائز، ب ٨٠، ح١٢٩٥ وب ٨٧، ح ١٣١٢، الأدب، ب ٤٦، ح ٥٧٠٥ و ب ٤٩، ح ٥٧٠٨. م: الإيمان، ب٣٤، ح ١١١. د: الطهارة، ب١١، ح ٢٠ و ٢١. ت: الطهارة، ب ٥٣، ح ٧٠، س: الجنائز، ب١١٦، ح ٢٠٧٠ و ٢٠٧١. ق: الطهارة، ب ٢٦، ح ٣٤٧، عن ابن عباس وغيره.

نار القبر ونعيمه ليست من جنس نار الدنيا ونعيمها:

يجب أن يعلم أن نار القبر ونعيمه ليست من جنس نار الدنيا ونعيمها، فقد يكون القبر حفرة من حفر النار ولو أحسه أهل الدنيا لم يحسوا بشيء.

وقد يدفن الرجلان في قبر واحد فيكون على أحدهما حفرة من حفر النار وعلى الآخر روضة من رياض الجنة، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب، وقد رأينا في هذه الدار ما هو أبلغ من ذلك بكثير.

وقد غيب الله عنا ذلك؛ لئلا تزول حكمة التكليف والإيمان بالغيب، ولكي يتدافن الناس. ففي صحيح مسلم: «**لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر**»(١)؛ ولهذا لما كانت هذه الحكمة منتفية في البهائم سمعت وأدركت.

سؤال منكر ونكير:

أما سؤال منكر ونكير فقد استفاضت به أيضًا النصوص: روى البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، إنه يسمع قرع نعالهم، فيأتيه ملكان، فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقول له: انظر إلى مقعدك في النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة فيراهما جميعاً**»(٢).

والسؤال في القبر للبدن والروح معًا، وليس للروح وحدها كما قال ابن حزم، فيجب الإيمان بذلك، ولا يسأل عن كيفيته؛ إذ ليس للعقل مدخل في ذلك؛ لأنه لا عهد له به

---

(١) م: الجنـة، ب ١٧، ح ٦٨. حـم: ١٠٢/ ٣ و ١٧٦ و ٢٠٢ و ٢٧٣، ١٩٠/ ٥. س: الجنـائز، ب ١١٤، ح ٢٠٦٠- عن أنس بن مالك.

(٢) خ: الجنائز، ب٦٦، ح ١٢٧٣ وب٨٥، ح ١٣٠٨. م: الجنة، ب ١٧، خ ٧٠- ٧٢. عن أنس بن مالك.

في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكن قد يأتي بما تحار فيه! فإعادة الروح للجسد ليست على الوجه المعهود في الدنيا.

هل سؤال منكر ونكير خاص بهذه الأمة؟

في المسألة ثلاثة أقوال، ثالثها: التوقف، وهو قول جماعة منهم: أبو عمر بن عبد البر، قال: وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها**»[1] منهم من يرويه: «**تُسأل**» وعليه يحتمل اختصاص هذه الأمة بذلك، وهذا أمر لا يقطع به ويظهر عدم الاختصاص، والله أعلم.

هل يدوم عذاب القبر أو ينقطع؟

عذاب القبر نوعان:

منه ما هو دائم: كما قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾[2].

وكذا في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر: «**ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة**».

ومنه ما يكون مدة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم، فيعذبون بحسب جرائمهم، ثم يخفف عنهم.

مستقر الأرواح بعد الموت إلى قيام الساعة:

اختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة على أقوال كثيرة متفاوتة، يصل

(١) م: الجنة، ب١٧، ح ٦٧. حم: ٣/ ٣ و ٣٤٦- عن زَيْد بن ثابت.
(٢) غافر: ٤٦.

بعضها إلى حد الخروج عن الإسلام، كقول التناسخية منكري المعاد: إن مستقرها بعد موتها أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصير تلك الرُّوح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الرُّوح.

والصحيح: أن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت:

- فمنها أرواح في أعلى عليين، وهي أرواح الأنبياء، وهم متفاوتون في منازلهم.
- ومنها أرواح في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء؛ لأن منهم من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه، كما في المسند: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: «**الجنة!**»، فلما ولى قال: «**إلا الدَّين سارَّني به جبريل آنفًا**»[1].
- ومنها من يكون محبوسًا على باب الجنة، كما في الحديث: «**رأيت صَاحِبكُمْ مَحْبُوسًا على باب الجنة**».
- ومنها: من يكون محبوسًا في قبره.
- ومنها: من يكون في الأرض.
- ومنها: أرواح تكون في تنور الزناة والزواني. ومنها: أرواح تسبح في الدم، وتلقم الحجارة.

كل ذلك تشهد له السنة، والله أعلم.

حياة الشهداء:

أما الحياة التي اختص بها الشهداء فهي أن الله عز وجل جعل أرواحهم في أجواف

(١) م: الإمارة، ب٣٢، ح ١١٧- ١٢٠. ت: الجهاد، ب ٣٢، ح ١٧١٢. س: الجهاد، ب٣٢، ح ٣١٥٧- ٣١٦٠. عن أبي قتادة وأبي هريرة.

طيور خضر، فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم الله منها في البرزخ أبدانًا خَيْرًا منها تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من تلك الأرواح المجردة عنها.

قال ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم**- يعني يوم أحد- **جعل الله أرواحهم في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب مظللة في ظل العرش**[(1)]»؛ ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير. قال ﷺ: «**إن نسمة المؤمن تعلق في شجر الجنة يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه**»[(2)]

فقوله: «نسمة المؤمن» يعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأنه في جوف طير خضر، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير فتدخل في عموم الحديث الأول بهذا الاعتبار، ولكن نصيبها من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم.

(1) م: الإمارة، ب ٣٣، ح ١٢١. د: الجهاد، ب ٢٧، ح ٢٥٢٠. ت: تفسير سورة آل عمران، ح ٣٠١١. ق: الجنائز، ب ٤، ح ١٤٤٩، الجهاد، ب ١٦، ح ٢٨٠١، حم: ٢٦٦/ ١- عن عبد الله بن عباس وابن مسعود.

(2) ت: فضائل الجهاد، ب ١٣، ح ١٦٤١، س: الجنائز: ب ١١٧، ٢٠٧٥. ق: الزهد، ب ٣٢، ح ٤٢٧، ط: الجنائز، ب ١٦، ح ٤٩. حم: ٤٥٥/ ٣- عن كعب بن مالك، وقال الترمذي: حسن صحيح.



الــــــروح

تقدم أن ملك الموت يتولى قبض الأرواح واستخراجها، ثم يتولى أمرها بعد ذلك ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، وأن كل ذلك بأمر الله وحكمه. وهناك بعض المسائل المتعلقة بالروح نشير إليها فيما يأتي:

مـــا الــــروح؟

لقد اختلف في حقيقة الروح، والذي يدل عليه الكتاب والسنة والإجماع والمعقول أنها جسم نُورَانِيٌّ علوي حي متحرك يسري في الأعضاء سريان الماء في الورد، والدهن في الزيتون، والنار في الفحم، وأنها مخالفة بالماهية لهذا الجسد المحسوس، فما دامت أعضاء الإنسان صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم ساريًا في هذه الأعضاء، وإذا فسدت وخرجت عن قبولها فارق الروح البدن، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[1]. ففي هذه الآية الإخبار بتوفيها، وإمساكها، وإرسالها، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى

(١) الزمر: ٤٢.

عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[(١)] . وفي هذه الآية وصفها بالرجوع والدخول والرضا.

وقال ﷺ: «**إن الروح إذا قبض تبعه البصر**»[(٢)] ففي هذا الحديث وصف الروح بالقبض وأن البصر يراه، وفي غيره أن روح المؤمن تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السِّقاء،[(٣)] وأنها تصعد ويوجد منها كأطيب ريح.

حدوث الـــــروح:

اختلف في حدوث الروح أو قدمها. والذي أجمعت عليه الرسل، واتفق عليه أهل السنة والجماعة أنها مخلوقة محدثة، وممن نقل الإجماع على ذلك محمد بن نصر المروزي، وابن قتيبة وغيرهم، وقد زعم البعض أنها قديمة، وتوقف آخرون.

الأدِلّـــة علـــى حـــدوث الـــروح:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[(٤)]؛ فهذا عموم لا مخصص له، فالله عز وجل بذاته وصفاته هو الخالق، وما سواه مخلوق، ومن المعلوم قطعًا أن الروح ليست هي الله ولا صفة من صفاته، وإنما هي من مصنوعاته. وهذا العموم لا يدخل فيه صفات الله؛ لأنها داخلة في مسمى اسمه.

قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾[(٥)] .

وقوله تعالى لزكريا: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ

---

(١) الفجر: ٢٧-٣٠.

(٢) م: الجنائز، ب٤، ح٧. د: الجنائز، ب٢١، ح٣١١٨. ق: الجَنَائِز، ب٦، ح١٤٥٤ عن أم سلمة.

(٣) ك: ٣٧/ ١. حم: ٢٨٧/ ٤. طَس: ص ١٠٢، ح ٧٥٣- عن أم سلمة. في حديث طويل وهو حديث حسن.

(٤) الزمر: ٦٢.

(٥) الإنسان: ١.

شَيْـًٔا ﴾[1]. والإنسان اسم لروحه وجسده، والخطاب لزكريا لروحه وبدنه. والروح توصف بالوفاة، والقبض، والإمساك، والإرسال، وهذا شأن المخلوق المحدث.

شبه القائلين بقدمها:

- قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[2]. فقد أخبر عز وجل بأن الروح من أمره، وأمره غير مخلوق.
- أن الله أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وقدرته وسمعه وبصره ويده: قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[3].

وأجيب عن الأول بأنه ليس المراد بالأمر هنا هو الطلب، بل المراد به هو المأمور.

وأجيب عن الثاني بأن المضاف إلى الله نوعان:

- صفات لا تقوم بنفسها، كالعلم والقدرة وغيرها، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها.
- إضافة أعيان منفصلة عنه، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، لكنها تقتضي التخصيص والتشريف.

هل تموت الروح؟

اختلف في موت الأرواح وبقائها فقيل: إنها تموت؛ لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت، ولأنه إذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت.

---

(١) مريم: ٩.

(٢) الإسراء: ٨٥.

(٣) الحجر: ٢٩.

وقيل: لا تموت، بل خلقت للبقاء، وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله إلى أجسادها.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها، وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا الفراق فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تفنى بالكلية فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب. قال تعالى مخبرًا عن أهل الجنة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾(١). وتلك الموتة هي مفارقة الأرواح للأجساد.

أما قول أهل النار: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾(٣). فالمراد أنهم كانوا أمواتًا وهم نطف في الأصلاب والأرحام، ثم أحياهم بعد ذلك ثم يميتهم، ثم يحييهم يوم النشور.

وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات. وأما صعق الأرواح عند النفخ في الصور فلا يلزم منه موتها، فإن الناس يصعقون يوم القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء وليس ذلك بموت، وكذلك صعق موسى لم يكن موتًا. فغاية الأمر أن نفخة الصعق موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق، وأما من ذاق الموت أو لم يكتب عليه من الحور والولدان وغيرهم فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية.

هل النفس والروح شيء واحد؟

اختلف الناس في مسمى النفس والروح هل هما متغايران أم مسماهما واحد؟

---

(١) الدخان: ٥٦.

(٢) غافر: ١١.

(٣) البَقَرَة: ٢٨.

والتحقيق أن مدلولهما قد يتحد تارة، وقد يختلف أخرى.

ذلك أن النفوس تطلق على عدة أمور:

- فقد تطلق على الروح، ولكن غالبًا ما تسمى نفسًا إذا كانت متصلة بالبدن، أما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها.
- وقد تطلق على الدم، ففي الحديث: «**ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه**»[1].
- وقد تطلق على العين، يقال: أصابت فلانًا نفس، أي: عين.
- وقد تطلق على الذات، قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[2].

أما **الروح** فإنها لا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وإنما قد تطلق على:

- القرآن: قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾[3].
- جبريل: قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[4].
- الهواء المتردد في بدن الإنسان.
- القوى التي في البدن: فإنها تسمى أَرْوَاحًا، فيقال: الروح الباصر، والروح السامع.
- وتطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله، والإنابة إليه

(١) قال الألباني في تخريج الطحاوية في الطبعة السادسة ص: ٤٤٥: «لا أعرف له أصلاً وإنما هو من كلام الفقهاء».

(٢) النور: ٦١.

(٣) الشورى: ٥٢.

(٤) الشعراء: ١٩٣.

ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن.

والناس متفاوتون في هذه الروح فمنهم: من تغلب عليه الروح فيصير رُوحِيًّا. ومنهم: من فقدها فيصير أرضِيًّا بَهِيمِيًّا.

أما ما يؤيد الله به أولياءه فهو روح أخرى، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[1].

هل لابن آدم ثَلاثَة أنفس: «مطمئنة ولوَّامة وأمارة»؟

ذهب إلى ذلك البعض، وقالوا: إن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه هذه. والتحقيق أنها نفس واحدة لها صفات:

فهي آمرة بالسوء. فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها. فإذا قوي الإيمان صارت مطمئنة؛ ولهذا قال ﷺ: «**من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن**»[2]. وقال: «**لا يَزني الزَّاني حِين يزني وهو مؤمن...**» الحديث.

تعلق الروح بالبدن:

للروح بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

- تَعَلُّقهَا به في بطن الأم حيًّا.
- تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.
- تعلقها به حال النوم، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.
- تعَلُّقهَا به في البرزخ، فإنها لم تفارقه فراقًا كليًّا، بل لها به نوع تعلق، فقد ورد

(١) المجادلة: ٢٢.

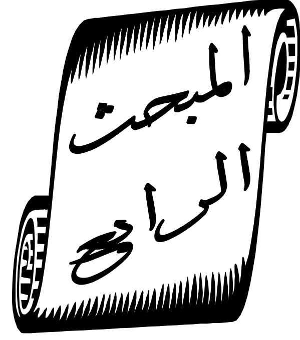
(٢) ك: ١/١٤. حب: ١/ ٢٠١، ح ١٧٦. حم: ٥/ ٢٥١، ٢٥٢، ٢ء٦- عن أبي أمامة وهو حديث صحيح.

ردها إليه وقت سلام المسلم عليه، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولُّون عنه. وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

- تعلقها به يوم البعث، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن؛ لأن البدن لا يقبل بعده مَوْتًا ولا نَوْمًا ولا فَسَادًا.

هل تأكل الأرض أجساد الأنبياء أو الشهداء؟

«**إن الله حرم الله تعالى على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»، كما روي في السنن. أما الشهيد فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويحتمل أن يبلى مع طول المدة، وكأنه كلما كملت شهادته وفضله كان بقاء جسده أطول. والله أعلم.



انتفاع الموتى بالدعاء والصدقة

قال المصنف-رحمه الله تعالى-: (وفي دعاء الأحياء وصدقتهم منفعة للأموات.

اتفق أهل السنة على أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين:

- **أحدهما**: ما تسبب فيه الميت في حياته.
- **الثاني**: دعاء المسلمين واستغفارهم، والصدقة، أما الحج فعلى نزاع فيما يصل من ثوابه إليه. هل هو ثواب النفقة والحج للحاج؟ روي عن محمد بن سيرين، أم هو ثواب الحج، وهو الرأي عند عامة العلماء.

واختلف في العبادات البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن، فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها. والمشهور من مذهب مالك والشافعي عدم وصولها. وزعم بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء من ذلك البتة لا الدعاء ولا غيره.

أدلة المانعين:

استدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه من عدم انتفاع الميت بشيء من سعي الأحياء مطلقًا بما يأتي: قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2]، وقوله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده**»[3]. فأخبر بأنه ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة، أما ما سواه فهو منقطع عنه.

مناقشة أدلة المانعين:

نوقش استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[4] من عدة أوجه منها:

أن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء، ونكح الأزواج، وأنجب الأولاد، وتودد إلى الناس فترحموا عليه، ودعوا له، فكان أثر سعيه، بل دخوله مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه في حياته وبعد مماته؛ لأن الله جعل الإيمان سببًا لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه المؤمنين.

أن القرآن لم ينفِ انتفاع الرجل بسعي غيره، بل نفى ملكه له، وبينهما فرق ظاهر، فسعي الإنسان ملك له أما سعي غيره فهو ملك لساعيه، إن شاء أن يبذله لغيره، وإن شاء أبقاه لنفسه. أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[5]،

---

(١) النجم: ٣٩.

(٢) يس: ٥٤.

(٣) م: الوصايا، ب ٣، ح ١٤. د: الوصايا، ب ١٤، ح ٨٨٠ - عن أبي هريرة.

(٤) النجم: ٣٩.

(٥) يس: ٥٤.

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[1].

فقد نوقش بأن المنفي هو عقوبة العبد بعمل غيره.

أما استدلالهم بالحديث: «**إذا مات ابن آدم...**» فقد نوقش بأنه ﷺ لم يقل انقطع انتفاعه، وإنما قال: انقطع عمله، وأما عمل غيره فهو لعامله، فإن وهبه له وصل إليه، كالدَّين يوفيه الإنسان عن غيره فتبرأ ذمته، لكن ليس له ما وُفِّي به الدَّين.

أدلة المفصلين:

وقد استدل من فرقوا بين العبادات المالية والعبادات البدنية بما روى النسائي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مُدًّا من حنطة**»[2].

مناقشة أدلة المفصِّلين:

وقد نوقش هؤلاء بما يأتي:

أن النبي ﷺ قد شرع الصوم عن الميت مع أنه لا تجزئ فيه النيابة.

كذلك ثبت عنه ﷺ فيما رواه أحمد وأبو داود والترمذي، أنه ﷺ أُتي بكبش فذبحه يوم عيد الأضحى وقال: «**اللهم هذا عني وعن من لم يضح من أمتي**»[3]. والقربة في الأضحية إراقة الدم وقد جعلها لغيره.

كذلك الحج جازت فيه النيابة وهو عبادة بدنية محضة كما نص عليه جماعة من أصحاب أبي حنيفة.

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) الطحاوي في مشكل الآثار ٣/ ١٤١ عن ابن عباس موقوفًا عليه.

(٣) حم: ٣/٣٥٦، ٣٦٢ عن جابر باختلاف يسير وإسناده لا بأس به. د: الأضاحي، ب ٨، ح ٢٨١٠ عن جابر أَيْضًا.

أن فروض الكفاية يقوم بها البعض عن الباقين.

أن هذا ثواب، وليس من باب النيابة، كما أن الأجير الخاص ليس له أن يستنيب وله أن يعطي أجره لمن يشاء.

أدلة الجمهور:

استدل الجمهور على جواز انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه من غير تفرقة بين العبادات المالية والبدنية بالكتاب والسنة والإجماع والقياس.

فمن أدلتهم على انتفاعه بالدعاء:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[1].

- فقد أثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين من قبلهم، فدل على انتفاعهم بذلك.
- إجماع الأمة على الدعاء في صلاة الجنازة، وكذلك الدعاء بعد الدفن. قال ﷺ: «**استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسْأَل**»[2].
- وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «**السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، نسأل الله لنا ولكم العافية**»[3].

ومن الأدلة على وصول ثواب الصدقة:

ما جاء في الصحيحين عن عائشة: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: «**يا رسول الله إن أمي**

(١) الحشر: ١٠.

(٢) د: الجنائز، ب ٧٣، ح ٣٢٢١. ك: ٣٧٠/ ١. البيهقي: ٥٦/ ٤، عن عثمان بن عفان، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٣) م: الجنائز، ب ٣٥، ح ١٠٤. س: الجنائز، ب ١٠٣، ح ٢٠٤٢. ق: الجنائز، ب ٣٦، ح ١٥٤٧ عن بُرِيده بن الحصين.

افتلت نفسها (أي: ماتت فجأة)، ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم»[1].

ومن الأدلة على وصول ثواب الصوم:

ما جاء في الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال:«**من مات وعليه صوم صام عنه وليه**»[2].

ولكن أبا حنيفة قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه؛ لحديث ابن عباس المتقدم[3].

ومن الأدلة على وصول ثواب الحج:

ما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج حتى ماتت فلم تحج، أفأحج عنها؟ قال: «**حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء**»[4].

---

(١) متفق عليه. خ: الجنائز، ب ٩٣، ح ١٣٢٢، الوصايا، ب ١٩، ح ٢٦٠٩. م: الزكاة، ب ١٥، ح ٥١، الوصية، ب ٢، ح ١٢ – عن عَائِشَة.

قال الشوكاني في نيل الأوطار (٤/ ٧٩): «وأحاديث الباب تدل على أن الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما بدون وصية منهما، ويصل إليهما ثوابها، فيخصص بهذه الأحاديث عموم قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ولكن ليس في أحاديث الباب إلا لحوق الصدقة من الولد».

(٢)خ: الصوم، ب ٤١، ح ١٨٥١. م: الصوم، ب ٢٧، ح ١٥٣ – عن عائشة.

(٣) وعن ابن عباس قال: «**إذا مرض الرجل في رمضان، ثم مات ولم يصم، أطعم عنه ولم يكن عليه قضاء، وإن كان عليه نذر قضى عنه وليه**» أخرجه أبو داود بسند صحيح على شرط الشيخين.

قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٥٤): "فطائفة حملت هذا على عمومه وإطلاقه، وقالت: يصام عنه النذر والفرض. وأبت طائفة ذلك وقالت: لا يصام عنه نذر ولا فرض، وفصلت طائفة فقالت: يصام عنه النذر دون الفرض الأصلي. وهذا قول ابن عباس وأصحابه، وهو الصحيح".

(٤) متفق عليه. خ: الجزاء، ب ٣٣، ح ١٧٥٤، الأيمان و النذور، ب ٢٩، ح ٦٣٢١، الاعتصام، ب ١٢، ح ٦٨٨٥. م: الصيام، ب ٢٧، ح ١٥٤ – ١٥٦. كلهم عن ابن عباس.

ومن الأدلة على أن قضاء الدين عن الميت يبرئ ذمته ولو كان من أجنبي:

- الإجماع.
- حديث أبي قتادة: حيث ضمن الدينارين عن الميت، فلما قضاها قال النبي ﷺ: **«الآن بردت عليه جلدته»**(١).

وكل ذلك جار على قواعد الشرع، وهو محض القياس، فإن الثواب حق العامل، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك،كما لم يمنع من هبة ماله له في حياته، وإبرائه له منه بعد وفاته.

وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية؛ لأن الصوم كف عن المفطرات بالنية، فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية؟

قراءة القرآن وإهداؤها طواعًا بلا أجرة:

أما قراءة القرآن وإهداؤها طَوْعًا بلا أجرة فهذا يصل إلى الميت كما يصل إليه ثواب الصوم والحج(٢). فإن قيل: لم يكن مَعْرُوفًا عند السلف، ولا أرشدهم إليه ﷺ. قيل:

وفي الحديث أن من نذر أن يحج ثم مات قبل أن يتمكن من الحج، حج عنه وليه، وكذلك لو حبسه عذر شرعي عن الحج، ومات قبل أن يحج جاز لوليه أن يحج عنه، وما سوى ذلك لا يُشرع الحج عن الميت.

يقول ابن القيم في كتاب «إعلام الموقعين»: «فأما المفرط من غير عذر أصلاً فلا ينفعه أداء غيره لفرائض الله التي فرط فيها، وكان هو المأمور بها ابتلاء وامتحانًا دون الولي. فلا تنفع توبة أحد عن أحد، ولا إسلامه عنه، ولا أداء الصلاة عنه ولا غيرها من فرائض الله تعالى التي فرط فيها حتى مات...».

(١) ك: ٥٨/ ٢. طه: ح ١٦٧٣. البيهقي: ٧٥/ ٦. حم: ٣٣٠/ ٣- عن أبي قتادة. بإسناد لا بأس به.

(٢) هذا القياس باطل من وجهين: الأول: أنه يحمل الأحاديث التي تدل على وصول ثواب الصوم والحج للميت ما لا تحتمل. والثاني: أن الصحابة -وهم قدوتنا- لم يسبقونا إلى هذا القياس فهمًا وعملاً، ونحن يكفينا ما كفاهم. ثم إن تلاوة القرآن وهبة ثوابها للأموات -في نظر المجيزين- هي عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، فلو كانت كذلك لبينها لنا النبي ﷺ بنص صريح؛ لأنه ما ترك شيئًا يقربنا إلى الله إلا وقد أمرنا به، وما ترك شيئًا يبعدنا عن الله إلا وقد نهانا عنه؛ فإن قيل: لم يرد حديث ينهى عن إهداء ثواب تلاوة القرآن للأموات، قيل: بلى، فقد صح عن

ليس كون السلف لم يفعلوه حجة في عدم الوصول، ومن أين لنا هذا النفي العام؟

أما كونه ﷺ أرشد إلى الصوم والحج دون القراءة، فإنه ﷺ لم يبتدئهم بذلك، بل خرج مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له فيه، وهذا سأله عن الصوم فأذن له فيه، ولم يمنعهم مما سوى ذلك.

وأي فرق بين وصول ثواب الصوم الذي هو مجرد إمساك ونية، وبين وصول ثواب القراءة وهي فعل ونية؟!

حكم الإهداء إلى رسول الله ﷺ:

أما الإهداء إلى رسول الله ﷺ فمن المتأخرين من استحبه، ومنهم من رآه بدعة؛ لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه، ولأن النبي ﷺ له مثل أجر كل من عمل من أمته خيرًا؛ لأنه هو الذي دلهم على ذلك من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئًا.

قراءة القرآن بأجرة وإهداء ذلك إلى الميت:

وأما استئجار قوم يقرأون القرآن ويهدونه للميت فلم يفعله ولا رخص فيه أحد من السلف، والاستئجار على نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف، وإنما اختلفوا في جواز الاستئجار على التعليم ونحوه.

والثواب لا يصل إلى الميت إلا إذا كان العمل لله، وهذا لم يقع عبادة خالصة، فلا يكون

النبيﷺ أنه قال: «**من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد**» فالأصل في العبادات المنع والحظر ما لم يرد نص يأمر أو يجيز بخلاف الأمور الدنيوية البحتة فإن الأصل فيها الإباحة ما لم يرد نص على التحريم.

قال ابن تيمية: «ولم يكن من عادة السلف إذا صلوا تطوعًا، أو صاموا تطوعًا، أو حجوا تطوعًا، أو قرأوا القرآن، يهدون ثواب ذلك إلى أموات المسلمين، فلا ينبغي العدول عن طريق السلف فإنه أفضل وأكمل». (الاختيارات العلمية ص٥٤).

له من الثواب ما يهدى إلى الموتى؛ ولهذا لم يقل أحد: إنه يعطى من يصوم ويصلي ويهدي ثواب ذلك إلى الميت، وفي الاختيار: لو أوصى بأن يعطى شيء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره فالوصية باطلة؛ لأنه في معنى الأجرة.

أما إذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لأهل القرآن على ذلك كان هذا من جنس الصدقة عنه فيجوز.

قراءة القرآن عند القبور:

اختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور:

فقال بكراهتها أبو حنيفة ومالك وأحمد في رواية؛ لأنه محدث لم ترد به السنة ولأن القراءة تشبه الصلاة، والصلاة عند القبور منهي عنها.

وقال محمد بن الحسن وأحمد في رواية: لا بأس بها، واستدلوا بما نقل عن ابن عمر رضي الله عنه أنه أوصى أن يُقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها، وبما نقل أَيْضًا عن بعض المهاجرين من قراءة سورة البقرة.

وقال أحمد في رواية: لا بأس بها وقت الدفن فقط، أَخْذًا بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين. وأما بعد ذلك كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده فهذا مكروه؛ لأنه لم تأت به السنة، ولم ينقل عن أحد من السلف؛ ولعله أقوى لما فيه من التوفيق بين الدليلين.

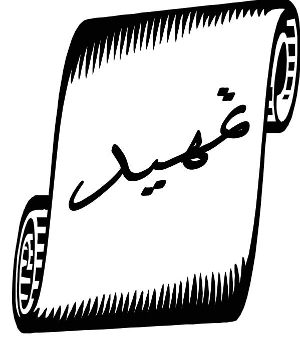
هل ينتفع الميت بقراءة القرآن عنده باعتبار سماعه كلام الله؟

الجواب: أنه ربما يتضرر لكونه لم يمتثل أوامر الله، ولكونه لم يزدد من الخير، وهذا لم يصح عن أحد من الأئمة المشهورين، وانتفاعه بالسماع لا يصح؛ لأن ثواب الاستماع مشروط بالحياة؛ لأنه عمل اختياري.

الفصـل الثـانـي

الإيمــان بالمعــاد

- المبحث الأول: عمـوم العلـم بالقيامـة الكبـرى عنـد جميع الأنبياء.
- المبحث الثاني: العــــرض.
- المبحث الثالث: الحــــوض.
- المبحث الرابع: الميــــــزان.
- المبحث الخامس: الصــــراط.
- المبحث السادس: الشفـــاعة.
- المبحث السابع: وجود الجنة والنار وأبديتهما.



قال المصنف: -رحمه الله تعالى-: (ونؤمن بالبعث، وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان).

الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة، والعقل، والفطرة. وقد أكثر القرآن الكريم من إقامة الأدلة عليه، ودفع شبه المنكرين له في غالب سوره؛ وذلك لأن الإقرار بالربوبية أمر فطري بخلاف البعث فإن منكريه كثيرون.

ولما كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء فقد بين تفصيل الآخرة بيانًا لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء، حتى ظن بعض المتفلسفة أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ﷺ وجعلوا هذا حجة لهم في أنه من باب التمثيل والخطاب الجمهوري! وهؤلاء ينكرون معاد الأبدان وينكرون القيامة الكبرى، وقولهم هذا غاية في الفساد.



عموم العلم بالقيامة الكبرى عند جميع الأنبياء

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونؤمن بالبعث، وجزاء الأعمال يوم القيامة).

القيامة الكبرى معروفة عند جميع الأنبياء من لدن آدم إلى محمد ﷺ:

ففي قصة آدم قال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[1]. ولما قال إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[2]. وأما نوح فقد قال: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[3]. وقال إبراهيم: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[4]، وقال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[5].

---

(١) الأعراف: ٢٥.

(٢) ص: ٧٩-٨١.

(٣) نوح: ١٧- ١٨.

(٤) الشعراء: ٨٢.

(٥) إبراهيم: ٤١.

وفي قصة موسى قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾(١).

بل إن مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ...﴾ إلى أن قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾(٢).

وقد أخبر تعالى عن أهل النار أنهم إذ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٣) فهذا اعتراف من جميع أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل قد أنذرتهم لقاء يومهم هذا فجميع الرسل قد أنذروا بها أنذر به خاتمهم ﷺ.

وقد أمر الله نبيه أن يقسم على المعاد، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾(٦).

وأخبر عن اقترابها: قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾(٧)،

---

(١) طه: ١٥-١٦.

(٢) غافر: ٣٢- ٣٩.

(٣) الزمر: ٧١.

(٤) يونس: ٥٣.

(٥) سبأ: ٣.

(٦) التغابن: ٧.

(٧) الأنبياء: ١.

وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[1].

وذم المكذبين بالمعاد، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾[4].

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا..﴾[5] إلى آخر السورة.

افتتح سبحانه هذه الحجة بسؤال أورده ملحد، اقتضى جوابًا، فكان في قوله: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ﴾ ما يفي بالجواب. فلما أراد تأكيد الحجة وزيادة تقريرها قال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فاحتج بالابتداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، فمن قدر على تلك قدر على هذه، ولو كان عاجزًا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول، فإذا كان تامَّ العلم كاملَ القدرة فكيف يتعذر أن يحييَ العظام وهي رميم. ثم أكد الأمر ببرهان آخر يتضمن جوابًا عن سؤال ملحد آخر يقول: إن العظم إذا رمَّ أصبح ذا طبيعة باردة يابسة، فكيف

(١) القمر: ١.

(٢) الأنعام: ٣١.

(٣) الشورى: ١٨.

(٤) النحل: ٣٨- ٣٩.

(٥) يس ٧٨- ٨٣.

يرجع إلى الحياة التي لابد لها من طبيعة حارة رطبة؟ فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾. فأخبر بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشَّيء من ضده ولا يستعصي عليه شيء، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودَفَعَهُ!!

ثم أكد هذا المعنى بأخذ الدلالة من الشيء الأعظم على الشيء الأصغر، فمن قدر على حمل قنطار كان على حمل أوقية أشد اقْتدارًا، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾، فالذي أبدع السماوات والأرض على عظم شأنهما، وعجيب خلقهما أقدر على أن يحييَ عِظَامًا قد صارت رميمًا! كما قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، ثم أكد ذلك ببينة أخرى وهي أنه ليس فعله بمنـزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والمشقة، بل يكفي في خلقه إرادته وقوله للمكوَّن ﴿كُن﴾ فإذا هو كائن كما شاءه وأراده. ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده يتصرف فيه بفعله وقوله.

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[2]، فمن قلَّبه في أطوار الخلق، وركَّب فيه الحواس والقوى، وأحكم خلقه غاية الإحكام، كيف يعجز عن إعادته مرة ثانية؟ أم كيف تقتضي حكمته أن يتركه مهملاً عن الأمر والنهي والثواب والعقاب. وقريب من هذا الاحتجاج آيات سورتي الحج والمؤمنون.

النشأة الأخرى:

الذي عليه السلف وجمهور العقلاء أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال فتستحيل

(١) غافر: ٥٧.

(٢) القيامة: ٣٦.

تُرَابًا، ثم ينشئها الله نشأة أخرى، فيعيد الجسم بعد أن يبلى كله -إلا عجب الذنب- وذلك كما استحال في النشأة الأولى من نُطْفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ولحم ثم أنشأه الله خلقًا آخر. قال ﷺ: «**كل ابن آدم أوله التراب إلا عَجْبَ الذَّنب، منه خلق وفيه يركب**»[1] رواه مسلم.

وفي حديث آخر قال ﷺ: «**إن السماء تمطر مطرًا كمني الرجال، ينبتون في القبور كما ينبت النبات**»[2] فعجْب الذنب هو الذي يبقى، وأما سائره فيستحيل فيعاد من المادة التي استحال إليها. ومعلوم أنه من رأى شَخْصًا وهو صغير ثم رآه بعد أن صار شَيْخًا علم أن هذا هو ذاك مع أنه دَائِمًا في تحلل واستحالة، ويضطرد ذلك في سائر الحيوان والنبات، فمن رأى شجرة وهي صغيرة ثم رآها وهي كبيرة قال: هذه تلك.

وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة للأولى، فالأولى فانية معرضة للآفات، والثانية باقية غير معرضة للآفات، فتتفق النشأتان من وجه، ويختلفان من وجه آخر. أما القائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة فإن لهم في المعاد خبطًا واضطرابًا:

- فمنهم من يقول: تعدم الجواهر ثم تعاد.
- ومنهم من يقول: تفرق ثم تجمع.

وقد أُوردَ عليهم:

- الإنسان الذي يأكله حيوان، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا لم تعد من هذا.
- إن الإنسان يتحلل دائمًا فماذا الذي يعاد؟ أهو الذي كان وقت الموت فيلزم أن يعاد

---

(١) خ: تفسير سورة الزمر، ح ٤٥٣٦، وتفسير سورة النبأ، ح ٤٦٥١. م: الفتن، ب ٢٨، ح ١٤١- ١٤٣. د: السنة، ب ٢٤، ح ٤٧٤٣. س: الجَنَائِز، ب ١١٧، ح ٢٠٧٩. ق: الزهد، ب ٣٢، ح ٤٢٦٦. حم: ٢/ ٣٢٢- عن أبي هريرة.

(٢) ك: ٤/ ٥٩٨. طب: ٩/ ٤١٣، ح ٩٧٦١- عن ابن مسعود بإسناد لا بأس به.

بصورة ضعيفة، وهو خلاف النصوص، أم غيره، وليس بعض الأبدان بأولى من بعض.

جزاء الأعمال:

قال تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ ﴾[2]. والدين هو الجزاء، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[3].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه**»[4].

(١) الفاتحة: ٤.

(٢) النور: ٢٥.

(٣) الأنعام: ١٦٠.

(٤) الجامع الصغير للسيوطي (٦٠٢٠) وفي صحيح مسلم عن أبي ذر.



العـــــرض

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (... والعرض والحساب، وقراءة الكتاب).

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[4].

---

(١) الحاقة: ١٨.

(٢) الكهف: ٤٨.

(٣) الانشقاق: ٦- ١٢.

(٤) الكهف: ٤٩.

وقد قال ﷺ: «**ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك**». فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾(١). فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب**»(٢).

يعني أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم، لكنه تعالى يعفو ويصفح، قال ﷺ: «**يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فعرْضَتَان جدال ومعاذير، وعرضة تطاير الصحف، فمن أوتي كتابه بيمينه وحوسب حسابًا يسيرًا دخل الجنة،ومن أوتي كتابه بشماله دخل النار**»(٣).

صعق الخلائق في الموقف:

قال ﷺ: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور**».

وهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء فحينئذ يصعق الخلائق.

فإن قيل: فما وجه الجمع بين هذا الحديث، وبين رواية: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش**»؟(٤)

فالجواب: إن هذه الرواية الثانية قد دخل فيها على الراوي حديث في حديث. فركب بين اللفظين، فجاء هذان الحديثان هكذا:

---

(١) الانشقاق: ٧-٨.

(٢) خ: العلم، ب ٣٦، ح ١٠٣، تفسير سورة الانشقاق، ح ٤٦٥٥، الرقاق، هـ ٤٩، ح ٦١٧١ و٦١٧٢ م: الجنة، ب ١٨، ح ٧٩، ٨٠. س: تفسير سورة الانشقاق، ح ٦٧١ –عن عَائِشَة.

(٣) ت: القيامة، ب٤، ح ٢٤٢٥–عن أبي هريرة. حم: ٤١٤/ ٤–عن أبي موسى الأشعرى. وهو حَدِيث صحيح.

(٤) أبو داود باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رقم (٤٦٧١) وفي صحيح مسلم باب من فضائل موسى رقم (٢٣٧٢).

أحدهما: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق**».

والثاني: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة**».

فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر. وممن نبه على هذا أبو الحجاج المزي وابن القيم وابن كثير.

وإن قيل: لقد رواه البعض بلفظ: «**فلا أدري أفاق قبلي، أم كان ممن استثنى الله عز وجل**».

فالجواب: إن المحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول، وعليه المعنى الصحيح، فإن الصعق يوم القيامة لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء، فإذا كان موسى لم يصعق معهم فيكون قد جوزي بصعقه يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكًّا، فجعلت هذه عوضًا عن صعقة الخلائق لتجلي الله يوم القيامة.



الحـــــوض

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (والحوض-الذي أكرمه الله تعالى به غياثًا لأمته- حق).

الحوض مورد كريم يمد من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحًا من المسك. أباريقه عدد نجوم السماء، وعرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر. والأحاديث الواردة في الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيًّا، منها:

ما رواه البخاري عن أنس قال: قال: ﷺ: «**إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق عدد نجوم السماء**»[(1)]

وعن سهل بن سعد الأنصاري: قال: قال ﷺ: «**إني فرطكم على حوضي، من مرَّ عليَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا**»[(2)].

---

(١) خ: الرقاق، ب٥٣، ح ٦٢٠٩. م: الفضائل، ب ٩، ح ٣٩. ت: القيامة، ب ١٤ و١٥، ح ٢٤٤٢، ٢٤٤٥. ق: الزهد، ب ٣٦، ح ٤٣٠٢- ٤٣٠٥- عن أنس وحذيفة وثوبان.

(٢) خ: الرقاق، ب ٥٣، ح ٦٢٠٥، الفتن، ب ١، ح ٦٦٤٢. م: الفضائل، ب٩، ح ٢٥- ٣٢. ق: الفتن، ب ٥، ح٣٩٤٤، الزهد، ب ٣٦، ح ٤٣٠٦. حم: ٤/ ٣١٢، ٤١/ ٥ و ٨٦- عن أبي مسعود وجندب.

وروى البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أنا فرطكم على الحوض**».

أما الكوثر فهو نهر في الجنة يشخب منه ميزابان إلى الحوض.

الحوض قبل الصراط وقبل الميزان:

والحوض في العرصات قبل الصراط؛ لأنه يختلج عنه ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط، ففي حديث البخاري السابق: «**إني فرطكم على حوضي، من مرَّ عليَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا، لَيَرِدَنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم**». وزاد أبو سعيد الخدرى: «**أقول: إنهم من أمتي، فقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن غير بعدي**»(١).

واختلف في الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر؟ فقيل: الميزان، وقيل: الحوض، والصحيح أن الحوض قبل الميزان، واختاره القرطبي.

قال -رحمه الله-: (... والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون عطاشًا من قبورهم، فيقدم قبل الميزان والصراط). واختاره أيضًا أبو حامد الغزالي.

---

(١)خ:الرقاق، ب ٥٣، ح ٦٢١٢، الفتن، ب١، ح ٦٦٤٣. م: الفضائل، ب٩، ح ٢٦ و ٢٨، ٢٩، ٣٢- عن سهل وعبد الله بن عمرو وعائشة وأم سلمة.



الميـــــــزان

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (... والميزان).

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾[2]. وجمعت الموازين باعتبار تعددها، أو باعتبار تنوع الأعمال الموزونة.

وقد دلت السنة على أن الميزان له كفتان حِسيتان مشاهدتان. جاء في حديث السجلات الذي رواه أحمد: «**فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فتطيش السجلات، وتثقل البطاقة**»[3].

---

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) القارعة: ٦- ٩.

(٣) ت: الإيمان، ب ١٧، ح ٢٦٣٩. ق: الزهد، ب ٣٥، ح ٤٣٠٠. ك: ١/٦ و ٥٣٩. حم: ٢/٢١٣ -عن عبد الله بن عمرو. وقال الترمذي: حسن غريب.

متى يكون الوزن؟

والوزن يكون بعد الحساب؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها.

ما الموزونات؟

وردت الأحاديث بوزن الأعمال نفسها: عن أبي مالك الأشعرى قال: قال ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان**»(١).

وقال ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»(٢).

كما وردت أيضًا بأن العامل يوزن مع عمله: روى البخاري عن أبي هريرة عن النبيﷺ: «**إنه ليؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، قال: اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾**(٣). **وقال ﷺ -عندما ضحك البعض من دقة ساقي ابن مسعود-: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد»**(٤).

ولا وجه لاعتراض البعض بأن الأعمال أعراض لا تقبل الوزن؛ لأن الله عز وجل يقلب الأعراض أجسامًا، كما يؤتى بالموت -وهو عرض- في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار.

---

(١) م: الطهارة، ب ١، ح ١. ت: الدعوات، ب٨٧، ح ٣٥١٨ و ٣٥١٩- عن أبي مالك الأشعري.

(٢) خ: الدعوات، ب ٦٥، ح ٦٠٤٣، الأيمان والنذور، ب ١٨، ح ٦٣٠٤، التوحيد، ب٥٨، ح ٧١٢٤. م: الذكر، ب ١٠، ح ٣١. ت: الدعوات، ب ٦٠، ح ٣٤٦٧.ق: الأدب، ب٥٦، ح ٣٨٠٦. حم: ٢/٢٣٢- عن أبي هريرة.

(٣) الكهف: ١٠٥.

(٤) ك: ٣/٣١٧. حم: ١/٤٢١- عن ابن مسعود، وهو حديث صحيح.

ما الحكمة من وزن الأعمال؟

ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه وتعالى لجميع عباده لكان ذلك كافيًا، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله عز وجل، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فكيف ووراء ذلك من الحِكم ما لا اطلاع لنا عليه؟!



الصـــــــراط

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (... والصراط).

الصراط جسر على ظهراني جهنم، وهو كحد السيف، دحض مزلة، فإذا فارق الناس مكان الموقف انتهوا إلى الظلمة التي دون الصراط. وسئل رسول الله ﷺ: «**أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات فقال: «هم في الظلمة دون الجسر**»[1].

وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، فيتخلف المنافقون، ويسبق المؤمنون ويحال بينهما بسور، ويعطى الناس يومئذ النور على قدر أعمالهم:

- فمنهم من يكون نوره كالجبل بين يديه.
- ومنهم من يكون نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يكون نوره على إبهام قدمه يضيء مرة، ويطفأ مرة، فإذا أضاء قدم قدمه، وإذا أُطفيء قام.
- يمر الناس على الصراط فيمضون عليه على قدر نورهم:
- فمنهم من يمر كانقضاض الكواكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يرمل رَمَلاً.

(١) م: الطهارة، ب٨، ح٣٤. ت: تفسير سورة إبراهيـم، ح ٣١٢١. ق: الزهد، ب ٣٣، ح ٤٢٧٩ – عن ثوبان وعائشة.

حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد وتعلق يد، وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبَه النار، فإذا خلصوا حمدوا الله عز وجل.

معنى الورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾:

اختلف المفسرون في الورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[١]. والأظهر: أنه المرور على الصراط. قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يلج النارَ أحدٌ بايع تحت الشجرة**»، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فقال: «**ألم تسمعيه قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾**[٢].

فقد أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾[٣]، وقال: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا ﴾[٤]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾[٥]، ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك.

وكذلك حال الوارد على النار يمر فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًا، فقد بيَّن ﷺ أن الورود على الصراط.

(١) مريم: ٧١- ٧٢

(٢) م: فضائل الصحابة، ب٣٧، ح١٦٣ –عن أم مبشر الأنصارية.

(٣) هود: ٥٨.

(٤) هود:٦٦.

(٥) هود: ٩٤.

هل هناك صراط خاص بالمؤمنين؟

ورد في الصحيحين: «**إن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة**»[1]. جعل القرطبي في التذكرة هذه القنطرة صراطًا ثانيًا للمؤمنين خاصة، وليس يسقط منه أحد في النار.

(١) خ: المظالم، ب ٢، ح ٢٣٠٨، الرقاق، ب ٤٨، خ ٦١٧٠. حم: ٣/ ١٣ و ٦٣ و ٧٤- عن أبي سعيد الخدري.



الشفـاعـــة

قال المصنف -رحمه الله-: (والشفاعة التي ادخرها لهم حق، كما روي في الأخبار).

الشفاعة أنواع: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالفت فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

النوع الأول: الشفاعة العظمى، وهي خاصة بنبينا محمد ﷺ، ذلك أنه إذا كانت القيامة، وبلغ الكرب بالناس ما بلغ، يُهرعون إلى الأنبياء ليشفعوا لهم عند الله ليخلصهم مما هم فيه ويأتي للفصل بينهم، فيذكر كل نبي ذنبه، ويحيل إلى الآخر حتى إذا انتهوا إلى محمد ﷺ فإنه يذهب ويسجد تحت العرش، ثم يسأل الله الشفاعة في ذلك فيجيبه عز وجل لذلك، ويأتي للفصل بين العباد.

النوع الثاني: شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة.

النوع الثالث: شفاعته في أقوام قد أُمر بهم إلى النار؛ لئلا يدخلوها.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم، وقد وافقت المعتزلة على هذا النوع.

النوع الخامس: شفاعته في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ودليله حديث عكَّاشة بن محصن حين دعا له ﷺ أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب.[1]

النوع السادس: شفاعته في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه. أما قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[2] فالمراد لا تنفعهم في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين.

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة: عن أنس قال: قال ﷺ: «**أنا أول شفيع في الجنة** »[3] رواه مسلم.

النوع الثامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمته: عن أنس قال: قال ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»[4]. وهذه الشفاعة التي تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون، وقد خالفت فيها الخوارج والمعتزلة.

الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال:

- فالمشركون والنصارى، والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.
- والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة النبي ﷺ وغيره في أهل الكبائر.
- أما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ، وبشفاعة غيره لكن لا يشفع أحد

(١) خ: الطب، ب ١٧، ح ٥٣٧٨ وب ٤١، ح ٥٤٢٠، الرقاق، ب ٢١، ح ٦١٠٧ وب٥٠، ح ٦١٧٥، م: الإيمان: ب ٨٤، ح ٣٦٧- ٣٧٣. ت: القيامة، ب١٢، ح ٢٤٣٧ وب ١٦، ح ٢٤٤٦. ق: الزهد، ب٣٤، ح ٤٢٨٥ و ٤٢٨٦. حب: ١٨٣/ ٩، ح ٧٢٠٠- عن ابن عباس وأبي هريرة وعمران ابن حصين.

(٢) المدثر: ٤٨.

(٣) م: الإيمان، ب ٨٥، ح ٣٣٠- ٣٣٣- عن أنس بن مالك.

(٤) د: السنة، ب٢٣، ح ٤٧٣٩. ت: القيامة، ب١١، ح ٢٤٣٥ و ٢٤٣٦ و قال: حسن.
ق: الزهد، ب ٣٧٠، ح ٤٣١٠. ك: ٦٩/ ١.حم: ٢١٣/ ٣. حب: ١٣٢/ ٨، ح: ٦٤٣٤- عن أنس وجابر.

حتى يأذن الله له ويُحد له حدًّا، كما جاء في الحديث الصحيح: قال ﷺ: «... **فأقول: ربي، أمتي، فيحد لي حدًّا فأدخلهم الجنة، ثم أنطلق فأسجد، فيحد لي حدًّا**» ذكر هذا ثلاث مرات(١).

وفي رواية البخاري: «... **فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقال: وعزتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي، لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله**»(٢).

وفي رواية مسلم من حديث أبي سعيد مرفوعًا، قال: «**فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المسلمون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط**»(٣).

---

(١) خ: تفسير سورة البقرة، ح ٤٢٠٦، الرقاق، ب ٥١، ح ٦١٩٧، التوحيد، ب١٩، ح ٦٩٧٥ وب٢٤، ح ٧٠٠٢ وب٣٦، ح ٧٠٧٢. م: ا لإيمان، ب٨٤، ح ٣٢٢- عن أنس.

(٢) أي: من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، ولم يأت بشيء من نواقضها. فهذا مفهوم الحديث، والذي دل عليه مجموع النصوص. أما من كان يقول: لا إله إلا الله وفي نفس الوقت يأتي بضدها وبما ينقاضها، فلا يقبل منه التوحيد إلا بعد أن يقلع عن الشرك المناقض للتوحيد.

(٣) قوله: «**لم يعملوا خيرًا قط**» يجب أن يحمل على أنهم مع ذلك فهم لم يمارسوا نواقض الإيمان، ولم يختم لهم بالشرك، وهم كذلك من أهل الصلاة، كما جاء ذلك في حديث آخر ومن رواية مسلم: «**حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد أن يرحمهم، ممن يقول: لا إله إلا الله فيعرفونهم في النار بأثر السجود، تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود**»، فهم -كما هو ظاهر الحديث- من أهل الصلاة، ومن أهل التوحيد المجانبين للشرك، ومنه يعلم أن قوله: «**لم يعملوا خيرًا قط**» يراد به الخير الزائد عن شروط صحة الإيمان ومتطلباته، التي لا يدخل المرء الجنة إلا بها وبعد استيفائها، وليس المراد نفي مطلق الخير المتضمن للتوحيد والإيمان، هذا ما يقتضيه العلم بمجموع النصوص ذات العلاقة بالمسألة.



وجود الجنة والنار وأبديَّتهما

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له).

تضمنت هذه الفقرة من كلام الشيخ المسائل الآتية:

أولاً: وجود الجنة والنار الآن:

اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، وأنكر ذلك المعتزلة والقدرية، وقالوا: ينشئهما الله يوم القيامة.

أدلة أهل السنة:

استدل أهل السنة على أن الجنة والنار قد تم خلقهما فعلاً بما يأتي:

(١) إخباره تعالى أن الجنة والنار قد أعدتا فعلاً بصيغة الماضي: فبالنسبة لخلق الجنة قال تعالى:

﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1]، وقال: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[2]. وبالنسبة لخلق النار قال تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾[3]، وقال: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾[4].

(٢) رؤية النبي ﷺ لهما، ففي ليلة المعراج رأى ﷺ سدرة المنْتَهى ورأى عندها جنة المأوى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾[5].

وفي الصحيحين من حديث أنس في قصة الإسراء: «...**ثم انطلق بي جبرائيل حتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، قال: ثم دخلت الجنة فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك**..»[6].

وفي صحيح مسلم من حديث أنس: «**وَايْمُ الذي نفسي بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا**»، قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: «**رأيت الجنة والنار**».

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عباس قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ... فذكر الحديث، وفيه: فقالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك ثم رأيناك تكعكعت! فقال: «**إني رأيت الجنة، وتناولت عنقودًا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار، فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء**..»[7] الحديث.

---

(١) آل عمران: ١٣٣.

(٢) الحديد: ٢١.

(٣) البقرة: ٢٤.

(٤) النبأ: ٢١- ٢٢.

(٥) النجم: ١٣- ١٥.

(٦) خ. الصلاة، ب ١، ح ٣٤٢، الأنبياء، ب٧، ٣١٦٤. م: الإيمان، ب٧٤، ح ٢٦٣- كلاهما عن أنس ابن مالك. حم: ٥/١٤٤- عن أبي بن كعب، هذا آخر لفظ الحديث عندهم.

(٧) خ: الإيمان، ب١٩، ح ٢٩، المساجد، ب١٨، ح ٤٢١، الصلاة، ب ٩، ح ٧١٥، الكسوف، ب ٩، ح ١٠٠٤، النكاح، ب ٨٧، ح ٤٩٠١. م: الكسوف، ب٣، ح ١٧. س: الصلاة، ب٦٢٤، ح ١٤٩٤- عن ابن عباس.

(٣) ما جاء في عذاب القبر ونعيمه: ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة**»[١].

وقد تقدم حديث البراء بن عازب، وفيه أنه يفرش للعبد المؤمن من الجنة، ويفتح له بابٌ إليها، ويفرش للعبد الكافر من النار ويفتح له بابٌ إليها.

(٤) وعن كعب بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة**» فهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

(٥) ما ثبت أن الله أرسل جبريل لينظر إلى الجنة والنار بعد خلقهما: فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبرائيل إلى الجنة، فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلي ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة فحُفَّت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها ثم رجع فقال: وعزتك لقد خشيت ألا يدخلها أحد. قال: ثم أرسله إلى النار قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضًا، ثم رجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فحُفَّت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها فرجع فقال:**

(١) خ: الجنائز، ب ٨٨، ح ١٣١٣، بدء الخلق، ب ٨، ح ٣٠٦٨، الرقاق، ب٤٥، ح ٦١٥٠. م: الجنة، ب ١٧، ح ٦٥ و ٦٦. س: الجنائز، ب ١١٦، ح ٢٠٧٢- ٢٠٧٤، تفسير سورة الأنعام - عن ابن عمر.

وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها»[1].

وعلى القول بأن الجنة الموعود بها هي الجنة التي كان فيها آدم ثم خرج منها، فالقول بوجودها الآن ظاهر.

أدلة القائلين بأنها لم تخلق بعد:

استدل المعتزلة والقدرية على دعواهم بما يأتي:

- أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارًا أن تفنى يوم القيامة، وأن يهلك كل من فيها ويموت؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾[2]. ولقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ ﴾[3].
- ما ثبت من أن الجنة قيعان، وأن غراسها ذكر الله والأعمال الصالحة، قال ﷺ: «**لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، قال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غِراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[4]. وأيضًا عن جابر عن النبي قال: «**من قال: سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**»[5]. قالوا: فلو كانت مخلوقة مفروغًا منها لم تكن قيعانَ، ولم يكن لهذا الغراس معنى. وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾[6].

---

(١) ت: الجنة، ب ٢١، ح ٢٥٦٠- وقال: حسن. س: الإيمان، ب ٣، ح ٣٧٩٤- عن أبي هريرة.

(٢) القصص:٨٨.

(٣) آل عمران: ١٨٥.

(٤) ت: الدعوات، ب ٥٩، ح ٣٤٦٢، وقال: حسن. حم: ٣٧٥/ ١- عن ابن مسعود.

(٢) الترمذي، البخاري باب ما جاء في البناء. باب الدعوات عن رسول الله ﷺ ح رقم (٣٥٣٢)

(٦) التحريم: ١١.

مناقشة أدلة القدرية والمعتزلة:

أجاب أهل السنة على الدليل الأول بأن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قد يكون المقصود به: كل شيء مما كتب عليه الفناء والهلاك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء، وكذا العرش فإنه سقف الجنة.

وقيل: المراد إلا ملكه، أو إلا ما أريد به وجهه، وذلك للتوفيق بين هذه الآية وبين النصوص المحكمة الدالة على بقاء الجنة والنار. أما الأدلة الأخرى فقد أجاب عليها أهل السنة بأنها تدل على أن ما أعده الله لأهلها فيها لم يكتمل خلقه كله، وأن الله لا يزال يحدث فيها شيئًا بعد شيء، وذلك متفق عليه. أما القول بأنها معدومة بمنـزلة النفخ في الصور، والبعث، فذلك باطل ترده الأدلة السابقة.

ثانياً: أبدية الجنة والنار:

الجنة والنار لا تفنيان ولا تبيدان، هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف. وقال جماعة من السلف ببقاء الجنة وفناء النار. وذهب الجهم بن صفوان إلى القول بفناء الجنة والنار، وليس له في ذلك سلف قط، وكفَّره بذلك عامة أهل السنة. وشبهته في ذلك هو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث، وأن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي يمنعه في المستقبل. ووافقه على ذلك أبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة، لكنه قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار، حتى يصيروا في سكون دائم لا يقدر أحد منهم على الحركة. والحق أن الله عز وجل لم يزل ربًّا قادرًا فعَّالاً لما يريد.

أبدية الجنة:

فأما أبدية الجنة فهذا مما يعلم بالضرورة من الكتاب والسنة.

فمن الكتاب:

قال تعالى عن نعيم الجنة: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[1]، وقال عن أهلها: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾[2]، وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن الكريم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾[3]، وقال: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[4].

معنى الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[5]:

اختلف السلف في هذا الاستثناء:

- فقيل معناه: إلا مدة إقامتهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم النار ثم خرج منها لا لِكُلِّهم.
- وقيل: إلا لمدة مقامهم في الموقف.
- وقيل: إلا لمدة مقامهم في القبور والموقف.
- وقيل: هو استثناء الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه، بل تجزم بضربه.

---

(١) الرعد: ٣٥.

(٢) الحجر: ٤٨.

(٣) النساء: ١٢٢.

(٤) البينة: ٨.

(٥) هود:١٠٨.

- وقيل: لإعلامهم أنهم مع خلودهم في مشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود. ونظيره هذه الآيات: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾(١). ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾(٢). ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾(٣).

وقيل: إلا من شاء الله دخوله النار من السعداء، وقيل غير ذلك.

وبالجملة فإن هذا الاستثناء من المتشابه، والآيات السابقة من المحكم، وقد قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾(٤).

فهذا الاستثناء منقطع، فإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾(٥)، تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت. فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وتلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.

ومن السنة:

قال ﷺ: «**من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت**»(٦). وقال ﷺ: «**ينادي منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم أن تَصِحُّوا فلا تسقموا، وأن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وأن تحيوا فلا تموتوا أبدًا**»(٧).

---

(١) يونس: ١٦.

(٢) الشورى: ٢٤.

(٣) الإسراء: ٨٦.

(٤) الدخان: ٥٦.

(٥) هود: ١٠٧.

(٦) م: الجنة، ب ٨، ح ٢١. ت: الجنة، ب ٢، ح ٢٥٢٦. حم: ٢/٤٠٧- عن أبي هريرة.

(٧) م: الجنة، ب ٨، ح ٢٢. ت: تفسير سورة الزمر، ح ٣٢٤٦. س: تفسير سورة الأعراف، ح ٢٠٤- عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري.

وقد تقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: «**يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت**»[1].

أبدية النار ودوامها:

وأما أبدية النار ودوامها فلأهل السنة فيها قولان:

- أن الله يخرج منها من يشاء، ثم يبقيها شيئًا، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه. وهو منقول عن ابن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم.
- أن الله يخرج منها من يشاء، ويبقي فيها الكفار بقاءًا لا انقضاء له.

وهناك أقوال أخرى ظاهرة البطلان.

أدلة القول الأول:

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[3]. ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بحد الاستثناء المذكور لأهل الجنة، وهو قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾[5].

وقد روى عبد بن حميد في تفسيره بسنده إلى عمر أنه قال: لو لبث أهل النار في النار

---

(١) الترمذي باب ما جاء في خلود أهل الجنة والنار (٢٦٨٢)، والبخاري باب وأنذرهم يوم الحسرة رقم (٤٤٥٣).

(٢) الأنعام: ١٢٨.

(٣) هود: ١٠٦، ١٠٧.

(٤) هود:١٠٨.

(٥) النبأ: ٢٣.

كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه.

إن النار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته، وقد قال ﷺ: «**لما قضى الله الخلق كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي** وفي رواية: **تغلب غضبي**»[1].

إنه عز وجل قد أخبر عن العذاب أنه عذاب يوم «عظيم»، و «أليم» و «عقيم» ولم يخبر أبدًا عن النعيم أنه نعيم يوم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾[2] فلابد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب أبدًا لم تسعهم رحمته، وقد ثبت تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة، والمعذبون فيه متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم.

ليس من الحكمة أن يخلق الله خلقًا يعذبهم أبد الآباد، وأما أن يخلق خلقًا ينعم عليهم نعيمًا سرمديًّا فذلك من مقتضى الحكمة.

ثم قالوا: أما ما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج وما شابه ذلك فهو حق مسلَّم به ولا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب مادامت باقية، فلا يخرج منها في حال بقائها إلا أهل التوحيد، ففرق بين من يخرج من الحبس أو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه لخراب الحبس وانتقاضه.

---

(١) البخاري باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧] (٩٩٦٩)، (٩٩٨٦).

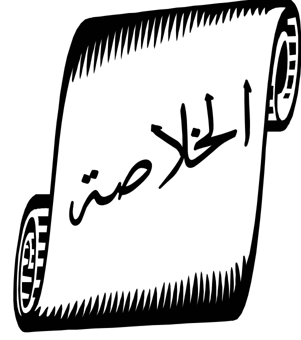
(٢) الأعراف: ٥٦.

أدلة القول الثاني:

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها:

- الآيات التي تصرح بالتأبيد وعدم الخروج مثل: قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[(1)]، وقوله: ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾[(2)].
- وقوله: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[(3)]، وقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[(4)]، وقوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[(5)]، وقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾[(6)]، وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[(7)].
- إن أحاديث الشفاعة صريحة في إخراج عصاة الموحدين من النار، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنـزلتهم. فهذه الآية في أهل الجنة فتنبه.

(1) التوبة: ٦٨.
(2) الزخرف: ٧٥.
(3) الحجر: ٤٨.
(4) البقرة: ١٦٧.
(5) الأعراف: ٤٠.
(6) فاطر: ٣٦.
(7) الجن: ٢٣.



الفصل الأول: حياة البرزخ:

- أشراط الساعة كثيرة منها: الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها... وغير ذلك، وهي آيات تقع على مشارف قيام الساعة.
- يجب الإيمان بسؤال الملكين للميت في قبره، وبعذاب القبر ونعيمه، للروح والبدن معًا، دون السؤال عن كيفية وقوع ذلك؛ لأن حياة البرزخ تختلف تمامًا عن جنس الحياة الدنيا.
- الأرواح في البرزخ متفاوتة في منازلها أعظم تفاوت: فمنها مايكون في أعلى عليين كالأنبياء، ومنها ما تكون في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة كالشهداء، ومنها مايحبس على باب الجنة، ومنها مايحبس في القبر، ومنها ما يكون في الأرض، ومنها ما يكون في ألوان أخرى من العذاب.
- الروح جسم نوراني علوي مخلوق، يسري في البدن فيعطيه صفة الحياة، فإذا انتهى الأجل فارقت الروح الجسد، وانتهى تعلقها به في الدنيا، إلا إن لها بالجسد نوعَ تعلق بكيفية أخرى في البرزخ، ثم يكمل تعلقها بالبدن يوم البعث

لاستحقاق حياة الخلود إما في النعيم، أو في الجحيم.

✍ اتفق أهل السنة على انتفاع أموات المسلمين بثواب ماتسببوا فيه من خير في حياتهم، وبدعاء المسلمين واستغفارهم لهم، كما اتفقوا على أن قضاء الدين عن الميت وصيام النذر عنه يبرئ ذمته. بينما اختلفوا في وصول ثواب بقية العبادات من الأحياء لهم كالصلاة، والحج، وقراءة القرآن.

الفصل الثاني: الإيمان بالمعاد:

✍ القيامة الكبرى معلومة عند جميع الأنبياء من لدن آدم إلى محمد ﷺ، وقد أكثر القرآن الكريم من إقامة الأدلة على الإيمان باليوم الآخر، وكفر من كذّب به من الجاحدين.

✍ يصير جسد ابن آدم بعد موته ترابًا إلا عَجْب الذنب الذي منه خلق، ومنه يعاد الجسم بعد أن يبلى كله، وذلك عندما يأذن الله بالبعث يوم القيامة.

✍ يعرض الخلق يوم القيامة على ربهم، ثم يصعقون حين يتجلى الله عز وجل إذا جاء لفصل القضاء بين العباد.

✍ الحوض مورد كريم يمد من نهر الكوثر، تشرب منه أمة النبي ﷺ، فلا يظمأ من شرب منه أبدًا.

✍ توضع أعمال العباد في الميزان بعد الحساب يوم القيامة لإظهار مقاديرها حتى يكون الجزاء بحسبها.

✍ الصراط جسر كحد السيف على ظهراني جهنم، يمر عليه المؤمنون دون المنافقين، ويعطى الناس يومئذ من النور والسرعة أثناء ورودهم عليه على قدر أعمالهم. ثم يقف المؤمنون الذين عبروا الصراط على قنطرة المظالم حتى يقتص بعضهم من

بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة.

- شفاعة النبي ﷺ أنواع عديدة ثابتة في السنة، كما ثبت أن للملائكة والشهداء والمؤمنين شفاعة أيضًا، على أن أحدًا لايملك الشفاعة حتى يأذن الله عز وجل.
- الجنة والنار مخلوقتان قبل الخلق، وهما باقيتان أبدًا، ولاتفنيان.

الاختبـار البعـدي للوحـدة

س١: ما أشراط الساعة؟ اذكر نبذة عن كل منها مع الاستدلال.

س٢: اذكر عقيدة أهل السنة في عذاب القبر ونعيمه، مع ذكر الأدلة على ما تقرر؟

س٣: عما يسئل الميت في قبره؟ وهل السؤال يكون لروحه فقط، أم الروح والبدن جميعًا؟

س٤: الأرواح في البرزخ متفاوتة في منازلها. وضح ذلك وفقًا لما جاءت به السنة؟

س٥: **ضع علامة (✓) أو (×) أمام العبارات الآتية:**

١- الموت صفة عدمية تعني عدم الحياة. ( )

٢- عذاب القبر أو نعيمه يكون للروح فقط. ( )

٣- سؤال الملكين في القبر يكون للروح والبدن جميعًا. ( )

٤- القبر إما حفرة نار دائمة لا تنقضي، أو روضة جنة دائمة. ( )

٥- الروح جسم نوراني علوي قديم غير محدث. ( )

٦- تموت الروح بمفارقتها الجسد إذا انتهى أجل المرء. ( )

٧- قد يطلق لفظ النفس على الروح حال اتصالها بالبدن. ( )

٨- الروح تتعلق بالبدن في الدنيا ويوم البعث، وتنفصل عنه حال النوم في البرزخ. ( )

٩- حرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء والشهداء. ( )

١٠- نتفع الموتى كلهم بدعاء الأحياء واستغفارهم لهم. ( )

١١- يصوم ولي الميت عنه صوم الفرض، ويطعم عنه في صوم النذر. ( )

١٢- قضاء الدين عن الميت يبرئ ذمته ولو كان من أجنبي. ( )

١٣- أجمع السلف على وصول ثواب إهداء قراءة القرآن للموتى. ( )

١٤- الشفاعة حق خالص لله عز وجل لا يأذن به لأحد من خلقه. ( )

١٥- المشركون يخرجون من النار بشفاعة الشافعين. ( )

١٦- يشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون في أهل الكبائر من الموحدين. ( )

١٧- أنكر المعتزلة والخوارج شفاعة النبي العظمى. ( )

س٦: هل النفس والروح شيء واحد؟ دلل على ما تقول.

س٧: ما الأمور المجمع على وصول أجرها الى المسلم بعد مماته؟ وما الأمور التي اختلف في وصولها إليه؟ أجب مع الاستدلال والترجيح.

س٨: القيامة الكبرى معروفة عند جميع الأنبياء. وضح ذلك مع التفصيل والاستدلال.

س٩: ما الفرق بين الحساب في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، وفي الحديث: «**ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك**»؟

س١٠: متى يصعق الناس يوم القيامة؟ دلل على ما تقول.

س١١: ما أوصاف حوض النبي ﷺ؟ ومن الذي سيشرب منه؟

س١٢: كيف توزن الأعمال يوم القيامة؟ ومتى يكون الوزن؟

س١٣: كيف يتفاوت نور المؤمنين وسرعتهم على الصراط يوم القيامة؟

س١٤: اشرح قول الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

س١٥: ما أنواع الشفاعة؟ وكيف افترقت الأقوال في إثباتها؟

س١٦: ماذا يعني الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾؟

الوحـدة السادسـة

الإيمـــان بالقـــــدر

- المبحث الأول: أصل القدر ونزاع الفرق فيه.
- المبحث الثاني: الإيمان بالقدر أصل من أصول الدين.
- المبحث الثالث: عموم القدرة والمشيئة.
- المبحث الرابع: تفصيل القول في أفعال العباد.
- المبحث الخامس: الإيمان باللوح والقلم.
- المبحث السادس: مرض القلب في القدر.
- المبحث السابع: الاستطاعة وعلاقتها بالتكليف.



يتوقع منك عزيزى الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون ملماً بما يلي:

(١) أصل القدر، ونزاع الفرق فيه.

(٢) الإيمان بالقدر أصل من أصول الدين.

(٣) عموم القدرة والمشيئة.

(٤) أفعال العباد.

(٥) الإيمان باللوح والقلم.

(٦) مرض القلب في القدر.

(٧) الاستطاعة وعلاقتها بالتكليف.



أصل القدر ونزاع الفرق فيه

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[(١)]).

أصل القدر سر الله في خلقه، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأضل وهدى، والنـزاع في مسألة القدر مشهور، وإليك تفصيل القول في ذلك:

مذهب أهل السنة:

والذي عليه أهل السنة أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد، فهو يريد الكفر ويشاؤه، ولكن لا يرضاه ولا يحبه، فيريده كونًا، ولا يرضاه دينًا.

(١) الأنبياء: ٢٣.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[5].

مذهب المعتزلة والقدرية:

وذهبت المعتزلة والقدرية إلى أن الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر؛ وذلك لئلا يقال: شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه. ولكن لزمهم ما هو أسوأ من ذلك، وهو أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله. قال ابن عباس وقد قيل له-إن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر-: هذا أول شرك في الإسلام، لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يقدر الخير، كما أخرجوه من أن يقدر الشر. وقال: القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب القدر نقض تكذيبه توحيده.

كيف نشأ الضلال في هذه المسألة؟

ومنشأ الضلال من التسوية بين المشيئة والإرادة من ناحية، وبين المحبة والرضا من ناحية أخرى، فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا:

(١) القمر: ٤٩.
(٢) الأنعام: ١٢٥.
(٣) الأنعام: ٣٩.
(٤) البقرة: ٢٠٥.
(٥) الزمر: ٧.

فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره فيكون محبوبًا له.

وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له فهي ليست مقدرة ولا مقضية، بل خارجة عن مشيئته وخلقه.

وفَرَّقَ بينهما أهل السنة بدلالة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة. وقد سبق إيراد النصوص القرآنية التي تشهد بذلك، أما شهادة السنة بذلك فنذكر منها: قوله ﷺ: «**إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته**»(١). وقوله ﷺ: «**إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال** »(٢).

كيف يريد أمرًا ولا يحبه؟

فإن قيل: كيف يريد أمرًا ولا يحبه؟ قلنا: هذا السؤال من أجله تفرق الناس. فالمراد نوعان:

- مراد لنفسه: وهو مطلوب محبوب لذاته، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.
- مراد لغيره: وهو ما كان وسيلة إلى المقصود والمراد، ولكن لا مصلحة فيه بالنظر إلى ذاته أو مكروه من حيث نفسه وذاته، مراد من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى المراد، فيجتمع فيه الأمران: بغضه، وإرادته، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما، وذلك كالدواء الكريه إذا علم متناوله أن فيه الشفاء، وقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه صلاح بقية الجسد؛ فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لكونه سببًا إلى أمر هو أحب إليه، وذلك كخلق إبليس الذي هو مادة الفساد، ولكنه وسيلة إلى محابَّ كثيرة للرب، ووجودها أحب إليه من عدمها.

---

(١) حم: ٦/١٠٨. موارد الظمآن: ص ١٤٤، ح ٥٢٥، وص ٢٢٨، ح ٩١٤. حب: ٢/١٨٢، ح ٢٧٣١، الخطيب في التاريخ: ٣٢٧/ ١٠- عن عبد الله بن عمر، وهو حديث صحيح.

(٢) خ: الزكاة، ب ٥٢، ح ١٤٠٧، الاستقراض، ب ١٩، ح ٢٢٧٧، الأدب، ب ٦، ح ٩٦٣٠، الرقاق، ب ٢٢، ح ٦١٠٨، الاعتصام، ب ٣، ح ٦٨٦٢. م: الأقضية، ب ٥، ح ١٠- ١٤. عن أبي هريرة، ومغيرة بن شعبة.

بعض أوجه الحكمة من خلق إبليس:

سبق أن خلق إبليس كان لأنه وسيلة إلى محابَّ كثيرةٍ للرب، منها:

- أن تظهر للعبد قدرة الرب على خلق المتضادات المتقابلات، فإذا كان قد خلق إبليس وهو أخبث الذوات، وسبب كل شر، فقد خلق جبريل وهو أشرفها ومادة كل خير، وذلك من أول الأدلة على كمال قدرته وعزه.
- ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية، كالقهار، وذي انتقام، والخافض الرافع، والمعز المذل، وشديد العقاب، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم تظهر آثارها.
- ومنها ظهور آثار أسمائه التي تتضمن عفوه ومغفرته، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد.
- ومنها حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس ما حصلت، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، ومخالفة الهوى، والتوبة والاستغفار..إلخ.

فإن قيل: هل كان يمكن وجود تلك الحكم بغير هذه الأسباب؟ فهذا سؤال فاسد وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والتوبة بدون التائب!

فإن قيل: فهل تكون هذه الأسباب محبوبة من هذه الوجوه-أي: باعتبار ما تفضي إليه من الحِكَم-أم أنها مسخوطة من جميع الوجوه؟

قلنا: هذا سؤال يرد على وجهين:

- **أحدهما**: من جهة الرب تعالى.
- **الثاني**: من جهة العبد.

فأما الذي من جهة الرب: فهل يكون محلاً لها من جهة إفضائها إلى محبوبه، وإن كان يبغضها لذاتها؟ والجواب: إن كل ما إلى الله عز وجل فهو خير، والشر ليس إليه، فإنه

عز وجل لم يخلق شرًّا محضًا من جميع الوجوه فهذا من أبين المحال، وإنما جهة الشر دائمًا نسبية إضافية، فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شرًّا، فالخير بيديه، والشر ليس إليه.

ذلك أن الشر يرجع إلى العدم، عدم الخير، وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة المحض فلا شر فيه. فالعقوبات الموضوعة خير في نفسها، وإن كانت بالنسبة للمحل الذي حلت به لما أحدثت فيه من الألم فهي شر بالنسبة إلى ذلك المحل، خير بالنسبة للفاعل حيث وضعه في موضعه.

فإن قيل: لِمَ تنقطع نسبته إليه خلقًا ومشيئة؟ قلنا: هو من هذه الجهة ليس بشرٍّ، فإن وجوده هو المنسوب إليه، وهو من هذه الجهة ليس بشرٍّ. فإن قيل: كيف، يرضى لعبده شيئًا ولايعينه عليه؟

قلنا: لأن إعانته قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه تتضمن مفسدة وهي أكره إليه عز وجل من محبته لتلك الطاعة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾(١).

فقد كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله وهو طاعته، فثبطهم عنه؛ لما فيه من المفاسد ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه. وقد ذكر سبحانه بعض هذه المفاسد، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾(٢) أي: فسادًا وشرًّا ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ﴾. أي: سعوا بينكم بالفساد والشر ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: قابلون منهم مستجيبون لهم.

---

(١) التوبة: ٤٦.

(٢) التوبة: ٤٧.

وأما الذي من جهة العبد: فهل يسوغ له الرضا بها من تلك الجهة أيضًا؟

والجواب: إن هذا ممكن بل واقع، فإن العبد يسخط المعاصي باعتبارها فعلاً له، ويرضى بقضاء الله وقدره، فيرضى بما هو من الله، ويسخط ما هو من نفسه.

وذهب آخرون إلى كراهتها مطلقًا، وهو يرجع إلى القول الأول؛ لأن إطلاقهم الكراهة لا يريدون به شموله لعلم الرب، وكتابته، ومشيئته، وسر المسألة أن الذي إلى الرب منها غير مكروه والذي إلى العبد مكروه. فإن قيل: ليس إلى العبد منها شيء! قلنا: ذلك هو الجبر الباطل.

فإن قيل: كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة والتقدير؟ قلنا: إن الطاعة هي موافقة الأمر الشرعي، لا موافقة القدر والمشيئة. ولو كانت موافقة القدر طاعة لكان إبليس من أعظم المطيعين، وكذلك قوم نوح وهود وصالح، وقوم فرعون وغيرهم.

وإن هذا الفهم السقيم هو الذي أدى بالبعض إلى شهود الأمر على غير ما هو عليه، فرأى أن كل الأعمال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر، وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته. فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله فكيف ننكره ونكرهه؟ فجواب ذلك من عدة أوجه:

أولاً: إننا لسنا مأمورين بأن نرضى بكل قضاء الله وقدره، حيث لم يرد بذلك كتاب ولا سنة، بل من المقضي ما يُرضى به، ومنه ما يُسخط ويُمقت.

ثانيًا: أن يقال: هنا أمران: قضاء الله: وهو فعل قائم بذاته، وهذا نرضى به كله؛ لأنه عدل وحكمة. مقضي: وهو المفعول المنفصل عنه، وهذا منه ما يُرضى به، ومنه ما لايُرضى به.

ثالثًا: القضاء له وجهان:

أحدهما: تعلقه بالرب تعالى ونسبته إليه، وهو من هذه الناحية نرضى به كله.

والثاني: تعلقه بالعبد ونسبته إليه، وهو من هذا الوجه ينقسم إلى مايُرضى به، وما لا يُرضى به. فقتل النفس مثلاً له اعتباران: من حيث قضاء الله وقدره نرضى به. ومن حيث صدوره من القاتل ومعصيته لله بذلك يُسخط ولا يُرضى به.

قول المصنف -رحمه الله تعالى-: **(والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان)**: التعمق: المبالغة في طلب الشيء. والذريعة: الوسيلة. والخذلان: في مقابلة النصر. أي: إن المبالغة في طلب القدر، والغوص فيه وسيلة إلى الخذلان والحرمان.

وقوله: **(والحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة)**:

عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به! قال: «**وقد وجدتموه؟!**» قالوا: نعم، قال: «**ذلك صريح الإيمان**»[(١)]. والإشارة في قوله: «**ذلك صريح الإيمان**» إلى تعاظم أن يتكلموا به.

عن عبد الله بن مسعود قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، فقال: «**تلك محض الإيمان**»[(٢)]. أي: مدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها محض الإيمان. هذه هي طريقة الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، ثم خلف من بعدهم خلف سودوا الأوراق بتلك الوساوس التي هي شكوك وشبه، بل وسودوا القلوب، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولذلك أطنب الشيخ -رحمه الله- في ذم الخوض في الكلام في القدر والفحص عنه[(٣)].

---

(١) م: الإيمان، ب ٦٠، ح ٢٠٩- ٢١٠. عن أبي هريرة.

(٢) م: الإيمان، ب ٦٠، ح ٢١١. سى: ص ٤٢٠، ح ٦٦٥، ٦٦٦. حم: ٦/ ١٠٦- عن عائشة.

(٣) صح عن النبي ﷺ أنه قال: **"إذا ذُكِر القدر فأمسكوا"**، رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن وفي مجمع الزوائد كتاب الفتن (١١٩٧٣) أي: لا تسترسلوا في الحديث عن القدر، فتخوضوا فيها لا يعنيكم، فتضلوا؛ لأن الخوض فيما هو فوق المقدور وحدود العقل مآله غالبًا إلى الهلاك والضلال، والسلامة تقتضي الاقتصار على

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال: فكأنما تفقَّأَ في وجهه حَبُّ الرُّمان من الغضب، قال: فقال لهم: «**ما لكم تضربون كلام الله بعضه ببعض، بهذا هلك من كان قبلكم**»(١).

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾(٢). فجمع بين الاستمتاع بالخلاق، وبين الخوض؛ لأن فساد الدين إما في العمل، أو في الاعتقاد، فالأول من جهة الشهوات، والثاني من جهة الشبهات. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**»(٣).

أكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف: مسألة القدر.

المشروع والمعقول. وعن وهب بن منبه أنه قال: نظرت في القدر فتحيَّرت، ثم نظرت فيه فتحيَّرت، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفّهم عنه، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به.

(١) ق: المقدمة، ب ١٠، ح ٨٥. عن عبد الله بن عمرو، وهو حديث صحيح. وأيضًا حم: ١٩٥/ ٢- ١٩.

(٢) التوبة: ٦٩.

(٣) د: السنة، ب ١، ح ٤٥٩٦. ت: الإيمان، ب ١٨، ح ٢٦٤٠. ق: الفتن، ب ١٧، ح ٣٩٩١. ك: ١٢٨/ ١. حم: ٣٣٢/ ٢. الآجري في الشريعة: ص ٢٥. حب: ٤٨/ ٨، ح ٦٣١٤- عن أبي هريرة. وهو حديث صحيح.



الإيمان بالقدر أصل من أصول الدين

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونؤمن بالقدر خيره وشره، وحلوه ومره، من الله تعالى).

الإيمان بالقدر أصل من أصول الدين: قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾(١).

وفي حديث جبريل وسؤاله عن الإيمان: «... **وتؤمن بالقدر خيره وشره**».

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾(٢).

---

(١) التوبة: ٥١.

(٢) النساء: ٧٨-٧٩.

وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، وقوله: ﴿فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾:

فالجواب: إن قوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ يعني أن الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله. أما قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ أي: ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾(1). يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قرأ: وأنا كتبتها عليك.

والمراد **بالحسنة** هنا: النعمة، **والسيئة**: البلية على الأرجح، وفرَّق سبحانه بين الحسنات التي هي النعم، وبين السيئات التي هي المصائب فجعل هذه من عند الله، وهذه من نفس الإنسان؛ لأن الحسنة مضافة إلى الله؛ إذ هو أحق بها من كل وجه، وأما السيئة فهو إنما يخلقها لحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب لا يفعل سيئة قط.

ولهذا كان ﷺ يقول في الاستفتاح: «**والخير كله بيديك، والشر ليس إليك**»(2). أي: فإنك لا تخلق شرًّا محضًا، بل كل ما يخلقه ففيه حكمة هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس، فهو شر جزئي إضافي، أما الشر الكلي أو المطلق فإن الله منـزه عنه، فقد يمكِّن الله لملك ظالم مدة من الدهر، بخلاف المتنبئين والكذابين فإنه لا يطيل تمكينهم، بل لابد من إهلاكهم؛ لأن فسادهم عام في الدين والدنيا، بخلاف الأول فإنه قد يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه، حتى قيل: ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام، فضلاً عن ثواب الصبر عليه، وإثارة الهمم نحو الاستغفار والتوبة.

---

(1) الشورى:30.

(2)م: صلاة المسافرين، ب 26، ح 101، د: الصلاة، ب 121، ح 760 و 761- عن علي بن أبي طالب.

بطلان احتجاج القدرية بقوله تعالى: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾:

وليس للقدرية أن يحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ لأنهم يقولون: إن فعل العبد حسنة كان أو سيئة فهو منه، والقرآن قد فرق بينهما.

ولأنه تعالى قد قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فجعل كلاً من الحسنات والسيئات من عند الله وهم لا يقولون بذلك في الأعمال، بل في الجزاء. وفي قوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ إشارة إلى أن العبد لا يطمئن إلى نفسه فإن الشر كامن فيها، لا يجيء إلا منها، فلا يشتغل بملام الناس إن أساءوا إليه، فإن ذلك من السيئات التي أصابته، وهي إنما أصابته بذنوبه، فيرجع عن ذنبه، ويستعيذ بالله من شر نفسه، وسيئات عمله، فيحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر.

أهمية الدعاء بالهداية:

ولهذا كان أنفع الدعاء الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[1] فإنه إذا هداه إلى الصراط المستقيم أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة. ولا يقال: إنه قد هداه، فالمراد هو التثبيت، أو مزيد الهداية؛ لأن العبد يحتاج إلى الهدى في كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الطعام والشراب. فهو محتاج إلى أن يعلمه الله تفاصيل المأمورات والمنهيات، وأن يلهمه العمل بذلك، فلا يكفي مجرد العلم إن لم يجعله مريدًا للعمل بما يعلمه، وإلا كان العلم حجة عليه، ولم يكن مهتديًا، وأن يجعله قادرًا على العمل بتلك الإرادة الصالحة.

(١) الفاتحة: ٦-٧.

فالمجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله كسلاً وتهاونًا قد يبلغ مثل ما نريده أو أكثر، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وأما ما لا نعرف جملته، ولا نهتدي إلى تفاصيله فأمر يفوت الحصر. فمن كملت له هذه الأمور كان سؤاله سؤال تثبيت، وبعد ذلك كله هداية أخرى، وهي الهداية إلى طريق الجنة.

ولهذا كان الدعاء بالهداية من أعظم الأسباب المقتضية للخير، المانعة من الشر، فقد بين الله أن السيئات من النفس وإن كانت بقدر الله، وأن الحسنات كلها من الله عز وجل، فوجب الشكر على الطاعة، والاستغفار من المعصية، وأن يفرده وحده بالتوكل والاستغفار والشكر.

إفراد الله بالذكر والاستغفار والتوكل:

ولقد كان ﷺ يجمع الأمور كلها في الصلاة، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «**ربنا لك الحمد، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد**»[(١)].

فهذا حمد وشكر لله، وبيان أن حمده أحق ما قال العبد، ثم يقول بعد ذلك: «**لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**» أي: لا ينجيه ولا يخلصه ما أصاب من ملك ورئاسة.

وهذا تحقيق لتوحيد الربوبية خلقًا وقدراً، وتوحيد الإلهية شرعًا وأمرًا ونهيًا وتحقيق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[(٢)].

(١) صحيح مسلم باب (اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام) وفي باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع رقم (٤٧٨).

(٢) الفاتحة: ٥.

فإنه لو قدر أن شيئًا من الأسباب يكون مستقلاً بالمطلوب، وإنما يكون بمشيئة الله وتيسيره لكان الواجب ألا يُرجى إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه، فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوب، بل لابد من انضمام أسباب أخرى إليه، ولابد أيضًا من صرف الموانع والمعارضات عنه. فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له.

فكل سبب له شريك وضد، فإذا لم يعاونه شريكه، ولم ينصرف عنه ضده لم تحصل مشيئة، وكل سبب معين فهو جزء من المقتضى، وليس في المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها.

وإن من عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله، وعلم أنه لا يستحق أن يسأل غيره فضلاً عن أن يعبد غيره.

القدر نظام التوحيد:

قال المصنف-رحمه الله تعالى-: (**وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾**[1]، **وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾**[2]).

يشير الشيخ إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر، وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها. قال ﷺ في جواب السائل عن الإيمان: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**».

(١) الفرقان: ٢.

(٢) الأحزاب: ٣٨.

القدرية مجوس هذه الأمة:

ولا يتم التوحيد إلا بالإيمان بصفاته تعالى، فإن من زعم خالقًا غير الله فقد أشرك، فكيف بمن زعم أن كل أحد يخلق فعله؟! ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة، حيث جعلوه تعالى لم يخلق أفعال العباد، فأخرجوها عن خلقه وقدرته، والأحاديث الواردة في ذمهم كثيرة، وهي في السنن، منها:

عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم**»[1]. وعن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال: «**لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم**»[2]. وعن ابن عباس قال: قال ﷺ: «**صنفان من بني آدم ليس لهم في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية**»[3]. ولكن كل أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة، وإنما يصح الموقوف منها. كقول ابن عباس: القدر نظام التوحيد، فمن وحَّد الله وكذَّب بالقدر نقض تكذيبه توحيده؛ وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم، وما أظهر من علمه الذي لا يحاط به، وكتابة مقادير الخلائق.

وقد ضل في هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم ممن ينكر علمه بالجزئيات أو بغير ذلك، فإن ذلك كله مما يدخل في التكذيب بالقدر؛ فتقدير الله لمقادير العباد هو القدر الذي لا ريب في دلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه، والذين جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع، وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والأئمة في ذم القدرية يُعْنَى به هؤلاء؛ كقول ابن عمر -لما قيل له: يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أُنُف-: أخبرهم أني منهم بريء، وأنهم مني براء.

---

(١) د: السنة، ب ١٧، ح ٤٦٩١ و ٤٦٩٢. ك: ٨٥/ ١. عن عبد الله بن عمر وحذيفة، وهو حديث صحيح.

(٢) د: السنة، ب ١٧، ح ٤٧١٠ وب ١٨، ح ٤٧٢٠. ك: ١/ ٨٥. حم: ٣٠/ ١، عن عمر، وهو حديث صحيح.

(٣) ت: القدر، ب ١٣، ح ٢١٤٩، وقال: حسن غريب. ق: المقدمة، ب ٩، ح ٦٢ و ٧٣، عن ابن عباس وغيره.

ما يتضمنه الإيمان بالقدر:

والقدر الذي هو التقدير المطابق للعلم يتضمن أصولاً عظيمة:

- أنه تعالى عالم بالأمور المقدرة قبل كونها، فيثبت علمه القديم، وفيه رد على من أنكر ذلك.
- أن التقدير يتضمن مقادير المخلوقات، أي: صفاتها المعينة المختصة بها، فإن الله جعل لكل شيء قدرًا، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾(١).
- فالخلق يتضمن التقدير، تقدير الشيء في نفسه بأن يجعل له قدرًا، وتقديره قبل وجوده، وهذا أبلغ في العلم بالأمور الجزئية المعينة خلافًا لمن قال: يعلم الكليات دون الجزئيات، فالقدر يتضمن العلم القديم، والعلم بالجزئيات.
- أنه يتضمن أنه تعالى أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخبارًا مفصلاً، وإذا كان يُعْلِمُ عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو.
- أنه يتضمن أنه مختار لما يفعله.
- أنه يدل على حدوث هذا المقدور، وأنه كان بعد إن لم يكن، فإنه يقدره ثم يخلقه.

عَلِمَ فَقَدَّر:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدَّر ذلك تقديرًا محكمًا مبرمًا، ليس فيه ناقض، ولا معقب ولا مزيل، ولا مغيِّر، ولا ناقص، ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه).

---

(١) الفرقان: ٢.

لقد سبق علم الله بالكائنات، وقدر مقاديرها قبل خلقها، قال ﷺ: «**قدَّر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»(١).

ولا يتصور إيجاد هذه المخلوقات على ما فيها من غرائب إلا مِن عالم سبق علمه على إيجادها.

ولقد أنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالمًا في الأزل، وقالوا: إن الله لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوا!! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. قال الشافعي: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا خصموا، وإن أنكروا كفروا!

فقد علم الله أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه، وهذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه؛ لأنه لا يفعل مع القدرة، ومن لا يستطيع لا يأمره ولايعذبه على ما لم يستطعه.

اعتراضات وجوابها:

فإن قيل: هل يلزم من ذلك أن يكون العبد قادرًا على تغيير علم الله؛ لأن الله علم أنه لا يفعل فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله؟!

فالجواب: أنه لو فعل لكان المعلوم هو وقوعه لا عدم وقوعه؛ لأن علم الله مطابق للواقع، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم، وهؤلاء قد فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه وهو محال.

فإن قيل: فإذا كان وقوعه مع علم الرب عدم وقوعه محالاً لم يكن مقدورًا.

فالجواب: إن لفظ المحال مجمل، وهذا ليس محالاً؛ لعدم استطاعته له، ولا لامتناعه في نفسه، بل هو ممكن مستطاع، ولكن إذا وقع كان الله عالمًا بوقوعه، وإذا لم يقع كان عالمًا

(١) م: القدر، ب ٢، ح ١٦. ت: القدر، ب ١٨، ح ٢١٥٦. حم: ١٦٩/ ٢ - عن عبد الله بن عمرو.

بعدم وقوعه. فإذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالاً من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه، وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال! ويلزمهم أن لا يبقى أحد قادرًا على شيء لا الرب ولا الخلق؛ لأن الرب إذا علم من نفسه أنه سيفعل كذا لا يلزم من ذلك انتفاء قدرته على تركه، وكذلك إذا علم أنه لا يفعله لا يلزم منه انتفاء قدرته على فعله، فكذلك ما قدر من أفعال عباده.

الموجودات وأقسامها في باب الهداية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾[1].

وعن عائشة قالت: دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يفعل سوءًا ولم يدركه، فقال: «**أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[3]. والمراد الهداية العامة، وأعم منها الهداية المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[4].

الموجودات نوعان:

- مسخر بطبعه، وقد هداه الله لما سخر له هداية طبيعية.
- متحرك بإرادته، وقد هداه الله هداية إرادية تابعة لشعوره، وعلمه بما ينفعه ويضره

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) م: القدر، ب٦، ج٣٠، ٣١. د: السنة، ب١٨، ح٤٧١٣. س: الجنائز، ب ٥٨، ح ١٩٤٩ - عن عائشة.

(٣) الإنسان: ٣.

(٤) طه: ٥٠.

ثم قسم الأنواع إلى ثلاثة:

- نوع لا يريد إلا الخير، ولا يتأتى منه إرادة سواه كالملائكة.
- نوع لا يريد إلا الشر ولا يتأتى منه إرادة سواه كالشيطان.
- ونوع يتأتى منه إرادة القسمين كالإنسان، وقسمه إلى ثلاثة أصناف:
  - صنف يغلب إيمانُه وعقُله هواه وشهوتَه، فيلتحق بالملائكة.
  - وصنف عكسه فيلتحق بالشياطين.
  - وصنف تغلب شهوتُه البهيميةُ عقلَه، فيلتحق بالبهائم.

فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده، فلا هداية إلا بتعليمه.

عطاؤه فضل، وعقابه عدل:

يجب أن يعلم أن الله لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه وهو العمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[(1)]. كذلك لا يعاقب أحدًا إلا بعد حصول سبب العقاب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[(2)]. ولا ريب أنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فمنعه الأسباب التي هي الأعمال من حكمته وعدله، فكل عطاء منه فضل، وكل عقوبة منه عدل، وهو المحمود على كل حال فإنه حكيم يضع الأشياء في مواضعها التي تصلح لها، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[(3)].

(١) طه:١١٢.
(٢) الشورى:٣٠.
(٣) الأنعام: ٥٣.



عموم القدرة والمشيئة

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (وكل شيء يجري بتقديره، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن).

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يكون في ملكه إلا ما يشاء.

ولا أضل ممن زعم أن الله شاء الإيمان من الكافر، والكافر شاء الكفر، فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله.

فإن قيل: يشكل على هذا قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ

---

(١) التكوير: ٢٩.

(٢) الأنعام: ٣٩.

ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[2]. فقد ذمهم حيث جعلوا الشرك كائنًا منهم بمشيئة الله!

فقد أجيب عن ذلك بأجوبة من أحسنها: أن الله أنكر عليهم ذاك؛ لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته، وقالوا: لو كره ذلك وسخطه لما شاءه. أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به. أو لأنهم عارضوا شرعه وأمره بقضائه وقدره.

احتجاج آدم على موسى بالقدر:

أما احتجاج آدم على موسى بالقدر فهو ليس احتجاجًا بالقدر على الذنب، وإنما احتجاج به على المصيبة. فلم يحتج آدم بالقدر على الذنب، وهو كان أعلم بربه وبذنبه. ولم يلم موسى آدم على ذنب قد تاب منه، وتاب الله عليه.

وإنما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة، فإن القدر إنما يحتج به عند المصائب لا عند المعائب.

ذم إبليس على الاحتجاج بالقدر:

أما قول إبليس: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[3]. فإنما ذُمَّ على احتجاجه بالقدر، لا على اعترافه بالمقدَّر، وإثباته له. ألم يقل نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[4].

وقول المصنف -رحمه الله تعالى-: **(وكل شيء يجري بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره)**

---

(١) الأنعام: ١٤٨.

(٢) الزخرف:.٢.

(٣) الحجر: ٣٩.

(٤) هود: ٣٤.

يريد بقضائه: القضاء الكوني لا الشرعي، فإن كلاً من القَضَاء، والإرادة، والأمر، وَالإِذْن، وَالْكِتَاب، والحكم، والتحريم، والكلمات، ونحو ذلك قد يكون كونيًّا، وقد يكون شَرعيًّا.

- أما **القضاء الكوني** ففي مثل قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[1]. و**القضاء الديني الشرعي** ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2].
- أما **الإرادة الكونية** ففي مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[3]. **والإرادة الشرعية** في مثل قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ بِرُءُوسِكُمْ..﴾[4].
- أَمَّا **الأمر الكوني** ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[5]. **والأمر الشرعي** في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[6].
- أما **الإذن الكوني** ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾[7]. **وَالإِذْن الشرعي** في مثل قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا

(١) فصلت: ١٢.
(٢) الإسراء: ٢٣.
(٣) الأنعام: ١٢٥.
(٤) المائدة: ٦.
(٥) الإسراء: ١٦.
(٦) النحل: ٩٠.
(٧) البقرة ١٠٢.

قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[1].

- أَمَّا **الِكِتَاب الكوني** ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ ﴾[2].**والكتاب الشرعي** في مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾[3].
- أما **الحكم الكوني** ففي مثل قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾[4] **والحكم الشرعي** في مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ ﴾[5].
- أما **التحريم الكوني** ففي مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[6]. **والتحريم الشرعي** مثل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ ﴾[7].
- أما **الْكَلِمَات الكونية** ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾[8]. **وَالْكَلِمَات الشرعية** في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾[9].

(١) الحشر: ٥.
(٢) فاطر: ١١.
(٣) البقرة: ١٨٣.
(٤) الأَنْبِيَاء: ١١٢.
(٥) الممتحنة: ١٠.
(٦) المائدة: ٢٦.
(٧) المَائِدَة: ٣.
(٨) الأعراف: ١٣٧.
(٩) البقرة ١٢٤.

عموم الإرادة:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ولا يكون إلا ما يريد).

اختلف النَّاس في عموم إرادته تعالى:

فقال أهل السنة بعموم إرادته تعالى لجميع ما خلق، لكنهم قسموا الإرادة إلى قسمين:

إرادة كونية قدرية: وهي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث، ومنها ما يحبه الله، ومنها ما لا يحبه، وهي المذكورة في قول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا يَجْعَلْ ..﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[2].

إرادة شرعية دينية[3]: وهي المتضمنة للمحبة والرضا، وهي التي تستلزم أمر الله ونهيه، ومن أمثلتها: قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾[5].

---

(١) الأنعام: ١٢٥.

(٢) البقرة:٢٥٣.

(٣) هذا النوع من الإرادة قضت حكمة الله تعالى أن يتخلف أحيانًا بعلمه وإذنه. فالله تعالى يريد لعباده الإيمان والهدى والطاعة شرعًا، ولكنه جعلهم مختارين في ذلك، فقد قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾، إلا أن خيرتهم لا تقع إلا بإذن الله وعلمه وإرادته، وليس جبرًا عنه تعالى كما تقول المعتزلة والقدرية. والعباد محاسبون على أعمالهم واختيارهم، سواء من اختار الخير والإيمان؛ فهذ ما يحبه الله ويرضاه، أو اختار الشر والكفر فيكون قد اختار ما يبغض الله ويسخطه.

(٤) النساء: ٢٦.

(٥) النساء: ٢٧.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[1]. فالمعاصي وإن كان الله يريدها قَدَرًا، لكنه لا يحبها، ولا يرضاها، ولا يأمر بها، فهي داخلة في الأولى دون الثانية.

ولا شك أن الفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل، وبين إرادته من غير أن يفعل؛ فالأولى متعلقة بفعله هو، والثانية متعلقة بفعل الغير.

وقالت القدرية والمعتزلة: إن الله أراد الإيمان من الناس كلهم، ولكن الكافر أراد الكفر، ولم يفرقوا بين نوعي الإرادة، كما فعل أهل السنة، ولم يتصوروا إمكانية أن يأمر الله بأمر وهو يريد خلافه. ولا شك أن قولهم فاسد مردود لُمخالفته للكتاب والسنة والمعقول الصحيح.

هل أمر الله يستلزم إرادته؟

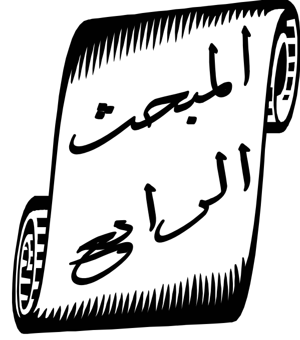
أَجَابَ أهل السنة على ذلك بأن جهة خلقه غير جهة أمره تعالى، فقد يأمر الله بِالشيء ولا يخلقه؛ لأنه قد يكون في وجوده مفسدة من حيث كونه خلقًا لله تعالى،كما أمر فرعون وأبا لهب بِالإِيمان ولم يُعِنْهم عليه، ولم يخلقه لهم؛ لما في خلق ذلك من المفاسد من حيث كونه فِعْلاً له تعالى، وهو إنما يخلق ما يخلق لحكمة.

وإذا كان يمكن في حق المخلوق الحكيم أن يأمر غيره بأمر ولا يعينه عليه، فإن إِمْكَانِيَّة ذلك بالنسبة للخالق من بَاب أولى. ونازعت في ذلك القدرية، فَقَالُوا: إن من يَأمر غيره بأمره فلا بد أن يفعل ما يكون المأمور معه أقرب إلى فعله.

والجواب: أن ذلك صحيح إذا كان في الأمر مصلحة تعود إلى نفس الآمر، كما إذا أمر الملك جنوده بما يصلح ملكه، أما إذا كانت المصلحة في الأمر تعود إلى المأمور فإنه لا يستلزم ذلك. وذلك كمثل الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ليأمر موسى بالخروج نصحًا له، فقد كانت مصلحته في أن يأمر موسى بِالْخُرُوجِ، لا في أن يعينه على ذلك؛ إذ لو أَعَانَهُ لضره قومه، ومثل هذا كثير.

---

(١) المَائِدة: ٦.



تَفْصِيل القول في أفعال العباد

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (وأفعال العباد هي خلق الله، وكسب من العباد).

اختلف النَّاس في أفْعَال الْعِبَاد الاخْتِيَارِيَّة:

فزعمت الجبرية وعلى رأسهم الجهم بن صفوان أن التدبير في أَفْعَال الخلق كُلِّهَا لله، وهي كلها اضطرارية كحركات المرتعش، والعروق النَّابِضَة، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجاز.

وقابلتهم المعتزلة فَقَالُوا: إن الأفْعَال الاختيارية من جميع الحَيَوَانَات بِخَلْقِهَا لا تعلق لها بخلق الله، واختلفوا فيما بينهم هل يقدر الله على أَفْعَال العِبَاد أم لا؟

وهدى الله أهل السنة لِمَا اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فقالوا بعموم خلقه تعالى لكل شيء وَأَفْعَال العِبَاد من جملة مَخْلُوقَاته، وعموم قدرته ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعْيَان وَالأَفْعَال، وأن العباد (فَاعِلُوْنَ) لأَفْعَالِهِمْ حقيقة، فبها صَارُوا مطيعين وَعُصَاة، وَعَلَيْهَا يستوجبون المدح والذم. فكل دليل يسوقه الجبري فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء،

وأن أَفْعَال العِبَاد من جملة مَخْلُوقَاته، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مختارًا.

وكل دليل يسوقه القدري فإنه يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأن إضافته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله، أو أنه واقع بغير مشيئته وقدرته. فتتكافأ أدلة الفريقين وَتَتَسَاقَط، ولا يُسْتَفَاد من أدلة كل فريق إلا بطلان قول الفريق الآخر، وإذا ضممنا ما مع كل فريق من الحق إلى ما مع الآخر منه اِسْتَقَامَ لنا مذهب أهل السنة الذي أَثْبَتْنَاهُ آنِفًا.

أدلة الجبرية:

كان مِمَّا استدلت به الجبرية على دعواهم ما يأتي: قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1]. فنفى عن نبيه الرمي، وأثبته لنفسه عز وجل، فدل على أنه لا صنع للعبد. وأن الجزاء غير مترتب على الأعمال بدليل: قوله ﷺ: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يَا رسول الله؟ قَالَ: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[2].

مُنَاقَشَة أدلة الجبرية:

نوقش استدلال الجبرية بالآية الكريمة على ما ذهبوا إليه من الجبر بأن الآية تشهد عليهم لا لهم؛ فإنه تعالى أثبت لنبيه رميًا بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فعلم أن المثبت غير المنفي؛ وذلك لأن الرمي له ابتداء وهو الحذف وله اِنْتِهَاء وهو الإصابة، وكل منهما رمي، فيكون المعنى -والله أعلم- وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أَصَابَ.

(١) الأنفال ١٧.

(٢) صحيح البخاري، باب نهي تمني المريض الموت، رقم (٥٣٤٩).

وإلا فطرد قولهم: وَمَا صليت إذ صليت، وما صمت إذ صمت، وما زنيت إذ زنيت، وما سرقت إذ سرقت، وفساد هذا ظاهر.

ونوقش الدليل الثاني: بأن البَاء التي في النفي غير البَاء التي في الإِثْبَات.

فَالنَّفْي في قوله: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**» بَاء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الجنة كما زعمت المعتزلة أن العَامِل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله! بل ذلك برحمة الله وفضله.

والمثبت في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1] باء السبب، أي: بسبب عملكم والله عز وجل خالق الأسْبَاب وَالْمُسَبِّبَات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته.

أدلة المعتزلة:

كان مِمَّا استدل به المعتزلة على دعواهم ما يأتي: قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[2]، وأن الجزاء مرتب على الأعْمَال ترتب العوض: قال تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[3]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[4].

مناقشة أدلة المعتزلة:

نوقش الدليل الأول بأن المراد بالخلق في هذه الآية هو التقدير، بدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[5]. أي: خالق كل شيء مخلوق، وقد دخلت أفعال العباد كُلُّهَا في هذا العموم.

---

(١) السجدة: ١٧.

(٢) المؤمنون: ١٤.

(٣) السجدة: ١٧.

(٤) الزخرف: ٧٢.

(٥) الزمر: ٦٢.

وإن تعجبْ فعجبٌ أن يُدخل المعتزلة في هذا العموم كلام الله وهو صفة من صفاته يستحيل عليه أن يكون مخلوقًا، وأن يُخرجوا من هذا العموم أفعال العباد التي هي مخلوقة له وداخلة في هذا العموم حَتْمًا، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

ولا نقول: إن (ما) مصدرية، أي: خلقكم وعملكم؛ إذ سياق الآية يَأْبَاهُ؛ لأن إبراهيم إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت لا النحت، ولو لم يكن النحت مخلوقًا لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقًا له، بل الخشب والحجر لا غير. ولا منافاة بين كون العبد مُحْدِثًا لفعله، وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[2]. فقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ إِثْبَات للقدر، وقوله: ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ إِثْبَات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه؛ ليعلم أنها هي الفَاجِرَة وهي المتقية.

أما الدليل الثاني من أدلة المعتزلة فقد أُجيبَ عنه ضمن مناقشة الدليل الثاني من أدلة الجبرية.

شبهات وجوابها:

فإن قيل: كيف يعذب الله المكلفين على ذنوبهم، وهو خَلَقَهَا فيهم؟ فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم؟!

قلنا: هذا سؤال لم يزل مَطْرُوقًا في العالم على ألسنة الناس، وعنه تفرقت بهم الطرق.

والجواب الصحيح أن يُقَال: إن مَا يبتلى به العبد من الذنوب وإن كانت خلقًا لله تعالى، فهي عقوبة له على ذنوب قبلها فالذنبُ يُكسب الذنبَ، ومن عِقَاب السيئة السيئة بعدها، فَالذُّنُوب كالأمراض يورث بعضُها بَعْضًا!!

(١) الصافات: ٩٦.

(٢) الشمس: ٧- ٨.

فإن قيل: فَمَاذَا عن الذنب الأول الجَالِب لما بعده من الذنوب؟

قلنا: هو عقوبة على عدم فعل ما خلق لأجله وفطر عليه، وهو عِبَادَة الله وحده، ومحبته وتأليهه والإنابة إليه، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾[1].

فلما لم يفعل ذلك عوقب بأن زين له الشَّيْطَان مَا يفعله من الشرك وَالْمَعَاصِي، فيكون جَعْلُه مُذْنِبًا في هذه الحَالَة عقوبةً له على عدم خلوص قلبه من تأليه ما سوى الله ومحبته وإرادته.

فإن قيل: فهذا العدم مَن خلقه فيه؟

قلنا: سؤال فاسد، فإن عدم الفعل ليس أَمْرًا وجوديًّا حتى يُضَاف إلى الفاعل، بل هو شر محض، والشر ليس إليه عز وجل، كما قال النبي ﷺ: «**والشر ليس إليك**».

فإن قيل: إن كان هذا الترك أَمْرًا وُجُودِيًّا عَادَ السؤال جذعًا، وإن كان أمرًا عدميًّا فكيف يعاقب على العدم المحض؟

قلنا: إن العدم هُنَا هو محض خُلُوِّهَا مِمَّا هو أنفع شيء لها، والعقوبة عليه هي بفعل السَّيِّئَات، لا بِالْعُقُوبَةِ التي تنالها بعد إِقَامَة الحجة بِالرُّسُلِ. فلله فيه عُقُوبَتَانِ:

(١) جعله مُذْنِبًا خَاطِئًا، وهذه عقوبة عدم إخلاصه لله، وهذه قد لا يحس بألمها ومضرَّتها لِمُوَافَقَتِهَا لشهواته، وهي في الحقيقة من أعظم العُقُوبَات.

(٢) العُقُوبَات المؤلمة بعد فعل السَّيِّئَات.

وقد فرق الله بَيْنهمَا في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ

(١) الروم:٣٠.

شَيْءٍ﴾[1]، فهذه هي العقوبة الأولى، ثم قَالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[2]، فهذه هي العقوبة الثَّانِيَة.

فإن قيل: فهل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم؟ قيل: لا، بل هو محض منته وفضله.

فإن قيل: فإذا لم يخلقه في قلوب البعض، ولم يوفقوا إليه ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم! عاد السؤال كما كان، وكان منعهم منه ظُلْمًا، ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه بما يشاء.

قيل: لا يكون بمنعهم من ذلك ظَالِمًا، فَالظَّالِمِ هو من يمنع غيره حقًّا وجب لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حَرَّمه الرب على نفسه، أما إذا منع غيره ما ليس بحق له لم يكن ظَالِمًا بمنعه، فمنع الحق ظلم ومنع الفضل عدل، وهو سبحانه العدل في منعه، المحسن المَنَّان بِعَطَائِهِ.

فإن قيل: لِمَ يتفضل على هذا ولَمْ يتفضل على الآخر؟

قيل: قد تولى الله الجواب، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[3]. ولما سأل اليهود وَالنَّصَارَى عن تخصيص هذه الأمة بأجرين، وإعطائهم أجرهم قَالَ: «**هل ظلمتكم من حقكم شَيْئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء**»[4].

وعندما استشكل المشركون هذا التخصيص، قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ

---

(١) الأنعام ٤٤.

(٢) الأنعام: ٤٤.

(٣) الجمعة: ٤.

(٤) مسند أحمد من حديث ابن عمر.

﴿بَيْنِنَآ﴾[1]، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2]، فالله أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر الشكر من المحل الذي لو غرست فيه لم تثمر فكان غرسها في الثاني ضَائِعًا لا يليق بالحكمة. وليس من الحكمة اطلاع كل فرد من الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه، بل إذا كشف لعبد عن جزء يسير من حكمته استدل بما علمه على ما لم يعلمه.

فإن قيل: فإذا تم باستحالة الإيجاد من العبد فإذاً لا فعل له أصلاً.

قيل: بل هو فاعل لفعله حقيقة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[3].

وأفعاله نوعان:

- اضطرارية كحركات المرتعش، وهذه تكون صفة له ولا تكون فِعْلاً.
- اختيارية، فتوصف بكونها صفة وفعلاً كَسْبًا للعبد. والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلاً مُخْتَارًا؛ ولهذا أنكر السلف الجبر؛ لأنه لا يكون إلا من عَاجِز، والله لا يوصف بالجبر بهذا الاعتبار؛ لأنه سُبْحَانه خَالِق الإرادة، والمراد قَادِر على أن يجعله مُخْتَارًا بخلاف غيره؛ ولهذا جاء في لفظ الشَّارِع: الجَبْلُ دون الجبر: قال ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم، والأناة**». فَقَالَ: أخلقين تخلقت بهما؟ أم خلقين جُبلت عليهما؟ فَقَالَ: «**بل خلقان جبلت عليهما**» فَقَالَ: الحمد لله الذي جَبلني على خُلُقين يحبهما الله تعالى. والله تعالى إنما يعذب العبد على فعله الاخْتِيَارِيّ، والفرق بين العِقَاب على الفعل الاخْتِيَارِيّ وغير الاخْتِيَارِيّ مستقر في الفطر والعقول.

---

(١) الأنعام: ٥٣.

(٢) الأنعام: ٥٣.

(٣) البقرة: ١٩٧.

فإن قيل: خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم؟!

قيل: هذا بمنـزلة أن يُقَال: خلق أكل السم ثم حصول الموت به ظلم، فكما أن هذا سبب الموت فهذا سبب العقوبة.[1]

فَالْحَاصِل: أن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله تعالى، ومفعول لله، ليس هو نفس فعل الله، ففرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ بقوله: (**وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد**)، أثبت لِلْعِبَادِ فِعلاً وكَسْبًا، وَأَضَافَ الخلق إلى الله. وَالْكَسْب هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[2].

(١) القارئ المؤمن غني عن ذكر هذه التساؤلات والشبهات، ولكن لما كان أعداء الإيمان ومن في قلوبهم مرض وزيغ يتعرضون لأهل الإيمان بهذه الأسئلة، رأينا إثباتها، وإثبات الجواب عنها.

(٢) البقرة ٢٨٦.



الإيمان باللوح والقلم

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رُقِمَ).

وقال: (وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه).

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[(١)]. وَقَالَ تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[(٢)].

وَقَالَ ﷺ: **«إن الله خلق لَوْحًا مَحْفُوظًا من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء قلمه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ستين وثلاثمائة نظرة، يخلق بكل نظرة ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء»**[(٣)].

(١) البروج: ٢١- ٢٢.

(٢) القلم: ١.

(٣) طب ٧٢/ ١٢، ح ١٢٥١١- عن ابن عباس، وهو حديث ضَعيف.

وهذا اللوح هو الذي كتب الله فيه مقادير الخَلائِق، والقلم المذكور هو الذي خلقه الله كتب به في اللوح المقادير. عن عبادة بن الصامت قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يارب، وَمَاذَا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»(١).

الخلاف في أول المخلوقات:

اختلف في أول المخلوقات: أهو العرش أم القلم؟ على وجهين: أصحهما: أنه العرش؛ لما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قَالَ: قال ﷺ: «**كتب الله مقادير الخَلائِق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**»(٢). فهذا صَريح بأن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير عند أول خلق القلم، لحديث عبادة السابق: «**أول ما خلق الله القلم...**» الحديث، وهو لا يخلو إما أن يكون جملة أو جملتين.

فإن كان جملة-وهو الصحيح-صار مَعْنَاهُ أنه عند أول خلقه، قال له: اكتب، كما في الرواية الواردة بنصب «أولَ» و «القلمَ».

وإن كان جملتين،كما في الرواية الواردة برفع «أولُ» و «القلمُ» فيتعين حمله على أول المَخْلُوقَات من هذا العَالَم.

وهكذا يتفق الحَدِيثَانِ: فالعرش سابق على التقدير، والتقدير مُقَارن لخلق القلم.

وهذا القلم هو أول الأقلام وأجلها، وهو الذي أقسم الله به في قوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(٣).

أما القلم الثاني: فهو قلم الوحي، وهو الذي يكتب به الوحي إلى الأنْبِيَاء والرسل.

---

(١) د السنة، ب ١٧، ح ٤٧٠٠. ت القدر، ب ١٧، ح ١٥٥، ١٧٨ – عن عبادة بن الصامت وعبد الله بن عباس.

(٢)صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

(٣) القلم: ١.

كتابة المقادير:

قال المصنف -رحمة الله تعالى-: (فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى أنه كائن ليجعلوه غير كائن، لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى ليجعلوه كائنًا لم يقدروا عليه، جفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة).

روي عن جابر أنه قال: جَاءَ سراقة بن مالك بن جعشم، فَقَالَ: يا رسول الله بين لنا دِيننا كأنا خلقنا الآن، ففيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما استقبل؟ قَالَ: «**لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير**».(1)

وفي حديث ابن عباس من رواية الترمذي: «... **واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كَتَبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»(2).

وفي رواية غير الترمذي: «... **واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك**...» الحديث.

الأقلام أربعة:

وقد جاءت الأقلام في هذه الأحاديث مجموعة، فدل ذلك على أَنْ للمقادير أقلامًا غير القلم الأول، والذي تدل عليه السنة أنها أربعة:

---

(1) م: القدر، ب ١، ح ٨. ق: المقدمة، ب ١٠، ح ٩١. حم: ٣/٢٩٢ و ٢٩٣، عن جَابِر بن عبد الله.

(2) ت: القيامة: ب ٥٩، ح ٢٥١٦. وقال: حسن. الآجري في الشريعة: ص ١٩٨، عن ابن عباس.

القلم الأول: العام الشامل لجميع المَخْلُوقَات، وهو الذي تقدم ذكره في اللوح؛ حين خلق آدم وهو قلم عَام لكل بني آدم، فقد قدر الله مقادير بني آدم عقيب خلق آدم، حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد.

القلم الثاني: الموضوع على العبد حين البلوغ، وهو الذي بأيدي الكرام الكاتبين.

وإذا علم العبد أن كلاً من عند الله، فَالْوَاجِب إفراده عز وجل بِالْخَشْيَةِ والتقوى.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾(١)، وَقَالَ تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾(٢)، وَقَالَ تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾(٣).

فلا بد لكل عبد أن يتقي أشياء، ولو كان ملكاً مطاعًا، فلا بد أن يتقي أشياء يراعي بها رعيته، فإذا لم يتق الله اتقى المخلوق، وإرضاء المخلوق لا مقدور ولا مأمور.

قال الشافعي: رضا الناس غاية لا تدرك.

أما رِضَاء الخَالِق فهو مقدور ومأمور. وَأَيْضًا فالمخلوق لا يغني عنه من الله شيئاً، فإذا اتقى العبد ربه كَفَاهُ مؤنة النَّاس، وأحبه الله فأحبه النَّاس.

كتبت عائشة إلى مُعَاوِيَة: من أرضى الله بسخط النَّاس رضي الله عنه، وأرضى عنه النَّاس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذَامًّا، وقد روي مَرْفُوعًا.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قَالَ: «**إذا أحب الله العبد نادى: يا جبرائيل، إني أحب فلانًا فأحبه، فَيحِبّهُ جبرائيل، ثم ينادي جبرائيل في السَّمَاء: إن الله يُحِبُّ فلانًا فأحبوه،**

(١) المائدة: ٤٤.

(٢) البقرة: ٤٠.

(٣) البقرة: ٤١.

فَيحِبّهُ أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[1]. وَقَالَ في البغض مثل ذلك.

فتقوى الله وهي التي تحصل بِهَا سعادة الدُّنْيَا والآخرة، فهو سُبْحَانه أهل التقوى وأهل المغفرة.

قال بعض السلف: ما احْتَاجَ تقي قط؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[2] فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخْرجًا مِمَّا يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خَلَلاً، فليستغفر الله وليتب إليه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[3]، أي: فهو كافيه لا محوجه إلى غيره.

التوكل لا ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب:

إن التوكل لا ينافي الاكْتِسَاب وَتَعَاطي الأسْبَاب، فقد كان محمد ﷺ أفضل المتوكلين: يلبس لأمةَ الحرب، ويمشي في الأسواق لِلاكْتِسَابِ، حتى قال الكَافِرُونَ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[4]. وَالاكْتِسَاب منه ما هو فرض، ومنه مستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام، وإن كثيرًا ممن يرون منافاة الاكْتِسَاب للتوكل يرزقون على يد من يعطيهم هدية أو صدقة، وقد يكون مَكَّاسًا أو والي شرطة أو نحو ذلك.

(١) خ: بدء الخلق، ب ٦، خ ٣٠٣٧، الأدب، ب ٤١، ح ٥٦٩٣، التوحيد، ب ٣٣، ح ٧٠٤٧. م: البر والصلة، ب ٤٨، ح ١٥٧. ب: تفسير سورة مريم، ح ٣١٦١. ط الشعر، ب ٥،، ح ١٥ - عن أبي هريرة.

(٢) الطلاق:٢- ٣.

(٣) الطلاق ٣.

(٤) الفرقان ٧.

معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ﴾[1]:

قال البغوي: قال مُقَاتِل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يعطي يوم السبت.

قال المفسرون: من شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق، ويعز قَوْمًا، ويذل آخرين، ويشفي مَرِيضًا ويفك عَانيًا، ويفرج كربًا، ويجيب داعيًا، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنبًا، إلى مَا لا يحصى من أَفْعَاله وإحداثه في خلقه ما يَشَاء.

أما قول المصنف -رحمه الله تعالى-: (**وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه**) أي: أن المقدور كائن لا مَحَالَة، ولقد أحسن من قَالَ:

مَـــا قضى الله كـــائنٌ لا مَحَالَـــة * والشـــقي الجهـــول مَـــنْ لام حالَـــه**

(١) الرحمن: ٢٩.



مرض القلب في القدر

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (فويل لمن صار قلبه في القدر قلبًا سقيمًا، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سِرًّا كتيمًا، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً).

للقلب موت وحياة، ومرض وشفاء! قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1]. أي: كان مَيِّتًا بالكفر، فأحييناه بالإيمان.

ومرض القلب نوعان:

مرض شبهة، ومرض شهوة-كما تقدم-وأردؤهما مرض الشبهة، وأردأ الشبه ما كان من أمر القدر.

وقد يمرض القلب ولا يشعر به صاحبه لاشتغاله عن معرفة صحته وَأَسْبَابِهَا، بل قد يموت ولا يشعر بها وعلامة ذلك: ألا تؤلمه جِرَاحَاتُ الْقَبَائِحِ، ولا يُوجعه جهلُه بِالْحَقِّ،

(١) الأنعام: ١٢٢.

وَعَقَائِدُه الْبَاطِلَةُ:

ما لِجُرْحٍ بميت إيلامُ

وقد يشعر بمرضه ولكن لا يصبر على مرارة الدواء! لأن دواءه في مخالفة الهوى وهو من أصعب شيء على النفس، فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء.

وقد يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه لضعف علمه وبصره وظلمة بصيرته، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بِمَا يصير إليه. ومتى ضعف صبره ويقينه لم يتحمل مشقة الطريق، لا سيما مع عدم الرفيق، واستيحاشه من الوحدة! فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده، إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول من: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾(١).

قال أبو شامة في كتابه «الحوادث والبدع»: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فَالْمُرَاد لزوم الحق وَاتِّبَاعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كَثِيرًا؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم.

وقال الحسن البصري -رحمه الله-: السنة-والذي لا إله إلا هو-بين الغالي والجافي فاصبروا عليها رحمكم الله فإن أهل السنة كَانُوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعتهم وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك كونوا.

علامة مرض القلب:

وعلامة مرض القلب: عدوله عن الأغذية النافعة إلى الأغذية الضارة، وعدوله عن

(١) النساء: ٦٩.

الدواء النافع إلى الدواء الضار، فالقلب الصحيح هو الذي يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك.

وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن، فمن طلب الشفاء من غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(1). وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(2).

فالقرآن هو الشِّفَاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، فَمَا من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فَهْمًا لكتابه.

ولكن ما كل آخذ يؤهل للاستشفاء به! فإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان لم يقاوم الداءُ أبدًا، كيف تقاوم الأدواءُ كلامَ رب الأرض والسماء؟!

القدر سر الله في خلقه:

أما قوله: (لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سِرًّا كتيمًا). فَالْمُرَاد به أنه طلب بوهمه في البحث عن الغيب سرًّا مَكْتُومًا؛ إذ القدر سر الله في خلقه، فهو يروم ببحثه الاطِّلاع على الغيب، وقد قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ٱلْقَٰسِطُونَ..﴾(3).

وقوله: (**وعاد بما قال فيه**) أي: في القدر. (**أفاكًا أثيمًا**)، أي: كَذَّابًا مأثومًا.

---

(1) يونس: ٥٧.

(2) الإسراء: ٨٢.

(3) الجن: ٢٦ - ٢٧.



الاستطاعة وعلاقتها بالتَّكْلِيفِ

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (الاستطاعة التي يجب بها الفعل- من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به- تكون مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب، وهو كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ **[البقرة ٢٨٦]).**

الاستطاعة والقدرة والوسع ألفاظ متقاربة. والنَّاس في هذه المسألة على ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: وهو لِعَامَّة أهل السنة: أن الاستطاعة تنقسم إلى قسمين:

- **الاستطاعة التي يجب بها الفعل**، أي: لابد أن يوجد معها وصف حقيقة القدرة على الفعل، وهذه لابد أن تكون مع الفعل؛ إذ لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة، وهو كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[2] فَالْمُرَاد نفي حقيقة القدرة لا نفي الأسباب.

---

(١) هود: ٢٠.

(٢) الكهف: ٦٧.

- **الاستطاعة من جهة الأَسْبَاب والآلات**، وهذه قد تتقدم الأفْعَال، ولا يجب أن تكون مَعَهَا، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(1). فأوجب الحج على المُسْتَطِيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج، ولم يعاقب أحد على ترك الحج، وهو من أبين الفَسَاد. وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾(2)، فإذا كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى، ولم يعاقب غيرهم، وهو معلوم الفساد، وَقَالَ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾(3)، وَقَالَ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(4)، فَالمُرَاد في هذا كله استطاعة الأسباب والآلات.

المذهب الثَّانِي: وهو للقدرية والمعتزلة: قالوا: لا تكون القدرة إلا قبل الفعل، وهو بِناء على أصلهم الفاسد أن أقدار الله للبر والفاجر على حد سواء، وهو فاسد بِاتِّفَاق أهل السنة المثبتين للقدر؛ فإن الله أَعَانَ البَرَّ على الطَّاعَة إعانة لم يُعِنْ بها الكافر، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾(5).

ولكن القدرية يقولون: هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق، وهو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق. والآية تقتضي أن هذا خَاصّ بِالمُؤْمِنِينَ بدلالة قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

(1) آل عمران: ٩٧.

(2) التغابن: ١٦.

(3) المُجَادَلَة: ٤.

(4) النساء ٢٥.

(5) الحجرات: ٧.

وَلَمَّا كان فاعل الطاعات وتاركها كلاهما -عند المعتزلة- في الإِعَانَة والإقدار سواء، امتنع على أصلهم أن يكون مع الفعل قدرة تخصه؛ لأن القدرة هي التي يكون بِها الفعل والترك، وحال وجود الفعل يمتنع الترك؛ فلهذا قَالُوا لا تكون القدرة إلا قبل الفعل.

وقولهم هذا باطل، بل نقيضه هو الحق، وهو أن الفعل لا بد أن يكون معه قدرة؛ لأن وجود الأمر مع عدم بعض شروطه الوجودية ممتنع.

المذهب الثالث: وهو لبعض أهل السنة: قالوا: لا تكون القدرة إلا مع الفعل؛ لأن القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين. القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل، وهي مستلزمة له لا توجد بدونه.

وَقَالَ بعضهم: إن القدرة عرض فلا تبقى زمانين، فيمتنع وُجُودهَا قبل الفعل. والصواب هو المذهب الأول، وأن القدرة نوعان:

- نوع مصحح للفعل يمكن معه الفعل والترك، وهي مَنَاط التكليف، وهذه تحصل للمطيع وَالْعَاصِي وتكون قبل الفعل، وتبقى إلى حين الفعل، إِمَّا بِنَفْسِهَا عند من يقول بِبَقَاء الأعراض، أو بتجدد أَمْثَالِهَا عند من يقول: إن الأعراض لا تبقى زمانين، وضد هذه القدرة هو العجز.
- ونوع يجب به الفعل، أي: لا بد أن يوجد مَعَهَا، وهذه لا بد أن تكون مع الفعل.

الاستطاعة الشرعية ليست مجرد إمكان الفعل:

إن الاستطاعة الشرعية أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها، فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى لوازم ذلك، فإن كان الفعل ممكنًا مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية.

فَالْمرِيض قد يستطيع أن يصلي قَائِمًا مع زيادة المرض أو تأخر برئه، والشخص قد يقدر

على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو مَاله، أو يصوم الشهر مع انقطاعه عن معيشته، فهؤلاء غير مُسْتَطِيعِينَ لأجل هذه المفسدة الراجحة وإن كانوا قد يسمون مُسْتَطِيعِينَ، وإذا كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة الراجحة فكيف يكلف مع العجز؟

ولكن هذه الاستطاعة وحدها لا تكفي في وجود الفعل، وإلا كان التارك كالفاعل، بل لا بد من إحداث إعانة أخرى مثل جعل الفاعل مُرِيدًا، فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وإرادة، فالاستطاعة المقارنة تدخل فيها الإرادة الجازمة بخلاف المشروطة في التكليف فإنه لا يشترط فيها الإرادة، فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده، ولكن لا يأمر به من لو أراده لعجز عنه. وعلى هذا ينبني تكليف ما لا يطاق. فمن قَالَ: القدرة لا تكون إلا مع الفعل، قَالَ: كل كافر أو فاسق كلف بما لا يطيق، وما لا يطاق فسار بشيئين:

- ما لا يطاق للعجز عنه، فهذا لم يكلفه الله أَحَدًا.
- ما لا يطاق للاشتغال بضده، وهو الذي وقع فيه التكليف.

وهذا واضح في أمر العباد بعضهم بَعْضًا: فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف، ويأمره إذا كان قَاعِدًا أن يقوم، ويعلم الفرق بين الأمرين بِالضَّرُورَةِ.

التكليف بمَا لا يُطَاق:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير: لا حول ولا قوة إلا بالله، نقول: لا حيلة لأحد، ولا حركة لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله، والثَّبات عليها إلا بتوفيق الله).

اختلف الناس في التكليف بما لا يطاق:

- فذهب أهل السنة إلى امتناع التكليف بما لا يطاق، قال تعالى: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1]، وإليه أشار الشيخ بقوله: (**وَلَمْ يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون**).

أَمَّا قوله تعالى للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[2] مع عدم علمهم بذلك، وقوله للمصورين: أحيوا ما خَلقتم، وَأَمْثَال ذلك فهو خِطَاب تعجيز، وليس خطاب تكليف.

أَمَّا دُعَاء المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[3] أي: لا تحملنا ما يثقل علينا أَدَاؤُهُ، وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه،كما تقول للرجل الذي تبغضه: لا أطيق النظر إليك، وأنت مطيق لذلك لكنه يثقل عليك، ذكره ابن الأنباري.

- وذهب أبو الحسن الأشعري إلى جواز التكليف بما لا يطاق عقلاً، واختلف أصحابه في وقوعه شَرْعًا. واحتج من قال بوقوعه شرعًا بأمر أبي لهب بالإيمان، وقد أخبر تعالى أنه لا يؤمن، قال تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[4]، فكان مَأْمُورًا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن! وقد أجيب عن هذا بأننا لا نسلم بأنه مَأمور بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، والاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان كانت حَاصِلَة، فما كان عَاجِزًا عن تحصيل الإيمان، وما كلف إلا ما يطيقه. ومنهم من يقول: يجوز التكليف بِالْمُمْتَنِع عَادَة دون الممتنع لذاته؛ لأنه لا يتصور وجوده، فلا يعقل الأمر به، ومنهم من يقول: ما لا يطاق للعجز عنه لا يجوز التكليف به، أما ما لا يطاق

(١) المؤمنون: ٦٢.
(٢) البقرة: ٣١.
(٣) البقرة:٢٨٦.
(٤) المسد: ٣.

للاشتغال بضده فإنه يجوز التكليف به. وهؤلاء موافقون للسلف في المعنى، إلا أن جعل ما يتركه العبد لا يُطِاق لكونه مُشْتَغِلاً بضده بدعة في الشرع واللغة، فإن مضمونه أن كل من لم يفعل فإنه لا يطيقه، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف.

وقد يحتج هؤلاء بمثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾(1)، وقوله: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾(2).

ولكن المراد بالآية الأولى أن هؤلاء لبغضهم الحق وثقله عليهم- إما حسدًا، أو اتِّبَاعًا للهوى- لا يستطيعون السمع، لا لعجزهم عنه.

أما الآية الثانية فالمراد بِهَا أن موسى عليه السلام لا يستطيع الصبر؛ لما يرى من مخالفة ظاهر الشرع، وليس عن عجز منه عن ذلك. وهذه لغة العرب وسائر الأمم، فمن يبغض غيره يقول: إنه لا يستطع الإحسان إليه، ومن يحبه يقول: إنه لا يستطع عقوبته؛ لشدة محبته، لا لعجزه عن عقوبته. والله عز وجل لو لم يأمر العباد إلا بما يَهْوَوْنَهُ لفسدت السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾(3).

وقول الشَّيْخ -رحمه الله تعالى-: **(ولا يطيقون إلا ما كلفهم)** أي: ولا يطيقون إلا ما أقدرهم عليه، وفي عِبَارَة الشيخ إِشْكَال؛ لأن التكليف لا يستعمل بمعنى الإقدار، بل بمعنى الأمر والنهي، وهو قَالَ: **لا يكلفهم إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم به)**

(1) هود: ٢٠.

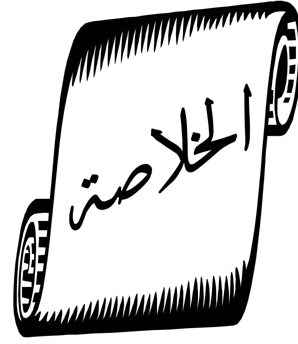
(2) الكهف: ٦٧.

(3) المؤمنون: ٧.

وظاهره أنه يرجع إلى معنى واحد ولا يصح ذلك؛ لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به، ولكنه سبحانه يريد بِعِبَادِهِ اليسر والتخفيف، فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه، ولكنه تفضل علينا وخفف عنا، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾[1].

وَيُجَاب عن هذا الإشكال بأن المراد الإطاقة التي من نحو التوفيق، لا من جهة التمكن وسلامة الآلات، ولكن لا تخلو الْعِبَارَة من قلق. (و لا حول ولا قوة إلا بالله) دليل على إثبات القدر، وقد فَسَّرَهَا الشيخ بعدها.

(١) النساء: ٢٨.



- أصل القدر سر الله في خلقه، وقد اتفق أهل السنة على أن كل شيء يقع بقضاء الله وقدره، فهو عز وجل لا يحب الكفر، ولا يرضاه دينًا، رغم أنه قد يريده ويشاؤه كونًا، بلا منافاة بين البغض والإرادة لاختلاف متعلقهما.
- منشأ الضلال في القدر من التسوية بين الإرادة والمحبة، وقد سوى بينهما الجبرية الذين جعلوا كل ما في الكون مرادًا ومحبوبًا في ذات الوقت، والقدرية النفاة الذين أخرجوا المعاصي من كونها مقدرة؛ إذ إنها غير مرضية ولا محبوبة.
- القدرية هم مجوس هذه الأمة، حيث أخرجوا أفعال العباد عن كونها مخلوقة مقدرة من عند الله، فكذبوا بالقدر، ونقضوا بذلك توحيده، كما أن غلاة المعتزلة أنكروا كون الله عالمًا بأفعال العباد في الأزل.
- النعم والمحن كلها من عند الله، فما أصاب العبد من حسنة فمحض فضل من الله يستوجب الشكر، وما أصاب العبد من سيئة فبذنب نفسه عقوبة له، فيستوجب الاستغفار.
- القدر نظام التوحيد، فهو اعتراف بربوبية الله تعالى علمًا، وتقديرًا، وخَلقًا، وحكمةً، وهدايةً.

- الموجودات إما مسخر بطبعه، وقد هداه الله لما سخر له هداية طبيعية، وإما متحرك بإرادته كالإنسان، وله نوعان من الهداية: هداية الدلالة العامة التي يشترك فيها كل بني آدم، وهداية التوفيق الخاصة بالمؤمنين.
- مشيئة الله تعالى تنفذ في كل شيء، ولا مشيئة للعبد إلا ما شاء الله له، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.
- القدر يحتج به عند المصائب، لا عند الذنوب والمعائب.
- كل من أسماء: القضاء، والإرادة، والإذن، والأمر، والكتاب، والكلمات، والحكم، والتحريم، ونحو ذلك يأتي تارة بالمعنى الكوني القدري، وتارة بالمعنى الديني الشرعي.
- الإرادة الكونية القدرية شاملة لجميع الحوادث ما يحبه الله منها وما لا يحبه، أما الإرادة الشرعية فهي المتضمنة للمحبة والرضا، وهي المستلزمة لأمر الله ونهيه.
- أفعال العباد هي خلق الله بمشيئته وقدرته، كما أنها كسب من العباد، فهم فاعلون لأفعالهم حقيقةً، فبها صاروا مطيعين وعصاة، وعليها يستوجبون المدح والذم.
- زعمت الجبرية أن تدبير أفعال الخلق كلها لله، وإضافتها إلى الخلق مجاز، وقابلتهم المعتزلة بأن الأفعال الاختيارية مضافة للعبد على الحقيقة، لا تعلق لها بخلق الله.
- لما خلق الله عز وجل القلم، كتب به في اللوح مقادير كل شيء إلى قيام الساعة، فكل ما هو كائن جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، ولا تبديل له ولا تغيير.
- أردأ أمراض الشبهات في القلوب ما كان من أمر القدر؛ لما فيه من البحث عن أسرار غيبية؛ إذ إن القدر سر الله في خلقه.

- الاستطاعة عند أهل السنة نوعان: نوع يوجد مع الفعل وهو حقيقة القدرة على فعله، ونوع قد يتقدم الفعل؛ لأنه من جهة الأسباب والآلات. أما الاستطاعة الشرعية: فهي إمكان الفعل مع انتفاء المفاسد الراجحة.
- تكليف الله عباده ما لا يطاق ممتنع عقلاً وشرعاً.

الاختبار البعدي للوحدة

س١: الله عز وجل قد لايرضى الأمر دينًا، ولكنه يريده كونًا، كيف ذلك؟ وما الحكمة في وقوعه؟ اذكر النصوص التي تشهد بذلك.

س٢: منشأ الضلال في القدر من التسوية بين الإرادة والمحبة. وضح ذلك مع بيان أقوال المذاهب التي ضلت في القدر؟

س٣: **ضع علامة (✓) أو (×) أمام العبارات الآتية:**

١ – مادام الله قد أراد أمراً في كونه فهذا دليل على أنه يحبه ويرضاه. ( )

٢ – الله تعالى قد يكره الشيء، ولكنه يريده لكونه سببًا في محابَّ أخرى له. ( )

٣– الطاعة هي موافقة الأمر القدري، لا موافقة الأمر الشرعي. ( )

٤ – ينبغي على العبد أن يرضى بما قدره الله عليه من المعاصي من غير سخط. ( )

٥ – القدر يتضمن مقادير المخلوقات المطابق للعلم بها قبل كونها. ( )

٦ – كل عطاء وعقوبة من الله تعالى عدل منه لاستحقاق العبد ذلك. ( )

٧– أنكر المعتزلة علم الله بالكليات قبل وقوعها، وأثبتوا علمه بالجزئيات. ( )

٨– المقدور الذي وقع قديمٌ غير محدث كالعلم والتقدير. ( )

٩ – يحتج بالقدر عند المصائب لا عند المعائب. ( )

س٤: ما وجه الجمع بين قوله تعالى عن الحسنات والسيئات: «قل كل من عند الله» وقوله في الآية التالية: «وما أصابك من سيئة فمن نفسك»؟ وكيف يحتج القدرية بالآية الثانية على مذهبهم؟ وما وجه بطلان قولهم؟

س٥: من وحّد الله، وكذّب بالقدر، نقض تكذيبُه توحيدَه. اشرح هذه العبارة، مبينًا على من تنطبق، مع الاستدلال بنصوص السنة، وآثار السلف فى ذلك؟

س٦: ما الفرق بين احتجاج آدم على موسى بالقدر، وبين احتجاج المشركين على شركهم بالقدر؟

س٧: الألفاظ الشرعية كالقضاء، والأمر، والإذن، والإرادة... إلخ، قد تأتي تارة بالمعنى الكوني، وتارة بالمعنى الشرعي. اشرح ذلك مع الاستدلال بالآيات القرآنية.

س٨: تفرق الناس في أفعال العباد الاختيارية على طرفين باطلين، ووسط وهم أهل السنة. وضح ذلك مبينًا عقيدة كل منهم، وأدلتهم.

س٩: مقادير الخلائق كتبت بأقلام، دلت على أنواعها نصوص الكتاب والسنة، اذكرها مع شرح النصوص الدالة عليها.

س١٠: لم كانت الشبهات في أمر القدر من أردأ أمراض القلب؟

س١١: تفرقت المذاهب في مسألة علاقة التكليف بالاستطاعة. اذكر هذه المذاهب، ثم وضح المقصود من الاستطاعة الشرعية؟

س١٢: **بين العبارات الصحيحة فيما يلي، مع تصويب العبارات الخاطئة منها:**

- استطاعة القدرة على الفعل حقيقة هي استطاعة الأسباب والآلات.
- الاستطاعة الشرعية هي إمكان الفعل مع انتفاء المفاسد الراجحة.
- التكليف بما لا يطاق يجوز عقلاً، ولكنه يمتنع شرعًا.
- العباد لا يطيقون إلا ما كلفهم الله به بحيث لو زاد التكليف لما أطاقوه.

الوحدة السابعة

متفرقات

- الفصل الأول: عقيدة أهل السنة في الصحابة والسلف.
- الفصل الثاني: اتباع السنة والجماعة واجتناب الشذوذ والفرقة.
- الفصل الثالث: حقيقة الدين وتوسطه بين الإفراط والتفريط.
- الفصل الرابع: البراءة من الفرق الضالة ونقض موجز لأهم مقالاتهم.



تنقسـم هـذه الوحـدة إلى أربعـة فصـول، ويتوقـع منـك عزيزي الدارس بعد دراستك لها أن تكون ملماً بما يلي:

أولاً: عقيدة أهل السنة في الصحابة والسلف:

- حب الصحابة إيمان، وبغضهم كفر.
- خلافة الراشدين.
- فضل العشرة المبشرين بالجنة.
- توقير علماء السلف وموالاتهم.

ثانيًا: اتباع السنة والجماعة، واجتناب الشذوذ والفرقة:

- وجوب اتباع السنة والجماعة.
- حرمة الفرقة.
- وجوب الحج والجهاد مع البَر والفاجر.
- عدم الخروج على أئمة الجور من المسلمين.
- جواز المسح على الخفين في السفر والحضر.

ثالثًا: حقيقة الدين، وتوسطه بين الإفراط والتفريط:

- حقيقة الدين.
- أهل القبلة بين الخوف والرجاء.

رابعًا: البراءة من الفرق الضالة، ونقض موجز لأهم مقالاتهم:

- نماذج من الفرق الضالة.
- مسالك الفرق الضالة في الوحي.

الفصــل الأول

عقيدة أهل السنة
في الصحابة والسلف

- المبحث الأول: حب الصحابة إيمان، وبغضهم كفر.
- المبحث الثاني: خلافة الراشدين.
- المبحث الثالث: فضل العشرة المبشرين بالجنة.
- المبحث الرابع: توقير علماء السلف وموالاتهم.

روى مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «**وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**» ثلاثًا[(١)].

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ومَن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسين من كل رجس، فقد برئ من النفاق).

وأخرج البخاري عن أبي بكر أنه قال: ارقبوا مُحَمَّدًا في أهل بيته.

(١) م الفضائل، ب ٤، ح ٣٦- عن زيد بن أرقم.



حب الصحابة إيمان، وبغضهم كفر

قال المصنف -رحمة الله تعالى-: (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان).

يشير الشيخ رحمه الله بذلك إلى الرد على الروافض والنواصب.

وقد أثنى الله ورسوله على الصحابة ووعدهم بالحسنى: قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ...﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ

(١) الفتح: ٢٩.

نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاءوا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون الله ألا يجعل في قلوبهم غلاً لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء، فمن كان في قلبه غِلٌّ للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لم يستحق من الفيء نصيباً بنص القرآن. وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ...﴾[2].

وهم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة، وقيل: هم من صلى إلى القبلتين، ولا دليل عليه، والصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرد فضيلة؛ لأن النسخ ليس من فعلهم.

وفي الصحيحين من حديث عمران بن حصين وغيره: قال ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**، قال عمران: فلا أدري أذكر قرنين أو ثلاثة..»[3]الحديث.

فضل الصحبة الأولى:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[4].

(١) الحشر: ٨-١٠.

(٢) التوبة: ١٠٠.

(٣) خ الشَّهَادَات، ب ٩، ح ٢٥٠٨ و ٢٥٠٩، والفضائل، ب ١، ح ٣٤٥٠ و ٣٤٥١، والرقاق، ب ٧، ح ٦٠٦٤ و ٦٠٦٥، والأيمان، ب ٩، ح ٦٢٨٢ وب ٢٦، ح ٦٣١٧. م: الفضائل، ب ٥٢، ح ٢١٠- ٢١٦. د: السنة، ب١٠، ح ٤٦٥٧. ب المناقب، ب ٥٤، ح ٣٨٥٩، الفتن، ب ٤٥، ح ٢٢٢١، و ٢٢٢٢. ق: الأحكام، ب ٢٧، ح ٢٣٦٢ و ٢٣٦٣، عن ابن مسعود وعمران.

(٤) الحديد: ١٠.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا أحدًا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه**»[1].

وذلك لأن عبد الرحمن من السابقين الأولين، وهم أخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامه إلى فتح مكة، وسموا الطلقاء، ومنهم: أبو سفيان وابناه: يزيد، ومعاوية. والمقصود أنه نهى من له صحبة أخرى أن يسب من له صحبة أولى، فكيف بحال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة؟

وفي صحيح مسلم عن جَابِرِ أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**»[2].

بين الإفراط والتفريط في حب أصحاب رسول الله:

قول المصنف: (**ولا نُفْرِطُ في حب أحد منهم**) أي: لا نتجاوز الحد في حب أحد منهم، كما فعلت الشيعة فنكون من المعتدين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾[3].

وقوله: (**ولا نتبرأ من أحد منهم**) أي: كما فعلت الروافض، فعندهم لا ولاء إلا ببراء، أي: لا يُتولى أهلُ البيت حتى يُتبرأ من أبي بكر وعمر.

وأهل السنة يوالونهم كلهم، وينـزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف،

(١)خ الفضائل، ب ٥، ح ٣٤٧٠. م: الفضائل، ب ٥٤، ح ٢٢١ و ٢٢٢. عن أبي سعيد وأبي هريرة.

(٢) م: الفضائل، لي ٣٧، ح ١٦٣. س: تفسير سورة مريم، ح ٣٤١- عن أم مبشر وجابِر بن عبد الله.

(٣) النساء: ١٧١.

لا بالهوى والتعصب، وهذا معنى قول بعض السلف من الصحابة والتابعين كأبي سعيد الخدري، وإبراهيم النخعي والحسن البصري والضحاك: الشهادة بدعة والبراءة بدعة، ومعنى الشهادة: أن يشهد على معين من المسلمين أنه من أهل النار، أو أنه كافر بدون العلم بما ختم الله له به.

حب أصحاب رسول الله دين وإيمان:

وذلك لأنه امتثال لأمر الله فيما تقدم من النصوص: روى الترمذي عن عبد الله بن مغفل قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الله الله في أصحابي، لاتتخذوهم غَرَضًا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه** »[1]. وتسمية حب الصابة إيمانًا مشكل على الشيخ رحمه الله؛ لأن الحب عمل القلب وليس هو التصديق فيكون العمل داخلاً في مسمى الإيمان، وكلام الشيخ في الإيمان أنه الإقرار بِاللِّسَانِ، والتصديق بِالْجَنَانِ، ولم يجعل العمل دَاخِلاً في مسمى الإيمَان، وهذا هو المعروف من مذهب أهل السنة، إلا أن تكون هذه التسمية مَجَازًا.

أَمَّا قول المصنف -رحمه الله تعالى-: (**وبغضهم كفر**)، فإن الكفر هنا نظير الكفر المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[2]، وقد تقدم الكلام في تكفير أهل البدع.

---

(١) ت: المناقب، ب ٥٩، ح ٣٨٦٢. حب: ١٨٩١٩، ح ٧٢١٢. حم: ٥٤/ ٥ و ٥٧، عن عبد الله بن مغفل وقال الترمذي: غريب.

(٢) المائدة: ٤٤.



خلافـــة الراشـــدين

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلاً له وتقديمًا على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون.

أولاً: خلافة أبي بكر:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلاً له وتقديمًا على جميع الأمة).

اختلف أهل السنة في خلافة الصديق رضي الله عنه هل كانت بِالنَّصِّ، أو بالاختيار؟ فذهب الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بِالنَّصِّ الخفي والإشارة. ومنهم من قال بالنص الجلي، وذهب جَمَاعَة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار.

الأدلة على ثُبُوتهَا بالنص:

- ما أسنده البخاري عن جبير بن مطعم قال: أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قَالَتْ: أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ كأنها تريد الموت! قال: «**إن لم تجديني فأتي أبا بكر**»(١).
- وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قَالَتْ: دخل عليَّ رسول الله ﷺ في اليوم الذي بُدِئَ فيه، فقال: «**ادعي لي أَبَاك وَأَخَاك حتى أكتب لأبي بكر كتابًا، ثم قال: يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر**»(٢) وفي رواية: «**فلا يطمع في هذا الأمر طامع**»(٣).
- وفي السنن عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقتَدُوا بالَّذَيْنِ مِنْ بعدي: أبا بكر وعمر**»(٤).
- أحاديث تقديمه في الصلاة وهي مشهورة ومعروفة.

---

(١) خ الفضائل، ب ه، ح ٣٤٥٩، والأحكام، ب ٥١، ح ٦٧٩٤. م: الفضائل، ب١، ح ١ - عن جبير بن مطعم.

(٢) وعن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتابًا فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**» مسلم، فضائل الصحابة.

(٣) م: الفضائل، ب ا، ح ١١. حم ٣٩٨/ ٣. حب ٢٠٢/٨، ح ٦٥٦٤، عن عائشة.

(٤) ت المناقب، ب ١٦، ح ٣٦٦٢ و ٣٦٦٣، ب ٣٨، خ ٣٨٠٥. حم: ٣٨٢/ ٥ و٣٨٥. ك: ٧٦/ ٣، عن حذيفة بن اليمان. وقال الترمذي: حسن.

- أن عمر لما قال في خطبته التي خطبها بمحضر من المُهَاجِرِينَ والأنصار: أنت خيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ لم ينكر ذلك أحد منهم، ولم يقل أحد من اَلصَّحَابَة قط: إن النبي ﷺ نص على غير أبي بكر لا عليّ ولا العباس ولا غيرهما. ومن نقل عنه أنه طلب تولية غير أبي بكر لم يذكر حجة دينية شرعية، وإنما نشأ من حب قبيلته وقومه فقط.

دليل القائلين بثبوتها بالاختيار:

واحتج من قال: لم يستخلف، با لخبر المأثور: عن عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، يعني أبا بكر، وإن لا أستخلف فلم يستخلف من هو خير مني، يعني رسول الله ﷺ، قال عبد الله: فعرفت أنه حين ذكر رسول الله ﷺ غير مستخلف.

والظاهر أن المراد-والله أعلم-أنه لم يستخلف بعهد مكتوب، ولو كتب عَهْدًا لكتبه لأبي بكر، بل قد أراد كِتَابَته ثم تركه وقال: يَأْبى الله والمسلمون إلا أبا بكر، فَكَانَ هذا أبلغ من مجرد عهد فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه بَيَانًا قَاطِعًا للعذر، ولكن لما دلَّهم عليه بدلالات متعددة حصل المقصود.

فضائل الصديق رضي الله عنه:

النصوص الواردة في فضل أبي بكر رضي الله عنه كثيرة، منها: قال ﷺ وهو على منبره: **«لو كنت مُتَّخِذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سُدَّت إلا خوخة أبي بكر»**[1].

وفي الصحيحين عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ بعثه على جيش ذات

---

(١) البخاري باب الخوخة والممر في المسجد (٤٥٥).

السلاسل فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**» قلت: من الرِّجَال؟ قَالَ: «**أبوها**» قلت: ثم من؟ قال «**عمر**»، وعدَّ رِجَالاً.(١)

وفي صحيح البخارِي عن أبي الدرداء قال: كنت جَالِسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه، فَقَالَ النبي ﷺ: «**أما صاحبكم فقد غامر**»، فسلَّم وَقَالَ: يَا رسول الله إنه كان بيني وبين ابن الخَطَاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لي، فأبى عليَّ فأقبلت عليك، فَقَالَ: «**يغفر الله لك يا أبا بكر**» ثلاثًا، ثم إن عمر ندم فأتى منـزل أبي بكر فَسأل: أَثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فسلم عليه فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّر، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فَقَالَ: يا رسول الله والله أَنَا كنت أظلم! مرتين، فقال النبي ﷺ: «**إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟**» مرتين، فما أوذي بعدها.(٢)

ثانِيًا: خلافة عمر:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ثم لعمر بن الحطاب رضي الله عنه).

أي: وتثبت الخلافة بعد أبي بكر لعمر رضي الله عنه، وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه وإجماع الأمة بعده عليه.

(١)خ: الفضائل، ب ه، ح ٣٤٦٢، والمغازي، ب ٦٠، ح ٤١٠٠. م: الفضائل، ب ١، ح ٨. ت: المناقب، ب ٦٣، ح ٣٨٨٥. حب: ٢٤/ ٩، ح ٦٨٦١، عن عمرو بن العاص.

(٢) خ: الفضائل، ب ه، ح ٣٤٦١، وتفسير سورة الأعراف، ح ٤٣٦٤، عن أبي الدرداء.

فضائل عمر:

وَفَضَائله رضي الله عنه أشهر من أن تنكر، وأكثر من أن تذكر، منها:

ما جَاءَ في الصحيحين أنه ﷺ قال: «**قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد منهم فإن عمر بن الخطاب منهم**»(١) محدَّثون، أي: ملهمون.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينا أنا نائم رَأَيْتني على قليب عليها دلو، فنـزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة، فنـزع منها ذَنوبًا أو ذَنوبين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم استحالت غِربًا، فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريًّا من الناس يفري فَريَّه، حتى ضرب الناس بعطن**»(٢).

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن عليًّا ترحم على عمر يوم قبض وقال: ما خلفت أحدًا أحبَّ إليَّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وَايْمُ الله إن كنتُ لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذلك أني كنت أكثر ما أسمع رسول الله ﷺ يقول: «**جئت أنا وأبو بكر وعمر**»، و «**دخلت أنا وأبو بكر وعمر**»، و «**خرجت أنا وأبو بكر وعمر**»(٣). فإن كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما.

وفي الصحيحين قوله ﷺ لعمر: «**إيهِ يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجك**»(٤).

---

(١) م الْفَضَائِل، ب ٢، ح ٢٣. ت: المناقب، ب ١٨، ح ٣٦٩٣. حم: ٦ / ٥٥. حب: ٢١/ ٩، ح ٦٨٥. عن عائشة.

(٢) خ المناقب، ب ٢٢، ح ٣٤٣٤، والفضائل، ب ٥، ح ٣٤٦٤ و٣٤٧٣، وب٦، خ ٣٤٧٩، والتعبير، ب ٢٨، ح ٦٦١٦ وب ٢٩، ح ٦٦١٧ و ٦٦١٨ وب ٣٠، ح ٦٦١٩، التوحيد، ب ٣١، ح ٧٠٣٧. م: الفضائل، ب ٢، ح ١٧- ١٩. حب: ٢٣/ ٩، ح ٦٨٥٩، عن أبي هريرة وابن عمر.

(٣) م: الفضائل، ب ٢، ح ١٤- عن ابن عباس.

(٤) خ بدء الخلق، ب ١ ١، ح ٣١٢٠، والفضائل، ب ٦، ح ٣٤٨٠، والأدب، ب ٦٨، ح ٥٧٣٥. م الفضائل، ب ٢، ح ٢٢. سي: ص ٢٣٢ ح ٢٠٧. حم ١٧١/ ١. حب ٢١/ ٩، ح ٦٨٥٤، عن سعد ابن أبي وقاص.

ثالثًا: خلافة عثمان:

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ثم لعثمان رضي الله عنه).

أي: وتثبت الخلافة بعده لعثمان رضي الله عنه، وهو أحد الستة الذي أوصى عمر أن تكون الخلافة فيهم من بعده؛ لأن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راض وهم: علي وعثمان والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن.

فضائل عثمان:

ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة: كونه خَتْنَ رسول الله ﷺ على ابنتيه، وأن الملائكة تستحي منه، ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيته كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له، وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله وسوى ثيابه فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتشَّ له ولم تُبالِهِ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟ فقال: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**»(1)، وأن النبي ﷺ بايع عنه يوم بيعة الرضوان: ففي صحيح البخاري: أنه لما كان يوم بيعة الرضوان، وأن عثمان رضي الله عنه كان قد بعثه النبي ﷺ إلى مكة، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «**هذه يد عثمان**»، فضرب بها على يده فقال: «**هذه لعثمان**».(2)

(1) م: الفضائل، ب ٣، ح ٢٦. حب: ٢٨/ ٩، ح ٦٨٦٨. حم: ٦٢/ ٦، عن عائشة.

(2) خ: الفضائل، ب ٧، ح ٣٤٩٥، والمغازي، ب ١٦، ح ٣٨٣٩. ب: المناقب، ب ١٩، ح ٣٧٠٢- ٣٧٠٦. حم ١٠١/ ٢و١٢٠، عن عبد الله بن عمرو وأنس بن مَالك.

رابعاً: خلافة علي:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه)

أي: ونثبت الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنهما، فقد بايعه النَّاس، وصار إمامًا حقًّا واجب الطاعة، وهو الخليفة في زمانه خلافةَ نبوة كما دل عليه حديث سُفينة أنه ﷺ قَالَ: «**خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء**»[1].

فالخلافة قد ثبتت له رضي الله عنه بمبايعة الصحابة سوى معاوية مع أهل الشام، والحق مع علي رضي الله عنه؛ ذلك أنه لما قتل عثمان رضي الله عنه كثر الكذب والافتراء عليه وعلى عليٍّ، وكان في عسكر علي من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من أظهاره كله، فرأى طلحة والزبير أنه إن لم ينتصر للشهيد المظلوم ويقمع أهل الطغيان والفساد وإلا استوجبوا غضب الله وعقابه، فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي، ولا من طلحة والزبير، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين.

ثم جرت فتنة صفين لرأي: وهو أن أهل الشام يخافون طغيان من في العسكر، كما طغوا على الشهيد المظلوم، وعلي هو الإمام الذي يجب أن يجتمعوا عليه، فاعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم، فحمله ما رَآهُ من أن الدين إقامة الحد عليهم ومنعُهم من الإثارة دون تأليفهم على القتال، وقعد عن القتال أكثر الأكابر؛ لما سمعوا من النصوص في الأمر بالقعود في الفتنة، ولما رأوه من الفتنة التي تربو مفسدتها على مصلحتها.

---

(١) د: السنة، ب ٩، ح ٤٦٤٦ و ٤٦٤٧. ت: الفتن، ب ٤٨، ح ٢٢٢٦. حم: ١٢١/ ٥. ك: ١٤٥١٣- عن سفينة، وقال الترمذي: حسن.

ونقول في الجميع بالحسنى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

والفتن التي كانت في أيامه رضي الله عنه صان الله عنها أيدينا فنسأله جل وعلا أن يصون عنها ألسنتنا بمنه وكرمه.

قـال المصـنف -رحمـه الله تعـالى-: (وهـم الخلفـاء الرَّاشِـدُونَ والأئمة المهديون).

عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت مِنْهَا العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كَأَنَّ هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش بعدي فسيرى اخْتِلافًا كثِيرًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تَمَسَّكُوا بها، وعَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ، وإياكم ومحدثاتِ الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**»[2].

فضل أبي بكر وعمر على بقية الخلفاء:

وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما من المزية أن النبيﷺ أمرنا باتباع سنة الخلفاء الراشدين، ولم يأمرنا بالاقتداء في الأفعال إلا بأبي بكر وعمر، فقال: «**اقتدوا باللذَين من بعدي أبي بكر وعمر**» وفرْق بين اتباع سنتهم والاقتداء بهم، فحال أبي بكر وعمر فوق حال عثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) الحشر: ١٠.

(٢) د: السنة، ب ٦، ح ٤٦٠٧. ت: العلم، ب ١٦، ح ٢٦٧٦. وقال الترمذي: حسن صحيح.

تقديم عثمان على عليّ:

وقد روي عن أبي حنيفة تقديم علي على عثمان، لكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان على عليّ، وعليه عَامَّة أهل السنة.

ففي الصحيحين عن ابن عمر قال: كنا نقول ورسول الله حي: أفضل أمة النبي ﷺ بعده: أبو بكر، ثُمَّ عمر، ثم عثمان.

وقال أيوب السختياني: من لم يقدم عثمان على عَليّ فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار.



فضل العشرة المبشرين بالجنة

قـال المصـنف -رحمـه الله تعـالى-: (وأن العشـرة الـذين سـماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله ﷺ، وقوله الحق، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة، رضي الله عنهم أجمعين).

اتفق أهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم؛ لما اشتهر من فضلهم ومناقبهم، وتقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة، وهذا ذكر بعض فضائل الستة الباقين.

سعد بن أبي وقاص:

روى مسلم عن عائشة رضي الله عَنْهَا قالت: أَرِقَ رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: «**ليت رَجُلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة**»، قالت: وسمعنا صوت السلاح، فقال النبي ﷺ: «**من هذا؟**» فقال سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله جئت لأحرسك.(١)

(١) خ: الجهاد ب٦٩، ح ٢٧٣٩، والتمني ب ٣، ح ٦٨٠٤. م الفضائل، ب ٥، ح ٣٩ و ٤٠، عن عائشة.

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ جمع لسعد بن أبي وقاص أبويه يوم أحد فقال: «**ارم فداك أبي وأمي**»[1].

طلحــة:

روى مسلم عن قيس بن حازم قال: رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي ﷺ يوم أحد قد شلت.[2]

وروي أَيْضًا عن أبي عثمان النهدي قال: لم يبقَ مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قَاتل فيها النبي ﷺ غير طلحة وسعد.[3]

الــــزبيــــر:

روى مسلم عن جَابِر بن عبد الله قول النبي ﷺ: «**لكل نبي حواري، وحواريي الزبير**»[4].

وفي الصحيحين عن الزبير أن النبي ﷺ قال: «**من يأتي بني قُرَيْظَة فيأتِيني بخبرهم؟**» فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ بين أبويه، فقال: «**فداك أبي وأمي**»[5].

(١) خ: الجهاد، ب ٧٩، ح ٢٧٤٩، والفضائل، ب١٥، ح ٣٥١٩، والمغازي، ب ١٥، ح ٣٨٢٩- ٣٨٣٣ م: الفضائل، ب ٥، ح ٤١ و ٤٢، عن علي وسعد.

(٢) خ: الفضائل، ب ١٤، ح ٣٥١٨، والمغازي، ب١٥، ح ٣٨٣٥، عن قيس بن حازم.

(٣) خ: الفضائل، ب ١٤، ح ٣٥١٧. م: الفضائل، ب ٦، ح ٤٧ عن أبي عثمان النهدي.

(٤)خ الجهاد، ب ٤٠، خ ٢٦٩١، وب ٤١، ح ٢٦٩٢، وب ١٣٣، ح ٢٨٣٥، والفضائل، ب ١٣، ح ٣٥١٤، والمغازي، ب ٢٧، ح ٣٨٨٧، والآحاد، ب ١١، ح ٦٨٣٣. م: الفضائل، ب ٦، ح ٣٨. ت: المناقب، ب ٢٤، ح: ٣٢٤٤، وب ٢٥، ح ٣٧٤٥. ق: المقدمة، ب ١١، ح ١٢٢. حم ٣٣٨/ ٣، عن جابر بن عبد الله.

(٥) خ: الفضائل، ب ١٣، ح ٣٥١٥. م: الفضائل، ب ٦، ح ٤٩. ت المناقب، ب ٢٥، ٣٧٤٥، ق المقدمة، ب ١١، خ ١٢٢. حم: ١٦٦/ ١، عن الزبير بن العوام.

أبــو عبيــدة:

روى مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل أمة أميناً، وإن أميننا- أيتها الأمة-أبو عبيدة بن الجراح**»(١).

وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال: جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ابعث إلينا رجلاً أَمِينًا، فقال: «**لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين**»، فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح.(٢)

سعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف:

روى أبو داود وابن ماجه والترمذي وصححه عن سعيد بن زيد قال: أشهد على رسول الله ﷺ أني سمعته وهو يقول: «**عشرةٌ في الجنة: النبيُّ في الجنة، وأبو بكرٍ في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعليٌّ في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عوفٍ في الجنة**» **ولو شئت لسميت العاشر**، قال: فقالوا: من هو؟ فسكت، قال: فقالوا: من هو؟ **فقال: هو سعيد بن زيد**، وقال: **لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ يغبر منه وجهه خير من عمل أحدكم ولو عُمِّر عمر نوح**. (٣)

وروى أحمد في مُسْنَده عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال: «**أبو بكر في الجنة،**

---

(١) خ: الفضائل، ب ٢١، ح ٣٥٣٤، و المغازي، ب ٦٨، ح ٤١٢١، و الآحاد، ب ١٠، ح ٦٨٢٨. م: الفضائل، ب٦، ح ٥٣. حم: ٣/ ١٨٩ و ٢٤٥. حب: ٩/ ٧١، ح ٦٩٦٢، عن أنس بن مالك.

(٢) خ: الفضائل، ب ٢١، ح ٣٥٣٥، والمغازي، ب ٦٨، ح ٤١١٩ و ٤١٢٠ و الآحاد، ب ١٠، ح ٦٨٢٧. م: الفضائل، ب ٧، ح ٥٥. ت: المناقب، ب ٣٣، ح ٣٧٩٦. ق: المقدمة، ب ١١، ح ١٣٥-عن حذيفة.

(٣) د: السنة، ب ٩، ح ٤٦٤٩. ت: المناقب، ب ٢٨، ح ٣٧٥٧، ق المقدمة، ب ١١، ح ١٣٣. ك ٣/٤٤٠. حب: ٩/٦٨، ح ٦٩٥٤. عن سعيد بن زيد. وقال الترمذي: حسن.

وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة[(١)]».

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)].

عقيدة الرافضة في أصحاب رسول الله ﷺ:

والرافضة يتبرأون من جمهور الصحابة، بل يتبرأون من سائر أصحاب رسول الله ﷺ إلا نَفَرًا قليلاً نحو بضعة عشر رجلاً، بل يكرهون لفظ العشرة، وفعل كل شيء يكون عشرة، ومعلوم أنه لو فرض في العالم عشرة من أكفر الناس لم يهجر هذا الاسم لذلك، كما لم يهجر اسم التسعة مُطْلَقًا لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[(٣)]، بل اسم العشرة قد مدح الله مُسَمَّاهُ في مواضع من القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾[(٥)].

وقد كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، ويقول في ليلة القدر: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان**»[(٦)].

وقال ﷺ: «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من أيام العشر**»، يعني عشر ذي الحجة.

---

(١) حم: ٨٧/ ١ و ١٨٨ و ١٩٣. عن سعيد بن زيد، بإسناد صحيح.

(٢) الحشر: ١٠.

(٣) النمل: ٤٨.

(٤) الفجر: ١-٢.

(٥) الأعراف: ١٤٢.

(٦) د الصوم، ب ٦١، ح ٢٤٣٨. ت الصوم، ب ٥٢، ح ٧٥٧. ق الصوم، ب ٣٩، ح ١٧٢٧. حم ٢٢٤/ ١. حب ٢٧١/ ١، ح ٣٢٤- عن ابن عباس. وقال الترمذي: حسن صحيح.

والحقيقة أن الرافضة إذ يبغضون خيار الصحابة ويحقدون على خيار المؤمنين، وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين لفي ضلال مبين، بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة: قيل لليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى. وقيل للنصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى. وقيل للرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد!! لم يستثنوا منهم إلا القليل، وفيمن سبُّوهم من هم خير ممن استثنوهم أَضْعَافًا مضاعفة!

والرافضة توالي بدل هؤلاء العشرة المبشرين بالجنة اثني عشر إِمَامًا: أولهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويدَّعون أنه وصيُّ النبي ﷺ دعوى مجردة عن الدليل، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم علي ابن موسى الرضى، ثم محمد بن علي الجواد، ثم علي بن محمد الهادي، ثم الحسن بن علي العسكري، ثم محمد بن الحسن. ويغالون في محبتهم ويتجاوزون الحد. ولم يَأْتِ ذكر الأئمة الاثني عشر إلا على صفة ترد قولهم وتبطله.

ففي الصحيحين عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعته يقول: «**لا يزال أمر الناس مَاضِيًا ما وليهم اثنا عشر رَجُلاً؟**» ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت علي فسألت أبي ماذا قال النبي ﷺ؟ قال: «**كلهم من قريش**»[1]. وفي لفظ: «**لا يزال الإسلام عَزِيزًا إلى اثني عشر خليفة**».

وكان الأمر كما قال ﷺ، والاثنا عشر: الخلفاء الراشدون الأربعة، ومعاوية وابنه يزيد، وعبد الملك بن مروان وأولاده الأربعة، وبينهم عمر بن عبد العزيز، ثم أخذ الأمر في

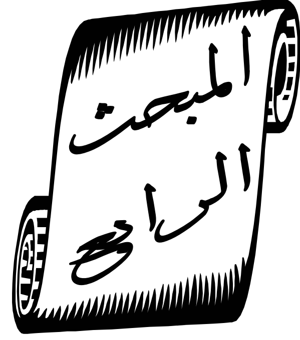
(١) خ: الأحكام، ب ٥١، خ ٦٧٩٦. م الإمارة، ب ١، ح ٥ و ٦. حم: ١٠١/ ٥. عن جابر بن عبد الله.

الانحلال. وعند الرافضة أن أمر الأمة لم يزل فَاسِدًا في أيام هؤلاء، يتوالى عليهم الظالمون والمعتدون، وأهل الحق أذل من اليهود، وقولهم ظاهر البطلان.

كيف أُحدث الرفض؟

الرفض باب الزندقة، ذلك أن الذي أحدثه منافق زنديق، قَصْدُه إبطال دين الإسلام، والقدح في رسول الله ﷺ. فقد أراد عبد الله بن سبأ بعد أن أظهر الإسلام أن يفسد دين الإسلام بمكره وخبثه-كما فعل بولس بدين النصرانية-فأظهر التنسك، ثم أظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى سعى في فتنة عثمان وقتله، ثم لَمَّا قدم إلى الكوفة أظهر الغلو في علي والنصر له ليتمكن من أغراضه، وبلغ ذلك عليًّا فطلب قتله، فهرب منه إلى قرقيس، وخبره معروف في التاريخ.

وطريقة هؤلاء في إفساد الدين هي: إظهار التشيع والتباكي على ما وقع من ظلم على آل البيت، وضرورة التبَرُّؤ ممن ظلمهم، ثم يتدرجون من سب الصحابة إلى سب أهل البيت، ثم آل الرسول ﷺ بعد أن كانوا ينسبون إليهم العجائب والخوارق.



توقير علماء السلف وموالاتهم

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين، أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل).

يجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، خصوصًا الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، فلهم الفضل علينا بالسبق، وتبليغ ما أرسل به النبي ﷺ إلينا، فرضي الله عنهم وأرضاهم. وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم.

علماء الأمة خيارها:

لقد كانت كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول ﷺ من أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وبه قاموا، متفقون اتفاقًا يقينًا على وجوب اتباعه ﷺ.

عذرهم فيما خالفوا فيه السنة:

سبق أن العلماء متفقون اتفاقًا يقينيًّا على وجوب اتباعه ﷺ، ولكن إذا وجد لأحدهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلابد له في تركه من عذر. **جماع الأعذار ثلاثة أصناف:**

- **عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.**
- **عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.**
- **اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.**

الفصل الثاني

اتباع أهل السنة والجماعة
واجتناب الشذوذ والفرقة

- المبحث الأول: وجوب اتباع السنة والجماعة.
- المبحث الثاني: حرمة الفرقة.
- المبحث الثالث: وجوب الحج والجهاد مع البر والفاجر.
- المبحث الرابع: عدم الخروج على أئمة الجور.
- المبحث الخامس: جواز المسح على الخفين في السفر والحضر.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفُرْقة).

السنة: طريقة الرسول ﷺ.

والجماعة: المسلمون، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، فاتباعهم هدى، وخلافهم ضلال.[1]

(١) قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لعمرو بن ميمون: الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك.

وقال نعيم بن حماد: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد الجماعة، وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ.



وجوب اتباع السنة والجماعة

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونتبع السنة والجماعة...).

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[1] [2].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ

(١) النساء: ١١٥

(٢) قال ابن تيمية: "فإنها متلازمان فكل من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين، وكل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، فإن كان يظن أنه متبع سبيل المؤمنين وهو مخطئ فهو بمنـزلة من ظن أنه متبع للرسول وهو مخطئ.

وهذه الآية تدل على أن إجماع المؤمنين حجة من جهة أن مخالفتهم مستلزمة بمخالفة الرسول، وإن كان ما أجمعوا عليه فلا بد أن يكون فيه نص عن الرسول، فكل مسألة يقطع فيها بالإجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين فإنها مما بين الله فيه الهدى، ومخالف مثل هذا الإجماع يكفر كما يكفر مخالف النص البين". الفتاوى (٧/ ٣٨).

(٣) الأنعام: ١٥٣.

مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(١)، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

وقال ﷺ: «... **فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة.**

وقال ﷺ: «**إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة** -يعني الأهواء- **كلها في النار، إلا واحدة وهي الجماعة**».

وقال عبد الله بن مسعود: من كان مستنًّا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أَصْحَاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قُلُوبًا، وأدقها عِلْمًا وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

---

(١) الأنعام: ١٥٩.

(٢) آل عمران: ١٠٥.



حرمــة الفرقــة

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (...ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة).

وقال: (ولا نخالف جماعة المسلمين).

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾(1). وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(2)، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(3)، وقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾(4). فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف.

وروى أحمد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «**إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب**

(1) آل عمران: ١٠٣.

(2) آل عمران: ١٠٥.

(3) الأنعام: ١٥٩.

(4) هود: ١١٨-١١٩.

الغنم، يأخذ الشاة القاصية، والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد»(١).

قال ﷺ: «**إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة**-يعني الأهواء-**كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة**».
وفي رواية قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»، فبين أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة.

وفي الصحيحين أنه ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾(٢)، قال: «**أعوذ بوجهك**» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾(٣). قال: «**هاتان أهون**»(٤). فدل على وقوع ذلك لا محالة! مع براءته ﷺ من هذه الحال، وهم فيها في جاهلية.

والأمور التي تنازعت فيها الأمة في الأصول والفروع، وصارت فيها على غير بينة من أمرها إن رحم الله المتنازعين فيها أقر بعضهم بعضًا، ولم يبغ بعضهم على بعض، وهدوا إلى العدل، فيعمل كل فريق بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره. وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم، فيبغي بعضهم على بعض إما بالقول، مثل: تكفيره وتفسيقه، وَإِمَّا بالفعل مثل: حبسه وضربه وقتله، كالذين امتحنوا الناس بخلق القرآن حيث ابتدعوا بدعة، كفَّروا من خالفهم فيها، واستحلوا منع حقه وعقوبته. وأكثر هؤلاء إما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون. قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾(٥)، وذلك كمن يدعي من المقلدين أن

(١) حم: ٢٣٣/ ٥ و ٢٤٣. كنز العمال: ٢٠٦/ ١، ح ١٠٢٧ • الديلمي ٣٧٨/ ٢، ح ٣٦٨٦. عن معاذ بن جبل.
(٢) الأنعام: ٦٥.
(٣) الأنعام: ٦٥.
(٤) خ: تفسير سورة الأنعام، ح ٤٣٥٢، والتوحيد، ب١٦، ح ٦٩٧١. عن جَابِر بن عبد الله.
(٥) آل عمران: ١٩.

قول مقلده هو الصحيح بلا حجة يبديها، ويذم من خالفه مع أنه معذور، ولو سلكوا ما علموه من العدل لأقر بعضهم بعضًا، ولم يظلم أحدهم الآخر أو يعتدي عليه.

أنواع الاختلاف:

أنواع الاختلاف في الأصل قسمان: اختلاف تنوع واختلاف تضاد.

(١) اختلاف التنوع:

اختلاف التنوع على وجوه: فمنه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين مشروعًا، كالقراءات التي اختلف فيها الصحابة حتى زجرهم ﷺ وقال: **"كلاكما محسن"**، وكاختلاف الأنواع في صفة الأذان والإقامة والاستفتاح والتشهد وصلاة الخوف وتكبيرات العيد ونحو ذلك، فقد شرع جميعه، وإن كان بعض أنواعه أرجح وأفضل، وتعجب إذ يقتتل بعض الناس على مثل ذلك.

ومنه مَا يكون كل من القولين في معنى القول الآخر، لكن العبارتين مختلفتان، وذلك كالاختلاف في ألفاظ الحدود وصوغ الأدلة ونحو ذلك، ثم يحمل الجهل أو الظلم على حمد إحدى المقالتين وذم الأخرى والاعتداء على قائلها.

وقد دل القرآن الكريم على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك إذا لم يحصل بغي، قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(١)، وكانوا قد اختلفوا في قطع الأشجار، فقطع قوم، وترك آخرون. وقال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(٢).

---

(١) الحشر: ٥.

(٢) الأنبياء: ٧٨-٧٩.

فخص سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالحكم والعلم. وقد أقر النبي ﷺ يوم بني قريظة من صلى العصر في وقتها، ومن أَخَّرَهَا إلى أن وصل إلى بني قريظة.(١)

وقال ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»(٢). وإنما يقع الذم في هذا الاختلاف على من بغى على الآخر فيه.

(٢) اختلاف التضاد:

وأما اختلاف التضاد فهو القولان المتنافيان، إما في الأصول، وَإِمَّا في الفروع عند الجمهور الذين يقولون: المصيب واحد. والخطب هنا أشد لتنافي القولين، لكن قد يرد صاحب الحق قول منازعه وإن كان فيه شيء من الحق فيبقى مبطلاً في البعض كما كان منازعه مبطلاً في الأصل، وهذا يجري كَثِيرًا لأهل السنة، وفي هذا الاختلاف تحمد إحدى الطائفتين وتذم الأخرى، كما في هذه الآيات: قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾(٣)، وقال: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ...﴾(٤).

وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول؛ لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق، ولا تُنْصِفُهَا، بل تزيد على مَا مع نَفْسهَا من الحق زيادات من الباطل والأخرى كذلك، ولذلك جعل الله مصدره البغي في

---

(١) خ: الخوف، ب ٥، ح ٩٠٤، والمغازي، ب ٢٨، ح ٣٨٩٣. م: الجهاد، ب ٢٣، ح ٦٩- عن ابن عمر.

(٢) خ: الاعتصام، ب ٢١، ح ٦٩١٩. م: الأقضية، ب ٦، ح ١٥. د: الأقضية، ب ٢، ح ٣٥٧٤، ت: الأحكام ب ٢، ح ٢٣٢٦. س: القضاة، ب ٣، ح ٥٣٨٣. ق: الأحكام، ب ٣ ح ٢٣١٤. حم: ١٨٧/ ٢، عن عمرو بن العاص وأبي هريرة.

(٣) البقرة: ٢٥٣.

(٤) الحج: ١٩.

قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾[1]؛ لأن البغي مجاوزة الحد.

الاختلاف في الكتاب:

الاختلاف في الكتاب نوعان:

- **اختلاف في تنـزيله**، وذلك كاختلافهم في تكلم الله بالقرآن، وتنـزيله، وقد سبق بيانه.
- **اختلاف في تأويله**،كما في هذا الحديث: روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خَرَجَ رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القدر، هذا ينـزع بآية، وهذا ينـزع بآية، فَكَأَنَّمَا فقئ في وجهه حَبُّ الرُّمان فقال: «**أبهذا أمرتم؟ أم بهذا وكلتم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فانتهوا**»[2].

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: هَجَّرتُ إلى النبي ﷺ يَوْمًا فسمعت أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الغضب فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب**»[3]. وكلا الاختلافين فيه إيمان ببعض دون بعض.

---

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) ت: القدر، ب ١، ح ٢١٣٣، ق: المقدمة، ب ١٠، ح ٨٥. حم ٢/١٧٩. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وأبي هريرة، وقال الترمذي: حسن.

(٣) م: العلم، ب ١.، ح ٢.

أهل البدع كافة مختلفون في تأويل الكتاب، مؤمنون ببعضه دون بعض:

وجميع أهل البدع مختلفون في تأويله مؤمنون ببعضه دون بعض، يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات، وأما ما خالفه فإنهم يقابلونه إما بالتأويل الذي يحرفون به الكلم عن مواضعه، أو بالتفويض، كقولهم: هذا مما لا نفهم من معانيه، وهو في معنى الكفر بذلك؛ لأن الإيمان باللفظ بلا معنى هو من جنس إيمان أهل الكتاب. قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾[2] أي: تلاوة بلا فهم، وليس هذا كالمؤمن الذي يعمل بما فهم من القران، ويفوض إلى الله ما اشتبه عليه،كما أمره بذلك النبي ﷺ.

قال ﷺ: «... **فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه**»[3].

---

(١) الجمعة: ٥.

(٢) البقرة: ٧٨.

(٣) مجمع الزوائد باب القراءات رقم (١١٥٧٤).



وجوب الحج والجهاد مع البر والفاجر

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين، بَرِّهم وفاجرهم إلى قيام الساعة، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما.

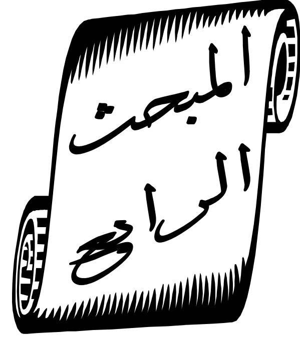
فيه رد على الرافضة حيث قالوا: لا جهاد حتى يخرج الرضى من آل محمد، وينادي منادٍ من السماء اتبعوه، وبطلان هذا القول لا يحتاج إلى دليل. كذلك اشترطوا أن يكون الإمام معصومًا اشْتِرَاطًا بغير دليل.

ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**» قال: قلنا: يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: «**لا ما أقاموا فيكم الصلاة، إلا من ولي عليه وال ورآه يأتي شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يَدًا من طاعة**»[1].

(١) م: الإِمَارَة، ب ١٧، ح ٦٥، ٦٦. حم ٢٤/٦. عن عوف بن مالك.

والرافضة من أخسر الناس صفقة في هذه المسألة، فقد جعلوا المعصوم هو الإمَام المعدوم، فإنهم يدعون أنه الإمام محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى في السرداب سنة ٢٦٠ هـ، أو قَرِيبًا من ذلك بسامرا، فهم يقفون بباب السرداب في أوقات عينوا فيها من ينادي عليه أُخرج يا مولانا! اخرج! مجهزين له دابة ليركبها إذا خرج، شاهرين أسلحتهم إلى غير ذلك من الأمور التي يضحك منها العقلاء.

وقوله: (**مع أولي الأمر برهم وفاجرهم**) ؛لأن الحج والجهاد فرضان متعلقان بالسفر، فلا بد من سائس يسوس فيهما ويقاوم فيهما العدو، وهذا يحصل بالبر والفاجر.



عدم الخروج على أئمة الجور

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة).

دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر ما لم يأمروا بمعصية. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]، فقال: وأطيعوا الرسول، ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم؛ لأن أولي الأمر لا يطاعون إلا فيما هو طاعة لله ورسوله، فليست لهم طاعة مستقلة، بخلاف الرسول فإنه لا يأمر بغير طاعة الله فهو معصوم في ذلك فثبتت له طاعة مستقلة.

وفي الصحيحين قال ﷺ: «**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمر بالمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[2].

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢)خ: الجِهَاد د، ب ١٠٧، ح ٢٧٩٦، والأحكام، ب ٤، ح ٦٧٢٥. م الإمارة، ب ٨، ح: ٣٨. ت الجهاد، ب ٢٩، ح ١٧٠٧. ق: الجِهَاد د، ب ٤٠، ح ٢٨٦٤، عن ابن عمر.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: «**من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شِبْرًا فمات فميتته جاهلية**». وفي رواية: «**فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**»[(١)].

عن أبي سعيد الخدري قال: قال ﷺ: «**إذا بويع الخليفتان فاقتلوا الآخر منهما**»[(٢)].

لقد دلت النصوص السابقة على وجوب طاعة أولي الأمر -وإن جاروا- ما لم يأمروا بمعصية، والحكمة من ذلك أنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف مَا يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات، ومضاعفة الأجور، فإن الله ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد بِالاسْتِغْفَارِ والتوبة، وَإِصْلاح العمل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[(٣)]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[(٤)]، وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[(٥)]، فَإِذَا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم فليتركوا الظلم.

عن مالك بن دينار أنه جاء في بعض الكتب: «أنا الله مَالك الملك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك لكن توبوا أُعَطِّفُهم عليكم»[(٦)].

(١) خ: الفتن، ب ٢، ح ٦٦٤٥ و ٦٦٤٦، والأحكام، ب ٤، ح ٦٧٢٤. م الإمارة، ب ١٣، ح ٥٥ و٥٦. حم: ٦٣٠/ ٤، عن ابن عباس.

(٢) م: الإمارة، ب ١٥، ح ١٦. ك: ١٥٦/ ٣، عن أبي سعيد.

(٣) الشورى: ٣٠.

(٤) الأنعام: ١٢٩.

(٥) النساء: ٧٩.

(٦) مجمع الزوائد: ٢٤٩/ ٥. وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن راشد، وهو متروك.



جواز المسح على الْخُفَّيْنِ في السفر والحضر

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (ونرى المسح على الْخُفَّيْنِ في السفر وَالْحَضر، كما جاء في الأثر).

تواترت السنة عن رسول الله ﷺ بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين، وخالفت ذلك الرافضة، مستدلين بقراءة الخفض في آية المائدة، قال تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[1].

الرد على الرافضة:

يقال لهم: إن الذين نقلوا عن النبي ﷺ الوضوء قولاً وفِعلاً أكثر عَدَدًا من الذين نقلوا لفظ هذه الآية؛ لأن جميع المسلمين كانوا يتوضؤون على عهده، ولم يتعلموا الوضوء إلا منه، وقد نقلوا عنه غسل الرجلين في ما شاء الله من الحديث، حتى نقلوا عنه من غير وجه في كتب الصحيح وغيرها: «**ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار**»، فلو جاز الطعن في تواتر صفة الوضوء لكان في نقل لفظ الآية أقرب إلى الجواز**!!**

(١) المائدة: ٦.

فإن قالوا: لفظ الآية ثبت بالتواتر الذي لا يمكن فيه الكذب، ولا الْخَطَأ.

قلنا: إن ثبوت التواتر في نقل الوضوء عنه أولى وَأَكْمَل.

ولفظ الآية لا يخالف ما تواتر من السنة، فإن المسح قد يراد به الإصابة، وقد يراد به الإسالة كما تقول العرب: تمسحت للصلاة. وفي قوله: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ دليل على أن المراد بالمسح هنا هو الغسل؛ لأن من يمسح المسح الخاص يجعل المسح لظهور القدمين، فَجَعْلُ الكعبين في الآية غاية يرد قولهم. وفي الآية قراءتان مشهورتان النصب، والخفض، وقراءة النصب نص وجوب الغسل؛ لأن الْعَطْف على المحل إنما يكون اذا كان المعنى وَاحِدًا. وليس المعنى: «مسحت برأسي ورجلي» هو معنى: «مسحت رأسي ورجلي»، بل ذكر الباء يفيد معنًى زَائِدًا على مجرد المسح، وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس، فتعين العطف على قوله: «وأيديَكم».

فالسنة المتواترة تقضي على ما يفهمه البعض من ظاهر القرآن، فإن الرسول ﷺ قد بين للناس لفظ القرآن ومعناه.

وفي ذكر المسح في الرجلين تنبيه على قلة الصب في الرجلين؛ لأن السرف يُعتاد فيهما كَثِيرًا، وتفصيل هذه المسألة في كتب الفروع.

الفصـل الثـالــث

حقيقة الدين وتوسطه
بين الإفراط والتفريط

- المبحث الأول: حقيقة الدين.

- المبحث الثاني: أهل القبلة بين الخوف والرجاء.



قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (**ودين الله في الأرض والسماء واحد، وهو دين الإسلام، قال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1]، **وقال تعالى:** ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[2]. **وهو بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل، وبين الجبر والقدر، وبين الأمن والإياس**).

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) المائدة: ٣.



حقيقــة الــديــــن

قال المصنف -رحمه الله تعالى- ودين الله في الأرض والسماء واحد، وهو دين الإسلام.)

الدين هو ما شرعه الله لعباده على ألسنة رسله، وهو ظاهر غاية في الظهور يدخل فيه الإِنسان بأقصر زَمَان ويخرج منه بأسرع من ذلك؛ من إنكار كلمة، أو تكذيب، أو معارضة، أو كذب على الله تعالى أو ارتياب في قوله، أو رد لما أنزل، أو شك فيما نفي عنه الشك، أو غير ذلك مما في معناه.

ودين الله في الأرض والسماء واحد، وهو عام في كل زمان، ولكن الشرائع متنوعة، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾(١).

وقال ﷺ: «**إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد**»(٢).

وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(٣).

---

(١) آل عمران: ٨٥.

(٢) خ: الأنبياء، ب ٤٩، ح ٣٢٥٩. م: الفضائل النبوية، ب ٤٠، ح١٤٥ باختلاف يسير.

(٣) المائدة: ٤٨.

ظهور الدين وسهولة تعلمه:

وقد دل الكتاب والسنة على ظهور دين الإسلام وسهولة تعلمه، وأنه يتعلمه الوافد ثم يولي في وقته، واختلاف تعليم النبي ﷺ في بعض الألفاظ بحسب حال من يتعلم.

فمن كان بعيد الموطن كوفد عبد القيس علمهم ما لا يسعهم جهله.

ومن كان قَرِيبًا يمكنه الإتيان في كل وقت بحيث يتعلم على التدرج، أجابه بحسب حاله وحاجته كالذي قال له: «**قل آمنت بالله ثم اسْتَقِمْ**»[(١)].

وسطية الدين:

☚ **كَوْنه وَسَطًا بين الغلو وَالتَّقْصِير:**

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[(٣)].

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود والمقداد بن الأسود وَسَالِمًا مولى أبي حذيفة في أصحابه تبتلوا فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح، وحرموا طَيِّبَات الطعام واللباس، الا مَا يَأْكُل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالاختصاء وأجمعوا لِقِيَام الليل وصيام النهار فنـزلت هذه الآية، فبعث إليهم النبي ﷺ فقال: «**إن لأنفسكم عليكم حقًّا، وإن لأعينكم حقًّا، صوموا وأفطروا، وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا**»، فقالوا: اللهم سَلَّمْنَا وَاتَّبَعْنَا مَا أنزلت.[(٤)]

---

(١) مسند أحمد من حديث سفيان بن عبد الثقفي.

(٢) المائدة: ٧٧.

(٣) المائدة: ٨٧-٨٨.

(٤) لم نعثر عليه.

وفي الصحيحين عن عائشة: أن نَاسًا من أصحاب رسول الله ﷺ سَأَلُوا أزواج رسول الله ﷺ عن عمله في السر؟ فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم وَأُفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[1].

- **وبين التشبيه والتعطيل:**

فيجب أن يوصف الله عز وجل بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسول الله ﷺ:

- من غير تشبيه، فلا يُقَال: سمع كسمعنا ونحوه.
- ومن غير تعطيل، فلا ننفي عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فإن ذلك تعطيل.

وهذا المعنى مستفاد من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2] فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد على المشبهة وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على المعطلة.

وبين الجبر والقدر: فالعبد ليس مَجْبُورًا على أقواله وأفعاله، وليس بخالق لها، بل هي فعله وكسبه، وخلق الله تعالى.

- **وبين الأمن والإِيَاسِ:**

فيجب أن يكون العبد خَائِفًا من عذاب ربه، رَاجِيًا لرحمته، فالخوف والرجاء بمنـزلة الجناحين للعبد في سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة.

(١) خ: النكاح، ب ١، ح ٤٧٧٦. م: النكاح، ب ١، ح ٥. س: النكاح، ب ٤، ح ٣٢١٩، عن أنس رضي الله عنه.
(٢) الشورى: ١١.



أهل القبلة بين الْخَوْف والرجاء

قـال المصـنف -رحمـه الله تعـالى-: (ونرجـو للمحسـنين مـن المـؤمنين أن يعفـو عـنهم ويـدخلهم الجنـة برحمتـه، ولا نـأمن علـيهم، ولا نشـهد لهـم بالجنـة، ونسـتغفر لمسـيئهم، ونخـاف عليهم، ولا نقنطهم).

وقـال: (والأمـن والإيـاس يـنقلان عـن ملـة الإسـلام، وسبـيل الحـق بينهما لأهل القبلة).

يجب على المؤمن أن يعتقد هذا الذي قاله الشيخ -رحمه الله- في حق نفسه وفي حق غيره.

فيجب أن يكون العبد خائفًا راجيًا؛ فإن **الخوف المحمود** ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. **والرجاء المحمود** رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنبًا ثم تاب منه إلى الله فهو راج لمغفرته، أما إذا كان الرجل متماديًا في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾(١)، وقال: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾(٢)، وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾(٣)، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾(٤)، وفي المسند والترمذي عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: «**لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه**». قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية والمنافق جمع إساءة وأمنًا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٥) فجعل رجاءهم مع إيمانهم بهذه الطاعات؛ فالرجاء إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله تعالى شرعه وقدرته وثوابه وكرامته؛ فلو أن رجلاً رجا أن يجني غلة أرضه من غير حرث وزرع وتعاهدٍ للأرض، أو أن يجيئه ولد من غير جماع، أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم والحرص التام عليه، وأمثال ذلك لعده الناس من أسفه السفهاء. فكذلك من حسن ظنه وقوي رجاؤه في

---

(١) الإسراء: ٥٧.

(٢) الزمر: ٩.

(٣) السجدة: ١٦.

(٤) المؤمنون: ٥٧-٦٠.

(٥) البقرة: ٢١٨.

الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ومما ينبغي أن يُعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه أمورًا: **أحدها**: محبة ما يرجوه، **الثاني**: خوفه من فواته، **الثالث**: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان. وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر فكل راج خائفٌ. والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوت.

قال أبو علي الروذباري -رحمه الله-: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت. فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

وقد قال ﷺ: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»[1]، وقال قبل موته بثلاث: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**»[2]. ولهذا قيل: إن العبد ينبغي أن يكون رجاؤه في مرضه أرجح من خوفه بخلاف زمن الصحة فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه.

قال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو مرجئ.

وأما المشرك فلا ترجى له المغفرة؛ لأن الله نفى عنه المغفرة، وما سواه من الذنوب في

---

(١) مجمع الزوائد كتاب الجنائز باب حسن الظن بالله (٣٨٨٧).

(٢) مسلم باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧).

مشيئة الله إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1]، وقد يقترن بالكبيرة من الخوف والحياء ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من الاستهانة وعدم المبالاة ما يلحقها بالكبائر، وهذا أمر مرده إلى ما يقوم بالقلب.

(١) النساء: ٤٨.

الفصـــل الرابـــع

البراءة من الفرق الضالة
ونقض موجز لأهم مقالاتهم



قال المصنف -رحمه الله تعالى-: (فهذا ديننا واعتقادنا ظاهرًا وباطنًا، ونحن برآء إلى الله تعالى من كل من خالف الذي ذكرناه وبيّناه، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان، ويختم لنا به، ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب الرديّة، مثل: المشبهة، والمعتزلة، والجهمية، والجبرية، والقدرية، وغيرهم، من الذين خالفوا السنة والجماعة، وحالفوا الضلالة، ونحن منهم برآء، وهم عندنا ضلال وأردِياء، وبالله العصمة والتوفيق).

الإشارة بقوله: (**فهذا**) إلى كل ما تقدم من أول الكِتَاب إلى هنا.

المشبهة:

هم الذين شبهوا الله بخلقه في صفاته كداود الجَوَارِبي وأشباهه، وقولهم عكس قول النصارى الذين شبهوا المخلُوق بالخالق وجعلوه إِلَهًا.

المعتزلة:

والمعتزلة هم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وَأَتْبَاعهمَا؛ وسموا بذلك لاعتزالهم الجماعة بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية.

وأصول مَذْهَبهم خمسة أطلقوا عليها:

(١) العدل. (٢) التوحيد. (٣) إنفاذ الوعيد.

(٤) المنـزلة بين المنـزلتين. (٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١. **أما العدل**: فقد ستروا تحته نفي القدر، وقالوا: لا يخلق الله الشر، ولا يقضي به؛ إذ لو خلقه وعذب عليه لكان ذلك جَوْرًا والله مُنَزَّه عن ذلك، ويلزم على هذا الأصل الفاسد نسبة العجز إلى الله؛ إذ يقع في ملكه ما لا يريده.

٢. **وأما التوحيد**: فقد ستروا تحته القول بخلق القرآن؛ إذ لو كان غير مخلوق لزم تعدد القدماء، ويلزمهم القول بأن سائر صفاته مخلوقة، أو التناقض.

٣. **وأما الوعيد**: فقد قالوا بوجوب نَفَاذ ما أوعد الله به؛ لأنه لا يخلف الميعاد ويلزمهم أنه عز وجل لا يعفو عمن يشاء، ولا يغفر لمن يريد.

٤. **وأما المنـزلة بين المنـزلتين**: فعندهم أن من ارتكب الكبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر.

٥. **وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: فقد قالوا: إنه يجب علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به وأن نلزمه بما يلزمنا، وضمنوه أنه يجوز الخروج على الأئمة بالقتال إذا جاروا، وهم مشبهة الأفعال؛ لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال العباد.

فقالوا: ما يحسن من العباد يحسن منه، وَمَا يقبح من العباد يقبح منه، ويجب عليه أن يفعل كذا، ولا يجوز له أن يفعل كذا. وهو فاسد، فإن السيد من البشر لو رأى عبيده تزني بِإِمَائِهِ ولم يمنعهم، يعد إما مُسْتَحْسِنًا للقبيح، أو عَاجِزًا عنه فكيف يصح قياس أفعاله تعالى على أفعال عباده؟! وعندهم: أن التوحيد والعدل من الأصول العقلية التي لا يعلم صحة السمع إلا بعدها، فالقرآن والسنة فيها بمنـزلة الشهود الزائدين على النصاب، فالاستدلال بهما للاعتضاد بهما، لا للاعتماد عليهما، فهم بمنـزلة من يتبع هواه، واتفق أن الشرع ما يهواه.

قال عمر بن عبد العزيز: لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذًا

أنت لا تثاب على مَا وافقته من الحق، وتعاقب على ما تركته منه؛ لأنك إنما اتبعت هواك في الموضعين.

وفي المعتزلة زنادقة كثيرون، وفيهم من ضل سعيه في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعًا.

الجهمية:

والجهمية هم المنتسبون إلى الجَهْم بن صفوان السمرقندي، وهو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل وكان قد أخذ ذلك عن الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري بعد استفتاء علماء زمانه. وكان الجهم بعده بخراسان، فأظهر مقالته هناك، وتابعه عليها البعض بعد أن ترك الصلاة أربعين يَوْمًا شكًّا في ربه إثْرَ مناظرة جرت بينه وبين بعض فلاسفة الهند.

فقد قالوا: ربك هذا الذي تعبده: هل يُرى؟ أو يشم؟ أو يذاق؟ أو يلمس؟ فقال: لا، فقالوا: هو معدوم فلما خلا قلبه من معبود يؤلهه نقش الشيطان اعتقادًا نحته فكره، فقال: إنه الوجود المطلق ونفى جميع الصفات، واتصل بالجعد. وقتل الجهم بخراسان، قتله سلم بن أحوز، ولكن مقالته كانت قد فشت في الناس وتقلدها بعده المعتزلة، إلا أن الجهم كان أدخل في التعطيل منهم؛ لأنه ينكر الأسماء حقيقة، وهم ينكرون الأسماء بل الصفات.

متى اشتهرت الجهمية؟

وَإِنَّمَا اشتهرت مقالة الجهمية من حين محنة الإِمَام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة، فقد قويت شوكتهم في إمارة المأمون الذي كان قد أقام بخراسان مدة واجتمع بهم.

أمور تفرَّد بها الجهم:

ومما انفرد به الجهم ما يأتي:

- القول بفناء الجنة والنار.
- أَنْ الإيمان هو المعرفة فقط، وأن الكفر هو الجهل فقط.
- القول بأن فعل العبد بمنـزلة لونه وطوله، وإن نسب إليه فعله فعلى سبيل المجاز،كما يقال: تحركت الشجرة، وزالت الشمس.

وقد تنازع العلماء في الجهمية: هل هم من الثنتين وسبعين فرقة أم لا؟ على قولين. وممن قال: إنهم ليسوا منهم عبد الله بن المبارك، ويوسف بن أسباط.

الجبرية:

أصل قولهم من الجهم، وهم عكس القدرية نفاة القدر فإنهم نسبوا إليه لنفيهم إياه، وقد تسمى الجبرية قدرية؛ لأنهم غلوا في إثبات القدر.

القَدَرِيَّة:

القدرية هم نفاة القدر، وقد نسبوا إليه لنفيهم إياه، وقد تسمى الجبرية قدرية؛ لأنهم غلوا في إثبات القدر.

وقد ورد في ذم القدرية أحاديث في السنن، منها: ما رواه أبو داود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن مَا توا فلا تشهدوهم**».

وقد روي في ذمهم أحاديث أخرى تكلم أهل الحديث في صحة رفعها، والصحيح أَنَّهَا موقوفة، بخلاف الأحاديث الواردة في ذم الخوارج، فإن فيهم في الصحيح وحده عشرة

أحاديث، أخرج البخاري مِنْهَا ثلاثة وأخرج مسلم سائرها.

لكن شبههم بالمجوس ظاهر، بل قولهم أردأ من قول المجوس، فَإن المجوس اعتقدوا وجود خالقين، والقدرية اعتقدوا خالقين.

المرجئة:

سميت بذلك لنفيهم الإرْجَاء، وأنه لا أحد مُرْجَأ لأمر الله إمَّا يعذبهم وإما يتوب عليهم ومنهم من سموا بذلك؛ لأنهم لا يجزمون بشيء من الوعد وَالْوَعِيد، بل يغلون في إرجاء كل أمر حتى الأنواع، فلا يجزمون بثواب من تاب، ولا بعقوبة من لم يتب.

وكانت المرجئة الأولى يرجئون عثمان وعليًّا، ولا يشهدون بإيمان ولا كفر، وهذه البدع المتقابلة حدثت من الفتن المفرقة بين الأمة.

قال سعيد بن المسيب: وقعت الفتنة الأولى-يعني مقتل عثمان-فلم تُبق من أصحاب بدر أحدًا، ثم وقعت الفتنة الثانية فلم تبق من أَصْحَاب الحديبية أحدًا، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ، أي: عقل وقوة.

- **فالخوارج والشيعة حدثوا بعد الفتنة الأولى.**
- **والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية.**
- **والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة.**

فصار هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شِيَعًا يقابلون البدعة بالبدعة. أولئك غلوا في علي (أي: الشيعة)، وأولئك كفَّروه (أي: الخوارج)، وأولئك غلوا في الوعيد حتى خلَّدوا بعض المؤمنين في النار (أي: الخوارج)، وأولئك غلوا في الوعد حتى نفوا بعض الوعيد (أي: المرجئة)، وأولئك غلوا في التنـزيه حتى نفوا بعض الصفات (أى: الجهمية)، وأولئك غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التشبيه (أي: المشبهة).

وسبب ضلال هذه الفرق جميعًا عدولهم عن الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[1]. فوحد لفظ: صراطه وسبيله وجمع السبل المخالفة له.

قال ابن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا وقال: «**هذا سبيل الله**»، ثم خط خُطُوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: «**هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ:** ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾»[2].

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال الهداية إلى الصِّرَاط المستقيم فوق كل ضرورة؛ ولهذا شرع الله عز وجل قراءة أم القرآن في كل ركعة في الصلاة وفيها: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[3]، قال ﷺ: «**اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون**»[4].

وقال ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بِالْقُذَّةِ حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»، قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**»[5].

قال طائفة من السلف: من انحرف من العُلَمَاء ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العبَّاد ففيه شبه من النصارى.

ولهذا نجد أكثر المنحرفين من أهل الكلام من المعتزلة ونحوهم فيهم شبه من اليهود،

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) س: تفسير سورة الأنعام، ح ١٩٤ و١٩٥. ك: ٣١٨/ ٢. حب: ١/ ١٠٥، حم: ٤٣٥/ ١ – عن أبن مسعود.

(٣) الفاتحة: ٦-٧.

(٤) ت: تفسير سورة الفاتحة، ح ٢٩٥٣ – عن عدي بن حاتم، وقال الترمذي حسن.

(٥) خ: الأنبياء، ب ٥١، ح ٣٢٦٩، والاعتصام، ب ١٤، ح ٦٨٨٩. م: العلم، ب ٣، ح ٦. ق: الفتن، ب ١٧، ح ٣٩٩٤. جامع الأصول: ٣٥/ ١٠، ح ٧٤٩٣. حب: ٢٤٨/ ٨، ح ٦٦٦٨.

وَأَكْثَر المنحرفين من العباد من المتصوفة ونحوهم فيهم شبه من النصارى؛ ولهذا يميلون إلى نوع من الرهبانية والحلول.

مسالك الفرق الضالة في الوحي:

وللفرق الضالة في الوحي طريقتان: طريقة التبديل، وطريقة التجهيل.

(١) أما أهل التبديل فهم نوعان:

- **أهل الوهم والتخييل.**
- **وأهل التحريف والتأويل.**

فأهل الوهم والتخييل يقولون: إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر، والجنة والنار بأمور غير مطابقة للواقع، بل خاطبوهم بما يتخيلون به ويتوهمون به أن الله شيء عظيم كبير، وإن كان الأمر ليس كذلك، وإن كان كَذِبًا فهو لمصلحة الجمهور! وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هذا الأصل.

أما أهل التحريف والتأويل فإنهم يقولون: إن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحق في نفس الأمر، بل الحق ما علمناه بعقولنا، ثم يَتَأَولونَ هذه الأقوال بما يوافق رأيهم ومعقولاتهم.

(٢) وأما أهل التجهيل والتضليل:

فحقيقة قولهم أن الأنبياء جاهلون ضالون، لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات، وأقوال الأنبياء، ويجوزون أن يكون للنص تأويل لا يعلمه إلا الله وحده، فلا يعلمه جبريل ولا محمد ولا غيره من الأنبياء! وأن رسول الله ﷺ كان يقرأ آيات الصفات فلا يعرف معانيها؛ لأن ذلك لا يعرفه إلا الله، وَيَظُنُّونَ هذه طريقة السلف.

ومنهم من يقول: إن المراد بها خلاف مدلولها الظاهر، ولا يعرفه أحد كما لا يعلم وقت الساعة.

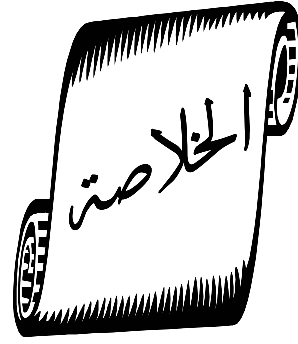
ومنهم من يقول: تُجْرَى على ظاهرها وتُحمل على ظَاهِرهَا، ومع هذا فلا يعلم تأويلها إلا الله فيتناقضون حيث أثبتوا لها تأويلاً يخالف ظاهرها، وقالوا مع هذا: إِنَّهَا تُحمل على ظَاهِرهَا.

فهؤلاء مشتركون في القول بأن الرسول لم يبين المراد بالنصوص التي يَجْعَلُونَهَا مشكلة متشابهة.

ثم منهم من يقول: لم يعلم معانيَها، ومنهم من يقول: علمها ولم يُبَيِّنْهَا بل أَحَالَ في بيانها إلى الأدلة العقلية.

فهم مشتركون بأن الرسول ﷺ لم يَأْتِ بها بِمَا يوافق عقولنا، وأن الأَنْبِيَاء لا يعرفون العقليات ولا يفهمون السمعيات، وكل ذلك ضلال وتضليل عن سواء السبيل.

نسأل الله السلامة والعافية، من هذه الأقوال الواهية، المفضية بصاحبها إلى الهاوية.



- حب أصحاب النبي محمد ﷺ كلِّهم دين، على أن يكون بغير إفراط كالشيعة، ولاتفريط كالروافض، وبغض الصحابة جملة وسبهم جملة كفر.
- السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هم كل من أسلم قبل بيعة الرضوان، وهم أخص بصحبة النبي ﷺ ممن أسلم بعد البيعة.
- ثبتت خلافة أبي بكر بنصوص السنة، وخلافة عمر بن الخطاب بتفويض أبي بكر الخلافة إليه، أما عثمان بن عفان فقد كان أحد الستة الذين أوصى عمر أن تكون الخلافة فيهم، ثم بايع الناس علي بن أبي طالب للخلافة بعد عثمان.
- دامت الخلافة الراشدة ثلاثين سنة على يد الخلفاء الراشدين المهديين الأربعة، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، كما دلت على ذلك السنة.
- سمى النبي ﷺ عشرة من أصحابه، وبشرهم بالجنة، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح.
- الرافضة يتبرأون من معظم الصحابة، ويغالون في محبة أهل البيت، وعلى رأس هذه الفرقة الزنديق عبد الله بن سبأ الذي قصد بفتنته إبطال دين الإسلام.

- علماء السلف هم خيار هذه الأمة، بهم قام كتاب الله، وبلغت سنة رسوله ﷺ، فينبغي توقيرهم، وموالاتهم، واتباعهم.
- اتباع السنة والجماعة هدى، وخلافهم ضلال، فأهل السنة والجماعة هم الفرقة الناجية، وتتمثل في الصحابة، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.
- الاختلاف الذي وقع بين الطوائف قسمان: إما اختلاف تنوع لايقع فيه الذم مالم يحصل بغي، أو اختلاف تضاد بين قولين متنافيين فتحمد الطائفة التي تحمل الحق، وتذم الأخرى.
- أهل البدع كافة مختلفون في تأويل القرآن، فيقرون بما يوافق رأيهم من آياته، ويقابلون ما يخالف رأيهم إما بالتحريف أو بالتفويض.
- الحج والجهاد فريضتان ماضيتان مع أولي الأمر من المسلمين، برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة. وقد ضل الرافضة في هذه المسألة إذ اشترطوا عصمة الإمام.
- طاعة أولي الأمر للمسلمين واجبة وإن كانوا من الجائرين مالم يأمروا بمعصية.
- تواترت السنة عن النبي ﷺ بالمسح على الخفين، وبغسل الرجلين، إلا إن الرافضة طعنت في تواتر غسل الرجلين وأنكرته.
- الدين هو ماشرعه الله تعالى لعباده على ألسنة رسله، وهو عام في كل زمان، ولكن الشرائع متنوعة، وهو وسط بين الغلو والتقصير في شرائعه، وبين التشبيه والتعطيل في الصفات، وبين الجبر والقدر في أفعال العباد، وبين الخوف والرجاء في أحوال القلوب.
- الخوف المحمود هو الذي يحول بين صاحبه وبين محارم الله، وتجاوزه يؤدي إلى اليأس والقنوط، والرجاء المحمود هو المقرون بالعمل الصالح، والتوبة من

الذنوب، فإن انفك عن العمل صار غرورًا وأماني كاذبة.

- أهل السنة والجماعة برآء من العقائد الفاسدة وأصحابها، فهم فرق ضالة لعدولهم عن الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه.
- للفرق الضالة في الوحي طريقتان: طريقة التبديل: سواء بالوهم والتخييل، أو بالتحريف والتأويل، وطريقة التجهيل.

الاختبـار البعـدي للوحـدة

س١: اذكر أدلة الكتاب والسنة على فضل الصحابة كلهم رضوان الله عليهم، ووجوب محبتهم، ثم بين كيفية هذا الحب، ونماذج للزيغ فيه.

س٢: كيف ثبتت الخلافة لكل من الخلفاء الراشدين؟ اذكر نبذة عن فضائل كل منهم، وعن فضل الخلافة الراشدة عمومًا.

س٣: مَن العشرة المبشرون بالجنة؟ وما عقيدة كل من أهل السنة، والرافضة فيهم؟

س٤: مذهب الرافضة أخبث وأضل من اليهود والنصارى. اشرح ذلك مبينًا عقيدتهم الفاسدة في الصحابة، وطريقتهم في إفساد الدين؟

س٥: ما منـزلة علماء الأمة؟ وما الحال إذا قال أحدهم ما يخالف صحيح السنة؟

س٦: اذكر أدلة الكتاب والسنة على وجوب اتباع السنة والجماعة، واجتناب الفرقة، مع بيان من هم أهل السنة والجماعة؟

س٧: ما أقسام الاختلاف بين الطوائف المتنازعة؟ اذكر أمثلة على كل منها؟

س٨: اذكر عقيدة كل من أهل السنة والرافضة في مسألة الحج والجهاد مع أولي الأمر؟

س٩: **ضع علامة (✓) أو (×) أمام العبارات الآتية:**

١ – أولو الأمر لهم طاعة مستقلة توجب على المسلم السمع والطاعة لهم. ( )

٢– يجب طاعة أئمة الجور، وإن لم يقيموا الصلاة في الأمة. ( )

٣– الظلم الذي يقع من ولاة الأمور يستلزم الخروج عليهم. ( )

٤ – يجب طاعة أولي الأمر – وإن جاروا – مالم يأمروا بمعصية. ( )

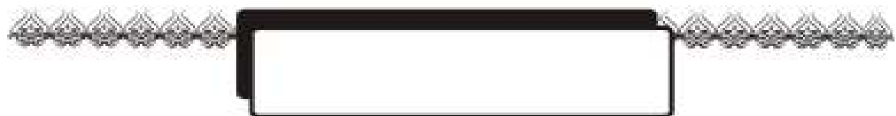
س١٠: لِمَ أدخل المصنف -رحمه الله- قوله: «ونرى المسح على الخفين...» في متن عقيدته، رغم أن المسألة فقهية؟

س١١: دين الله الذي جاءت به الرسل واحد، وهو وسط معتدل. وضح ذلك؟

س١٢: متى يكون حال العبد بين الخوف والرجاء محمودًا؟ ومتى يصير مذمومًا؟

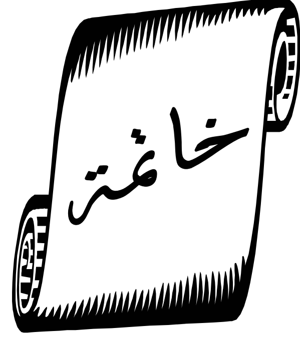
س١٣: ما عقيدة أهل السنة في الفرق الضالة؟ اذكر ثلاثًا من هذه الفرق، ونبذة عن معتقداتهم الفاسدة.

س١٤: ما مسالك الفرق الضالة في الوحي؟ وما السبب في ضلال هذه الفرق عمومًا؟



خاتمـــــة





الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات!

لقد طوفنا في هذا الكتاب بآفاق شتى من الإيمان بالله ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ثم ختمنا بمتفرقات لم يتسن لنا جمعها في عقد واحد إلا تحت هذه التسمية.

أرجو أن يجد الدارس شيئاً من الروح واليسر في مدارسة هذا الكتاب، وأن يكون قد قرب له محتويات الكتاب الأم ونظم له مادته، ووصيتنا له أن يكون وثيق الصلة بالكتاب الأصلي قبل التهذيب، وأن لا يحجبه هذا الكتاب عن الانتفاع بكتاب ابن أبي العز رحمه الله ونظائره من كتب المتقدمين، وأن يذكر أصحاب هذه الكتب في خلواته مع ربه ترحماً عليهم واستغفاراً لهم، وأن يستشعر دائماً أن العلم رحم بين أهله، فما بدا له من نصح يرد أن يتوجه به إلى صاحب هذا التهذيب فلا يضن عليه بشيء من ذلك، وعهدنا معه أن يجدنا من أرحب الناس صدراً لتلقي هذه النصيحة وأحسنهم لها قبولاً بإذن الله، فقد أمرنا أن نبذل النصيحة في أحسن حال، وأن نقبلها على كل حال، ونرجو أن يكون الملتقى مع كتاب آخر إن كان في الآجال طول وفسحة، وإن كانت الأخرى فأرجو أن يكون على حوض نبينا يوم القيامة بإذن الله!

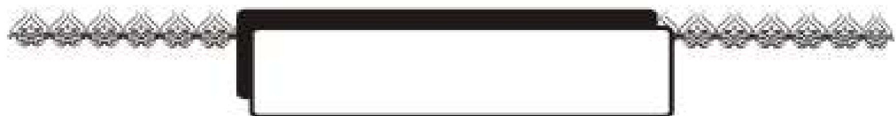
والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أ.د. صلاح الصاوي

القاهرة – مدينة نصر في يوم

الأحد ١٩/ ٤/ ٢٠٠٩م

الموافق ٢٣/ ٤/ ١٤٣٠هـ



الفهـــــــرس



الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة

الصفحة	الموضـــوع